بروسبير ميريميه

كولومبا

تعريب محمد غلاب



دار الكاتب المصري

كولومبا

بروسپير ميريميه

كولومبا

تعريب محمد غلاب



دار الكاتب المصري

الطبعة الاولى . . . يونيو ١٩٤٧

العنوان الاصلى للكتاب
بالفرنسية

PROSPER MERIMEE
COLOMBA

إليك ياشقيقتى العزيزة ا . غ .

أهدى هذه القصة

التى كأنها لم تكتب إلا لرسمك .

محمد غلاب

١

«لكى يكون الانتقام فعالا
يجب أن يكون شاملا»
ڤوتشيرو دو نيولو

فى الأيام الأولى من شهر أكتوبر سنة ١٨١٩ كان الكولونيل السير توماس نيفيل ، وهو ضابط ارلندى ممتاز فى الجيش الإنجليزى قد نزل مع ابنته ليديا فى فندق بوفو بمارسيليا فى عودته من رحلته إلى إيتاليا . ولما كانت حماسة السائحين فى إعجابهم المتوالى بتلك البلاد قد أحدثت رد فعل ، فقد أصبح كثير منهم اليوم — لكى يمتازوا — يتخذون كشعار لهم قول هوراس [١] : « لا تنفعل من شىء . » ولقد كانت الآنسة ليديا ابنة الكولونيل الوحيدة تنتسب إلى هذه الطبقة من الرحالة الذين لا يرضون عن شىء ، فلوحة « التجلى » [٢] بدت لها عادية ، و بركان فيزوف فى ثروته لم

---

(١) هو أحد مشاهير شعراء اللاتين عاش فى القرن الأول قبل المسيح ، وكان صديقا لأوجوست ، وكان يقول بأن عدم الانفعال من أى شىء هو مبدأ السعادة . (المترجم)

(٢) هى إحدى شهيرات لوحات رفاييل رسم فيها صورة تجلى السيد المسيح على تلاميذه ، وتعتبر فى طليعة إبداع عهد النهضة ، وهى الآن فى الفاتيكان . (المترجم)

يَسْمُ في نظرها على مداخن مصانع بيرمنجهام إلا قليلا . وقصارى القول : إنها كانت تأخذ على إيطاليا أنها ينقصها اللون القومى ، ويعوزها الامتياز . فليوضح لى من يستطيع التوضيح معانى هذه الكلمات التى كنت أفهمها حق الفهم منذ بضعة أعوام ولم أعد أفهمها اليوم . منت الآنسة ليديا نفسها بديا بأنها ستظفر — فيما وراء الألب — بأشياء لم يرها قبلها أحد ، فتستطيع أن تتحدث عنها إلى الأشراف ، ولكنها لما رأت أن مواطنيها قد تقدموها إلى كل مكان ويئست من أن تجد شيئاً مجهولا لم تلبث أن ألقت بنفسها فى حزب المعارضة . وفى الواقع أنه من المضجر أنك لا تستطيع التحدث عن عجائب إيطاليا دون أن يقول لك أحد : « أنت تعرف بدون شك لوحة رفائيل الموجودة فى قصر كذا بالموضع الفلانى ، إنها أجمل ما يوجد فى إيطاليا . » وتلك اللوحة بالذات هى التى تكون قد أهملت رؤيتها ، وما دام من العسير رؤية كل شىء ، فالأبسط الطعن مقدماً على كل شىء .

ولقد ألمت بالآنسة ليديا فى فندق بوفو خيبة أمل مريرة ، إذ أنها حملت معها رسماً جميلا للباب البيلاجى أو السيكلوبى بمدينة السينى كانت تحسب أن الرسامين قد غفلوا عنه ، غير أن السيدة فرانسيس التى التقت بها فى مارسيليا أرتها مجموعة رسومها وفيها — بين قطعة شعرية وزهرة مجففة — رسم ذلك الباب . وعلى الفور أعطت الآنسة ليديا وصيفتها

هـذا الرسم وفقدت الآثار البلاجيـة فى نفسها كل اعتبار .

ولقد كان الكولونيل نيفيل يشاطر ابنته هذه الاستعدادات الحزينة ، لأنه منذ وفاة زوجته لم يكن يرى الأشياء إلا بعينى تلك الإبنة ، فكان ذنب إيتاليا الهائل فى رأيه أنها أضجرتها . وإذاً ، فقد كانت أشد بلاد العالم فى نظره إملالا وإسئاما . حقا لم يكن لديه ما يعيب به اللوحات والتماثيل ، ولكن الذى كان يستطيع أن يؤكده هو أن الصيـد كان تعسا فى ذلك البلد ، وأن المرء — لكى يصطاد بضعة أحجال حمراء تافهة — كان ينبغى له أن يقطع عشر مراحل فى حقول روما تحت الشمس المحرقة .

وفى اليوم التـالى لوصوله إلى مارسيليا دعا إلى العشاء الكابتن إليس مرءوسه القديم الذى كان عائدا من رحلة أمضى منها ستة أسابيع فى كورسيكا فقص هذا الكابتن بطريقة شائقة على الآنسة ليديا قصة قطاع طريق تمتاز بأنها لا تشبه بأى وجه قصص اللصوص التى تروى غالبا فى طريق روما ونابولى . وبعد تنـاول الحلوى بقى الرجلان وحدهما جالسين إلى المائدة ، وأمامهما زجاجات من نبيذ بوردو، وأخذا يتحدثان عن الصيد ، فعرف الكولونيل من هذا الحديث أنه لا يوجد بلد فيه الصيد أجمل وأكثر تنوعا ووفرة منه فى كورسيكا . ولقد جعل الكابتن إليس يقول إنه يوجد فيها كثير من الخنازير البرية ، وينبغى للصائد أن يعرف كيف يميزها من الخنـازير المستأنسة التى تشبهها بهيئة مدهشة ، لأن الإنسان حينما يقتل أحد الخنازير

المستأنسة يأتى أمرا إدًّا بإزاء حراسها ، إذ هم يخرجون من غاباتهم التى يسمونها الماكى مدججين بالسلاح فيحملونك على دفع قيمة حيوانهم ويسخرون منك . وهناك أيضا الكبش البرى ، وهو حيوان جد غريب لا يعثر عليه المرء فى مكان آخر ، وهو صيد جيد ولكنه صعب الاقتناص . وفيها كذلك أوعال وشوادن وديكة برية وأحجال . وبالإجمال لا يستطيع أحد أن يحصى أسماء كل أنواع الطرائد التى تنساب النمل فى كورسيكا . فإذا كنت تحب الصيد فاذهب إلى تلك البلاد يا كولونيل ، فهناك — كما يقول أحد ضائفى — تستطيع أن تطلق سلاحك على كل القنائص الممكنة من السمانة إلى الإنسان .

وفى أثناء تناول الشاى سحر الكابتن من جديد الآنسة ليديا بقصة انتقام أكثر غرابة من الأولى وانتهى بأن حمسها لكورسيكا ، إذ جعل يصف لها منظرها الوحشى الغريب ، وطباع سكانها الخاصة وكرمهم وأخلاقهم البدائية . وأخيرا أهدى إليها بكل رقة خنجرا جميلا صغيرا ، هو من حيث مصدره أجدر بالملاحظة منه من حيث صورته وقبضته ؛ لأن شقيا شهيرا قد نزل عنه للكابتن إليس ، وأكد له أنه انغمس فى أربعة أجسام بشرية ، فحفظته الآنسة ليديا فى حزامها . وفى الليل وضعته على منضدتها ، وقبل أن تنام أخرجته من غمده مرتين . أما الكولونيل ، فقد رأى فى منامه أنه قتل كبشا بريا ، وأن مالكه تقاضاه ثمنه فوافق على دفعه بكل امتنان ، لأنه كان

حيوانا عجيبا يشبه خنزيراً وحشيًّا ، وله قرنا وعل ، وذيل ديك برى .

وفى اليوم التالى بينما كان الكولونيل يتناول الطعام مع ابنته منفردين قال لها :

— إن إليس قد أنبأنى بأن القنص فى كورسيكا جدير بالإعجاب ، فلو لم تكن بعيدة إلى هذا الحد لأحببت أن أمضى فيها حوالى خمسة عشر يوما .

— وإذا كان الأمر كذلك ، فلم لا نذهب إلى كورسيكا ؟ وأثناء صيدك سأشتغل أنا بالرسم ، إذ سيسحرنى أن تكون فى مجموعة رسومى صورة الغار الذى تحدث عنه الكابتن إليس والذى كان بونابارت يأوى إليه ليدرس فيه منفردا حين كان طفلا .

قد تكون هذه هى المرة الأولى التى صادفت فيها رغبة معلنة من لدن الكولونيل موافقة ابنته ، ولما افتتن بهذه المصادفة التى لم يكن يتوقعها ، فقد كان لديه من الحذق ما جعله يوجه بضعة اعتراضات إلى هذا المشروع ، ليثير تلك الرغبة السعيدة فى نفس الآنسة ليديا ، فحاول أن يتحدث عن وحشية هاتيك البلاد وعن المصاعب التى تعترض السيدة فى الرحيل إليها ، ولكن محاولته ذهبت سدى ، إذ أنها أجابت على هذه الاعتراضات بأنها لا تخشى شيئا ، وأنها تفضل سفر الجواد على كل شئ ، وأنها تعتبر نومها تحت الخيمة كأنه عيد ، وأنها تهدد بالارتحال إلى آسيا الصغرى إذا لم يجب سؤلها . وقصارى القول :

كان لديها على كل ملاحظة رد ، لأن أية انجليزية لم تذهب إلى كورسيكا ، وإذاً فيجب أن تذهب هى . وأية سعادة تلك التى تفعم نفسها — بعد أن تعود إلى سان جيمس بليس — حين تظهر مجموعة رسومها فيدور هذا الحديث : « يا عزيزتى ماذا يمثل هذا الرسم الفاتن ؟ — أوه ! ليس هذا شيئا ذا أهمية ، هذه صورة رسمتها لشقى كورسيكى شهير قد استخدمناه كمرشد . — كيف ! هل كنت فى كورسيكا ؟ . . . »

ولما لم تكن البواخر قد وجدت بعد بين فرنسا وكورسيكا ، فقد بدىء فى التنقيب عن سفينة راحلة نحو تلك الجزيرة التى كانت الآنسة ليديا تستعد لاكتشافها . وفى نفس اليوم كتب الكولونيل إلى باريس ليتحلل من المسكن الذى كان قد حجزه لسكناهما واتفق مع ربان سفينة صغيرة كانت تعد شراعها للرحيل إلى أجاسيو ، وكان فيها غرفتان . تزود الركاب بما يلزم لهم من الأطعمة ، وأقسم الربان أن أحد بحارته المسنين طاه جدير بالاعتبار ، وأنه ليس له نظير فى صناعة « البويّابيس »[1] وتعهد بأن كل شئ سيكون ملائما للآنسة ، وبأنها ستظفر بهواء معتدل وبحر هادىء جميل .

وفوق ذلك فإن الكولونيل نزولا على إرادة ابنته ، قد اشترط على الربان ألا يحمل معه أى مسافر آخر ، وأن يسير بالقرب من شاطىء الجزيرة حتى يتيسر لها التمتع بمنظر الجبل .

---

(١) البويابيس هى حساء السمك الشهير فى مارسيليا . (المترجم)

٢

في اليوم المحدد للرحيل كان كل شئ قد حزم وأُصْعِدَ منذ الصباح إلى السفينة التى يجب أن تبحر مع نسيم المساء . وفى أثناء ساعات الانتظار كان الكولونيل يتنزه مع ابنته فى كانبيير ، وإنه لكذلك إذا أقبل عليه الربان ليستأذنه فى أن يحمل معه أحد أقاربه كان عائداً إلى كورسيكا مسقط رأسه لأمور مستعجلة ولم يستطع أن يجد سفينة توصله إليها ثم أضاف الربان إلى ما تقدم قوله :

— إنه لشاب ساحر ، وهو ضابط من ضباط فرق المشاة فى الحرس ، وكان سيرتقى إلى درجة كولونيل لو أن الآخر[1] كان لا يزال امبراطورا .

فأجاب الكولونيل بقوله :

— ما دام أنه عسكرى . . .

وكان يريد أن يتمم عبارته فيقول : فأنا أوافق بكل امتنان على أن يجيء معنا . . . ولكن الآنسة ليديا صاحت بالإنجليزية قائلة :

— أحد ضباط فرق المشاة ! . . . (إذ لما كان والدها من ضباط فرق الخيالة فقد كانت تحتقر كل أنواع الفرق

---

(١) المراد بالآخر هنا هو نابوليون الأول ، وكان الشعب بعد سقوطه لا يجرؤ على ذكر اسمه فيدعوه بالآخر . (المترجم)

الأخرى فى الجيش) قد يكون رجلا بدون تربية ، وقد يصاب بدوار البحر فيفسد علينا كل سرور الرحلة .

لم يكن الربان يعرف أية كلمة انجليزية ، ولكنه بدا كأنه قد فهم ما كانت الآنسة ليديا تقوله بوساطة التقززة الصغيرة التى ظهرت على فمها الجميل ، فأخذ يثنى على قريبه ثناء عاطراً أتمه بتأكيده أنه رجل على غاية ما ينبغى ، وأنه من إحدى أسر كابورو[1] ، وأنه لن يضايق الكولونيل ألبتة ، لأنه هو يتعهد بأن يؤويه فى زاوية لا يلمح أحد وجوده فيها .

عجب الكولونيل والآنسة من أنه لا يزال يوجد إلى الآن فى كورسيكا أسر تنتقل فيها رتبة كابورال (أونباشى) بالوراثة من الآباء إلى الأبناء ، ولكن لما كانا يعتقدان أن الأمر يتعلق بأحد أونباشى المشاة ، فقد استنتجا أنه أحد فقراء الشبان يريد الربان أن يحمله معه إحساناً عليه ، ولو كان الأمر يتعلق حقاً بضابط لكانا مضطرين إلى التحدث إليه وإلى الحياة معه ، ولكن مع أونباشى لا يوجد داع للتضايق ، لأنه كائن لا خطر له ما لم يكن على رأس فصيلته ليقتادوك إلى حيث لا تريد .

---

(١) كابورو هى كلمة فرنسية مفردها : كابورال ، وهو الأونباشى أو رئيس عشرة جنود ، وهذا المعنى هو الذى أحدث احتقار الشاب فى نفسى الكولونيل وابنته ، ولكنهما كانا على خطأ فى احتقاره ، إذ أن كلمة كابورو هنا علم لأسرة هذا الشاب ، ولها فى كورسيكا معنى آخر يجعله جديرا بالاجلال لا بالاحتقار على ما سيجىء فى موضعه . (المترجم)

وعلى أثر ذلك وجهت الآنسة نيفيل إلى الربان هذا السؤال بلهجة جافة :

— هل قريبك مصاب بدوار البحر ؟

— كلا يا آنسة إن لديه قلباً جامداً كأنه صخر على البحر كما هو على الأرض .

فقالت :

— هذا حسن ، إذاً تستطيع أن تحضره .

أعاد الكولونيل عبارة ابنته ذاتها ثم استأنفا نزهتهما .

وخوالى الساعة الخامسة مساء جاء الربان ماتيي يدعوهما ليصعدا إلى السفينة ، وهناك على الإفريز وعلى مقربة من زورقها ألفيا شاباً طويل القامة مرتدياً ردينجوت زرقاء مزررة إلى ذقنه ، أسمر البشرة ، ذا عينين سوداوين بديعتي التكوين تبعث منهما الحيوية ، وعليه علائم الصراحة وسرعة البديهة . ومن هيئة وقفته التي تكاد استقامتها تمحو كتفيه ، ومن شاربه الصغير المتجعد كان الناظر إليه يعرف أنه عسكرى ، لأن الشوارب فى ذلك العهد لم تكن مألوفة فى الطرقات .

ولما رأى هذا الشاب الكولونيل رفع قبعته وشكره بدون ارتباك وبعبارات جيدة على الجميل الذى أسداه إليه ، فأشار الكولونيل برأسه إشارة التلطف ثم صعد إلى الزورق بعد أن أجاب بهذه العبارة :

— إننى لممتن من أن أكون نافعاً لك يا بنى .

فهمس الشاب فى أذن الربان بالإيطالية قائلا :

— إن انجليزيك هذا لا تضايقه مخالفة اللياقة .

عند ذلك وضع ماتيي سبابته تحت عينه اليسرى وخفض زوايتى فمه ، وهذا لدى من يفهم لغة الإشارات معناه أن الانجليزى يفهم الإيتالية ، وأنه رجل غريب الأطوار ، فابتسم الشاب ابتسامة خفيفة ولمس جبهته مجيباً على إشارة الربان كأنما يريد أن يقول له : إن كل الإنجليز فى رؤوسهم شئ من الاعوجاج . ثم جلس إلى جانبه وأخذ يتأمل بانتباه ، ولكن بدون وقاحة فى رفيقة سفره الجميلة . وبينا هو على هذه الحال إذ قال الكولونيل لابنته بالإنجليزية :

— إن مناظر الجنود الفرنسيين جميلة ، ولهذا يتخذ منهم ضباط فى سهولة .

ثم التفت إلى الشاب قائلا له بالفرنسية :

— قل لى ياشهمى[١] فى أية فرقة من فرق الجيش كنت ؟

عند ذلك لمس الشاب قريبه بمرفقه وأخفى ابتسامة ساخرة كانت على فمه وأجاب بقوله : إنه كان فى فرقة الشاسور[٢] المشاة فى الحرس وأنه الآن خارج من فرقة الشاسور السابعة الخفيفة .

— هل كنت فى واترلو ؟ أنت لا تزال فى طليعة شبابك .

(١) يلمح من خلال روح اللغة أن هذا التعبير صادر من أعلى إلى أدنى ولهذا ابتسم الشاب ابتسامة السخرية ولمس الربان بمرفقه . (المترجم)

(٢) الشاسور هى إحدى الفرق ذوات الأسلحة الخفيفة من المشاة والفرسان فى الجيش الفرنسى . (المترجم)

— عفواً يا كولونيلي فهي حملتي الوحيدة .

— إنها تعد باثنتين .

فعض الشاب الكورسيكي على شفتيه ، وإذ ذاك قالت الآنسة ليديا لوالدها بالانجليزية :

— والدي ، إسأله هل الكورسيكيون يحبون بونابارتهم كثيراً ؟

وقبل أن يترجم الكولونيل السؤال إلى الفرنسية أجاب الشاب بإنجليزية جيدة ، ولو أن اللهجة الأجنبية واضحة فيها قائلا :

— أنت تعرفين يا آنسة أنه لا أحد نبي في بلده [1] ، فنحن مواطني نابوليون قد نحبه أقل من الفرنسيين ، أما أنا شخصياً — ولو أن أسرتي كانت فيما مضى عدوة أسرته — فاني أحبه وأعجب به .

فقال الكولونيل متعجباً :

— أنت تتكلم الانجليزية !

— سيئاً جداً كما تستطيع أن تلمح ذلك .

وعلى الرغم من أن الآنسة ليديا قد شاكتها لهجته المتهاونة لم تستطع أن تمنع نفسها من الضحك ، وهي تفكر في عداوة شخصية بين أونباشي وأمبراطور ، وقد بدا لها ذلك كتمهيد لتذوق غرابة الكورسيكيين ووعدت نفسها بأن

---

(١) هذا تعبير معناه أن العظيم لا تقدره بيئته كما يقدره غيرها . (المترجم)

تسجل هذا المنظر فى يومياتها . و إذ ذاك قال له الكولونيل :

— من الممكن أن تكون قد أسرت فى انجلترا .

— كلا يا كولونيلى فأنا تعلمت الانجليزية فى فرنسا فى طليعة حياتى من أحد أسرى مواطنيكم .

ثم اتجه إلى الآنسة نفيل وقال لها :

— إن ماتي أنبأنى بأنكما كنتما عائدين من إيتاليا ، فأنت تتكلمين التوسكانية النقية بدون شك يا آنسة وأخشى أن ترتبكى قليلا فى فهم لغتنا الاقليمية .

فأجاب الكولونيل بقوله :

— إن ابنتى تفهم كل اللهجات الإيتالية ، إذ قد منحت موهبة اللغات وليست مثلى .

— هل الآنسة تفهم مثلا هذين البيتين من إحدى أغانينا الكورسيكية وقد وجههما أحد الرعاة إلى محبوبته .

إذا دخلت الفردوس المقدس

ولم أجدك فيه فسأخرج منه

فهمت الآنسة ليديا معنى هذين البيتين ، ولكنها لما وجدت هذا النص جريئاً ، وأجرأ منه النظرة التى ترافقه ، أجابت وقد احمرت وجنتاها :

— لقد فهمت .

ثم سأله الكولونيل :

— وأنت تعود إلى بلادك بإجازة ستة أشهر ؟

— كلا يا كولونيلى ، إنهم أحالونى إلى الاستيداع ، ومن المحتمل أن يكون ذلك ، لأنى كنت فى واترلو ، ولأنى أحد مواطنى نابليون ، والآن أنا أعود إلى بلادى رقيق الحال ضعيف الآمال كما تقول الأغنية .

ثم تنهد وهو ينظر إلى السماء .

وعلى أثر ذلك أدخل الكولونيل يده فى جيبه وأدار بين أصابعه قطعة من العملة الذهبية ، وجعل يبحث عن جملة يزلقها بها فى أدب فى يد عدوه التعس ، وأخيراً قال له بلهجة مرحة :

— وأنا أيضاً فى الاستيداع ، ولكنك أنت بنصف راتبك لا تجد ما تشترى به تبغا . . . خذ يا كابورال

ثم حاول أن يدخل القطعة الذهبية فى يد الشاب المقفلة المعتمدة على حافة الزورق .

فاحمر الفتى الكورسيكى وانتصب واقفاً وعض شفتيه ، و بدا كأنه مستعد للإجابة على هذا العمل باستشاطة ولكنه بدل مظهره فجأة وانفجر ضاحكا ، فبقى الكولونيل مبهوتاً وقطعته فى يده ، وأخيراً عاد الشاب إلى جده وقال له :

— يا كولونيل اسمح لى أن أتقدم إليك بنصيحتين : الأولى هى ألا تقدم ألبتة مالا إلى كورسيكى ، لأنه يوجد بين مواطنى من لديهم من سوء الأدب ما يمكنهم من أن يقذفوا به فى وجهك . والثانية هى ألا تمنح الناس ألقابا لم يطلبوها منك فأنت تدعونى كابورال (أونباشى) وأنا ملازم ، نعم بدون شك ليس الفرق بينهما كبيراً ، ولكن . . .

— ملازم ! ملازم ! لكن الربان قال لى إنك كابورال وكذلك والدك وكل رجال أسرتك .

وعند ما سمع الشاب هذه الكلمة استلقى على ظهره وأخذ يضحك من كل قلبه إلى حد أن الربان والبحارين انفجروا ضاحكين كأنهم جوقة وأخيراً قال :

— عفواً يا كولونيل إن هذا الخلط جدير بالإعجاب ، وأنا لم أفهمه إلا فى هذه اللحظة . فى الواقع أن أسرتى تتباهى بأنه كان من بين أجدادها « كابورو » ولكن كابورونا الكورسيكيين لم يكن لديهم قط أشرطة على ملابسهم ، وإنما فى سنة النعمة حوالى سنة ألف ومائة ثارت بعض المدن ضد طغيان موالى الجبل واختاروا من بينهم رؤساء لهم دعوهم بالكابورو[1] . ونحن فى جزيرتنا الآن نعتبر الانحدار من سلالة هؤلاء الزعماء شرفاً عظيماً .

فمد الكولونيل إليه يده وهو يقول :

— عفواً ياسيدى وألف مرة عفواً ، وما دمت قد فهمت علة خطئى ، فأنا أرجو أن تتفضل فتعذرنى .

فقهقه الشاب وصافحه مصافحة قلبية وقال له :

— هذا هو العقاب العادل على كبريائى الصغيرة ، وأنا لا أحنق عليك أقل حنق ، وإذا كان صديقى ماتيى قد أساء

---

(١) كابورو أصلها الكلمة اللاتينية : « كابوت » ومعناها الرأس . ولما كان زعماء الثائرين هم رؤوسهم المفكرة ، فقد أطلق عليهم اسم كابورو . (المترجم)

تقديمى فاسمح لى أن أقدم إليك نفسى : أنا أدعى أورسو ديلاريبا ، وقد كنت ملازما بالجيش ، والآن فى الاستيداع ، و إذا كنت — كما أستنتج من رؤية هذين الكلبين الجميلين — ذاهباً إلى كورسيكا لتصطاد ، فيسعدنى أن أتشرف بتعريفك غاباتنا وجبالنا . ثم قال متنهداً : . . . وهذا إذا لم أكن قد نسيتها بعد .

وفى هذه اللحظة كان الزورق يلامس السفينة فقدم الضابط يده إلى الآنسة ليديا ، ثم ساعد الكولونيل على الصعود إلى ظهرها . ولما كان توماس لا يزال خجلا من خطئه ولم يكن يدرى كيف يسدل ستار النسيان على فعلته نحو رجل يرجع تاريخ أسرته إلى القرن الحادى عشر ، فقد دعاه — دون أن ينتظر موافقة ابنته — أن يتعشى معهما مجدداً له اعتذاراته ومصافحاته ، وعند ذلك قطبت الآنسة ليديا حاجبيها قليلا ، ولكنها على كل حال لم تكن غاضبة من أن تعرف ما هو الكابورال . وفوق ذلك فان مدعوها لم يكن يضجرها ، بل إنها كانت قد بدأت تجد فيه شيئاً من الأريستوكراتية لا أدرى ما هو ، غاية ما فى الأمر أنه كان يلوح عليه من الإفراط فى الصراحة والمرح ما يحول بينه و بين أن يكون بطل رواية .

وعند العشاء حيا الكولونيل مدعوه على الطريقة الانجليزية ، وفى يده قدح من نبيذ ماديرا وقال له :

— يا ملازم ديلاريبا لقد رأيت فى أسبانيا كثيراً من مواطنيك وكانوا من المشاة ذوى القيم .

فقال له الشاب فى لهجة جدية :

— نعم بقى كثير منهم فى أسبانيا .

فقال الكولونيل :

— أنا لن أنسى أبداً سلوك أرطة كورسيكية فى معركة فيتوريا ويجب أن أتذكرها ، ثم دلك صدره بيده واستمر يقول : ظل أفرادها طول النهار فى الحديقة يطلقون الرصاص من خلف الخمائل ، ولا أدرى كم قتلوا لنا من الرجال والجياد ، ولما صمموا على التقهقر اتحدوا وارتحلوا مسرعين . ولقد كنا نأمل أن نظفر بالانتقام منهم فى العراء ، ولكن أولئك الأشقياء ، اعذرنى يا ملازم ، أقول إن أولئك الشجعان كونوا منهم شكلا مربعا لم يكن هناك وسيلة لفتح ثغرة فيه . وفى وسط هذا المربع ، كان هناك ضابط على جواد قصير أسود — وكأنى أراه اليوم — إلى جانب النسر(١) يدخن لفافته كأنه فى مقهى . ومن حين إلى آخر كانت موسيقاهم توقع أناشيد عسكرية كأنها كانت تتحدانا ، فدفعت نحوهم بالأرطتين الأوليين من أرطى ، ولكن بدل أن ينجح جنودى فى مهاجمة جبهة المربع مروا إلى جانبه وألفوا نصف دائرة ثم تقهقروا فى فوضى وكانت بعض الجياد تعود بدون فرسانها ، وكانت تلك الموسيقى الشيطانية لا تزال تصدح ! وبعد ما تبدد الدخان الذى كان يغشى المعركة

---

(١) كان العلم الفرنسى فى عهد نابليون الأول تنتهى ساريته بتمثال نسر ، وقد غلب عليه ذلك حتى أصبح الشعب يطلق على أعلامه اسم النسور الامبراطورية . (المترجم)

رأيت ذلك الضابط لا يزال إلى جانب النسر يدخن لفافته ، فاغتظت ووضعت نفسى على رأس الفرسان المهاجمين ، وكانت بنادق الكورسيكيين من كثرة الطلقات قد تراكم عليها دخان البارود فلم تعد رصاصتها تنطلق ، فلما شعروا بذلك كونوا من أنفسهم ستة صفوف ووضعوا سنكهم فى أنوف الجياد الانجليزية كأنها سور ، فأخذت أصرخ فى جنودى وأشجعهم وأضغط بمهمازى على جوادى لأدفعه ، وإننى لكذلك ، إذا بالضابط الذى أحدثك عنه قد نزع لفافته من فمه وأشار نحوى إلى أحد رجاله فسمعت منه كلمة مثل : « الكابيلّو بيانكو » أى القبعة البيضاء ! وقد كانت ريشة قبعتى بيضاء . ولم أسمع أكثر من ذلك ، لأن رصاصة لم تلبث أن اخترقت صدرى. ولقد كانت أرطة بديعة يا سيد ديلا ربيًّا ، تلك الأرطة الثامنة عشرة الخفيفة التى كانت كلها من الكورسيكيين على ما قيل لى بعد ذلك .

فقال أورسو وكانت عيناه تلمعان أثناء هذه القصة :

— نعم إن أفراد تلك الأرطة هم الذين حموا التقهقر وحملوا نسرهم ، ولكن ثلثى أولئك الرجال الشجعان يرقدون اليوم فى سهل فيتوريا .

— وبهذه المناسبة ألا تعرف — ولو عن طريق المصادفة — اسم ذلك الضابط الذى كان يقود هؤلاء الجنود ؟

— إنه والدى وقد كان إذ ذاك قائداً للفرقة الثامنة عشرة وارتقى إلى كولونيل بسبب موقفه فى ذلك اليوم المحزن .

— والدك ! أقسم بعقيدتى ، إنه كان شهما ولقد كان

يسرنى أن أراه ، ولو رأيته لعرفته يقينا معرفة جيدة ، هل هو لا يزال حيا ؟

— فامتقع وجه الشاب قليلا وقال :

— لا يا كولونيل .

— هل كان فى واترلو ؟

— نعم يا كولونيل ، ولكنه لم ينل السعادة بأن يهوى فى ميدان القتال ، بل مات فى كورسيكا . . . منذ سنتين . . . . يا إلهى ! ما أجمل هذا البحر ! إننى لم أر البحر الأبيض المتوسط منذ عشرة أعوام ، ألا ترين أن البحر الأبيض أجمل من المحيط يا آنسة ؟

— أنا أرى أنه مفرط فى الزرقة ، وأن أمواجه تعوزها العظمة .

— أنت تحبين الجمال الوحشى يا آنسة وعلى هذا الأساس أحسب أن كورسيكا ستروقك .

— إن ابنتى تحب كل ما يتجاوز المستوى العادى ، ولهذا لم تعجبها إيتاليا إلا قليلا .

فقال اورسو :

— أنا لا أعرف من إيتاليا إلا بيزا التى أمضيت فى مدرستها ردحا من الزمن ، ولكنى لم أستطع أن أفكر — بدون إعجاب — فى كامبو سانتو ، وفى كنيسة دومو ، وفى البرج المنحنى . . . فى كامبو سانتو على الأخص . لا ريب أنك تذكرين لوحة الموت لأوركانيا . . . أنا أظن أننى أستطيع الآن أن أرسمها لشدة رسوخها فى ذاكرتى .

وعند ذلك خشيت الآنسة ليديا أن يبدأ الملازم خطبة حماسية ، ولهذا قالت وهى تتثاءب :

— هذا جميل جدا ، عفوا يا والدى ، أنا أشعر بقليل من الصداع وأريد أن أنزل إلى غرفتى .

وحينئذ قبلت والدها فى جبهته وأشارت برأسها إلى أورسو إشارة متعاظمة ثم اختفت . وإذ ذاك أخذ الرجلان يتحدثان عن الصيد والحرب ، فانتهى بهما الحديث إلى أن علما أنهما كانا فى واترلو وجها لوجه وأنهما لا بد أن يكونا قد تبادلا كثيرا من الرصاص ، فضاعف ذلك من جاذبيتهما ؛ وجعلا ينقدان على التعاقب : نابليون ، وويلينجتون[1] ، وبلوشير[2] ، ثم طفقا بعد ذلك يتجاذبان أطراف الحديث عن صيد الظباء والخنازير الوحشية والكباش البرية . وأخيرا وبعد أن تقدم الليل وانتهت آخر زجاجة من نبيذ بوردو ، صافح الكولونيل الملازم من جديد وتمنى له مساء سعيدا معلنا أمله فى تنمية هذه العلاقة التى بدأت بهيئة مضحكة جدا ، ثم افترقا وذهب كل منهما إلى مخدعه .

٣

كان الليل فاتنا والقمر يداعب الأمواج ، وكانت السفينة تسبح فى هدوء طوع إرادة النسيم العليل. ولم يكن لدى الآنسة

(١-٢) ويلنجتون هو القائد العام للجيش الانجليزى ، وبلوشير هو القائد العام للجيش البروسى ، وقد كانا كلاهما ضد نابليون فى واترلو . (المترجم)

ليديا رغبة فى النوم ، ولم يكن شيء — إلا وجود ذلك الأجنبى عن الفن — ليحول بينها وبين تذوق هذه الأحاسيس التى يشعر بها فوق صفحة البحر ، وتحت نور القمر كل إنسان فى قلبه ذرة من الشعر . وحينما حسبت أن الملازم الشاب قد استغرق فى نومه ككل كائن واقعى مثله نهضت وارتدت معطفاً وأيقظت وصيفتها وصعدت إلى ظهر السفينة . لم يكن هناك إلا بحار واحد يتولى القيادة وهو ينشد أرجوزة حزينة بلهجة كورسيكية ، وبنغمة وحشية متماثلة ، فكان لهذه الموسيقى الغريبة فى هدوء الليل سحرها ، ولكن الآنسة ليديا لسوء الحظ لم تكن تفهم ما كان البحار يغنيه فهما جيداً ، وفى وسط كثير من الكلمات التى كانت تسمعها قد أثار انتباهها بحدة بيت قوى . وبينما هى فى أبدع لحظات الانتباه إذ سمعت بضع كلمات باللهجة الإقليمية تفوتها معانيها ، ومع ذلك فقد فهمت أنها تتعلق بحادث قتل ، وكان فيها لعن للقاتل وتهديد بالانتقام وثناء على المقتول ، كل هذا كان ممتزجا بعضه فى بعض ، ولكنها استطاعت أن تحفظ منه بضعة أبيات سأحاول أن أترجمها فيما يلى :

« . . . لا المدافع ولا الحراب — قد أشحبت جبهته — التى كانت هادئة فى ميدان القتال — كأنها سماء صيف — لقد كان هو الصقر صديق النسر — وكان كالشهد النقى لأصدقائه — وهو بحر مصطخب على أعدائه — هو أرفع من الشمس — وأودع من القمر — وهو الذى لم يجعل أعداء فرنسا — يفتقدونه أو

ينتظرونه قط فى حومة الوغى ، ولكن سفاحين من بلاده رموه من الخلف — كما رمى فيتولو[1] ، سامبييرو كورسو — إنهم . لم يجرؤوا قط على أن ينظروا إليه وجها لوجه — . . . ضعوا على الحائط أمام سريرى — وسامى الليجيون دونور الذى نلته عن جدارة — فشريطه أحمر — وقميصى أشد حمرة — احتفظوا لابنى ، لابنى الذى هو فى البلاد البعيدة — بوسامى وبقميصى الدامى — سيرى فيه ثقبين — فليثقب بكل ثقب ثقباً فى قميص آخر — ولكن هل الانتقام سيكون قد تم إذ ذاك ؟ — ينبغى لى اليد التى أطلقت — والعين التى صوبت والقلب الذى فكر . . . »

وعلى أثر ذلك توقف البحار فجأة . فسألته الآنسة نيفيل قائلة:

— لماذا لا تستمر يا صديقى ؟

عند ذلك أشار برأسه إلى وجه كان يبدو من فتحة سلم السفينة ، وهو وجه أورسو الذى جاء ليستمتع بسطوع القمر . فاستمرت تقول :

— أتمم إذاً أرجوزتك إنها كانت تبعث فى نفسى سروراً عظيما .

فانحنى البحار نحوها وقال لها بصوت خافت :

— أنا لا أوجه « الريمبيكو » إلى أحد .

— كيف ؟ أل . . . ماذا ؟

---

(١) فيتولو هو عند الكورسيكيين رمز للخيانة والغدر والنذالة ، وهو من أبغض الأسماء فى تقاليدهم . أنظر للاستزادة فى هذا الموضوع الكتاب الحادى عشر لفيليبينى .

فشرع يصفر دون أن يجاوبها ، وحينئذ قال لها أورسو وهو يتقدم نحوها :

— أنا أباغتك ، وأنت تعجبين ببحرنا الأبيض المتوسط . وافقيني على أنه لا يرى أحد فى غير هذا المكان قمراً جميلا إلى هذا الحد .

— أنا لم أكن أنظر إليه ، وإنما كنت مشغولة بدراسة اللغة الكورسيكية ، إن هذا البحار الذى كان ينشد أرجوزة من أكثر الأراجيز مأساوية قد توقف فى أمتع اللحظات .

فانحنى البحار كأنه يريد أن ينعم النظر إلى البوسلة ، ولكنه جذب بشدة طرف معطف الآنسة نيفيل ، فكان معنى هذا فى وضوح أن أرجوزته لا يمكن أن تنشد أمام الملازم أورسو . وهنا قال هذا الأخير :

— ماذا كنت تغنى ياباولو فرانسيه ؟ هل هى ، بالاتا[١] أو فوشيرو[٢]، إن الآنسة تفهمك وتود أن تسمع نهاية ما كنت تنشده .

(١-٢) حينما يموت رجل ولا سيما اذا مات قتيلا توضع جثته على مائدة وتجتمع حولها نساء أسرته . فان لم تكن له نساء اجتمعت صديقات الأسرة أو نساء أجنبيات معروفات بمواهبهن الشعرية فارتجلن أمام عدد كبير من السامعين مراثى شعرية بلهجة البلاد ، ويدعى هؤلاء النساء بـ « بالفوشيراتريشى » وتسمى هذه المرثية فى الشاطىء الغربى من الجزيرة « بالاتا » وفى الشاطىء الشرقى « فوشيرو » وأصلها الكلمة اللاتينية *vociferare* ومعناها الصراخ . وأحياناً ترتجل عدة نساء متعاقبات هذه المراثى ، وفى الغالب تنشد ابنة المتوفى أو زوجته المرثية الجنائزية .

فقال البحار :

— لقد نسيتها يا أورس أنتون .

وفى الحال بدأ إحدى أناشيد العذزاء بهيئة تصدع الرؤوس ، فجعلت الآنسة ليديا تستمع إلى هذه الأغنية وهى ساهية ولم تضغط على المنشد أكثر من ذلك ، ولكنها عاهدت نفسها على أن تفوز فى المستقبل بحل هذا اللغز ، غير أن وصيفتها التى كانت من فلورانسا والتى لم تكن تفهم اللهجة الكورسيكية أكثر من سيدتها والتى كانت شغوفة بأن تتعلم اتجهت إلى أورسو قبل أن تتمكن الآنسة ليديا من إنذارها بضربة مرفق وسألته قائلة :

— سيدى الملازم ما معنى هذه العبارة : توجيه ، الريمبيكو[1] .

— الريمبيكو ! هو عند الكورسيكى أقتل أنواع الإهانات ، هو مأخذ على الرجل الذى لم ينتقم لنفسه . منذا الذى حدثك عن الريمبيكو ؟

فأجابته الآنسة ليديا على الفور بقولها :

— كان ربان السفينة قد استعمل هذه الكلمة أمس فى مارسيليا .

---

(١) الريمبيكو هى كلمة كورسيكية مأخوذة من الكلمة الايتالية « ريمبيكاريه » ومعناها رد الشىء إلى أصله . أما فى الكورسيكية فمعناها التقريع للمهين العلنى . ويوجه الريمبيكو الى الابن الذى قتل والده ليفهم أنه لم ينتقم له . والريمبيكو أيضاً أمر يصدر الى الرجل الذى لم يغسل بعد الاهانة التى لحقت بدمه ، وكان قانون جينوا التى حكمت كورسيكا زمناً طويلا ينص على وجوب تشديد العقاب ضد من يوجه الريمبيكو إلى غيره .

فسأل أورسو بحرارة قائلا :

— وعمن كان يتكلم ؟

— أوه ! كان يقص علينا قصة قديمة . . . فى زمن . . . نعم أنا أظن أن ذلك كان بمناسبة تاريخ فانينا دى أورنانو .

— إن موت فانينا — فيما أفرض يا آنسة — لم يحبب إليك كثيراً بطلنا سامبييرو الشهم .

— لكن هل ترى أن ذلك بطولة ؟

— إن عذره فى جريمته هو أخلاق زمنه الوحشية ، ثم إنه كان يشعل على الجينيين حربا مهلكة ، وأية ثقة كان يفوز بها لدى مواطنيه إذا لم يكن قد عاقب تلك التى كانت تحاول المفاوضة مع جينوا ؟

وحينئذ انبرى البحار يقول :

— إن فانينا كانت قد ارتحلت بدون إذن زوجها . وإذاً ، فقد أحسن صنعاً إذ لوى عنقها .

فقالت الآنسة ليديا :

— لكنها — لإنقاذ زوجها وبدافع حبه — كانت ذاهبة لتطلب له العفو من الجينيين .

فقال أورسو :

— إن طلب العفو له ، معناه الحط من قيمته .

فاستمرت الآنسة نيفيل تقول :

— إنه قتلها بنفسه! لابد أن يكون قد بلغ نهاية التوحش.

— أنت تعرفين أنها طلبت إليه كمنحة أن تهلك بيده .

وأوتيلو[١] ، يا آنسة هل تنظرين إليه على أنه وحش أيضاً ؟

— إن الفرق بينهما جد بعيد ، إذ أن أوتيلو كان غيورا ، أما سامبييرو ، فلم يكن إلا مغرورا .

— والغيرة ، أليست هى أيضا من الغرور ؟ إنها غرور الحب ، وقد تعذرينها بسبب مبررها .

وعند ذلك ألقت الآنسة ليديا عليه نظرة مليئة بالعزة ثم التفتت إلى البحار وسألته عن موعد وصول السفينة إلى الشاطىء. فأجابها قائلا :

— بعد غد إذا كان الهواء متواصلا .

— كم أود لو كنت الآن أشاهد أجاسيو ، لأن هذه السفينة تضايقنى إلى أقصى حد .

ثم نهضت وتناولت ذراع وصيفتها وخطت على ظهر السفينة بضع خطوات ، وبقى أورسو جامدا لا يدرى ماذا يجب أن يفعل أيسير معها أم يقطع تلك المحادثة التى كانت تبدو كأنها تضجرها. وإذ ذاك قال له البحار :

— أقسم بدم المادونا[٢] ، انها لفتاة جميلة ، ولو أن كل براغيث سريرى كانت تشبهها لما شكوت من عضها إياى .

ومن الممكن أن تكون الآنسة ليديا قد سمعت هذا الثناء

---

(١) أوتيلو هو بطل إحدى شهيرات مسرحيات شكسبير ويترجم النقلة عندنا هذا الاسم ، عطيل . (المترجم)

(٢) المادونا هى السيدة العذراء ، وذلك قسم كورسيكى مألوف (المترجم)

الساذج على جمالها فنفرت منه ، إذ أنها نزلت على أثره إلى غرفتها . وبعد هنيهة انسحب أورسو كذلك ، وبمجرد ابتعاده صعدت الوصيفة ثانية إلى ظهر السفينة وبعد أن وجهت أسئلة إلى البحار حملت إلى سيدتها المعلومات الآتية : إن المرثية التى قطع قدوم أورسو إنشادها كانت قد ألفت بمناسبة موت والده الكولونيل ديلاّربيا الذى قتل منذ سنتين وأن البحار لا يرتاب فى أن أورسو يعود إلى كورسيكا للأخذ بالثأر . هذا هو تعبيره ، وهو يؤكد أنه قبل مضى وقت قصير سيرى الناس لحما غضًّا فى قرية بييترانيرا ، ومن ترجمة هذه العبارة القومية ينتج أن السيد أورسو يعتزم أن يقتل شخصين أو ثلاثة أشخاص يظن أنهم قتلوا والده . وهؤلاء الأشخاص فى الحقيقة كانت العدالة قد تعقبتهم فى هذه الحادثة ، ولكنها ألفتهم أنقياء كالثلج ، لأن المحامين والقضاة والمحافظ ورجال الشرطة كانوا فى صفهم ، ثم أضاف البحار إلى ما تقدم قوله :

— إنه لا توجد عدالة فى كورسيكا ، وإننى أمنح بندقية جيدة من الأهمية أكثر مما أمنحه لمستشار ملكى ، وحينما يكون للانسان عدو هنا ينبغى أن يختار بين السينات الثلاث [1].

(١) السينات الثلاث هو تعبير قومى يراد منه أن الشخص إذا كان له عدو فليس عليه إلا أن يختار أحد أشياء ثلاثة ، كل منها مبدوء بحرف (س) وهى : سكيوبيتو أى البندقية ، وستيليتو ، أى الخنجر ، وسترادا ، أى الفرار .

غيرت هذه المعلومات الشيقة — بهيئة تستوجب التسجيل — مسلك الآنسة ليديا واستعداداتها بإزاء الملازم ديلاّربيا ، فمنذ هذه اللحظة صار شخصية هامة فى عينى تلك الإنجليزية الروائية ، إذ أن مظهر عدم المبالاة ولهجة الصراحة والتفاؤل اللذين كانا قد أثرا فى نفسها أول الأمر تأثيرا سيئا قد تحولا الآن فى نظرها إلى مزية أخرى ، هى إخفاء عميق لروح قوية لا تدع أية عاطفة مما تحتويه تظهر فى الخارج . كان أورسو يبدو لها كأنه فييسك[1] يخفى تصميات واسعة تحت مظهر من المرح ، ولو أن قتل بضعة أشرار هو أقل جمالا من انقاذ الوطن فإن الانتقام الجميل جميل . على أن النساء يحببن ألا يكون بطل روايتهن رجل سياسة . وإذ ذاك فقط لاحظت الآنسة نيفيل أن الملازم الشاب ذو عينين واسعتين وأسنان بيضاء وقوام رشيق وأن لديه تربية عالية ، وتقاليد راقية . وفى اليوم التالى حادثته كثيرا ، وجعل حديثه يشوقها وسألته بإسهاب عن بلاده فتحدث عنها حديثا ممتعا ، إذ أن كورسيكا التى تركها وهو فى طليعة شبابه ، ليذهب بديا إلى المدرسة ثم إلى الكلية الحربية قد ظلت فى نفسه مزدانة بألوان شعرية ، فكان ينتعش وهو يتحدث

---

(١) فييسك هو أحد أفراد أسرة فييسك الشهيرة بجينوا . وقد تآمر بأندريه دوريا طاغيتها فقتله فى سنة ١٥٤٧ ، ولكى تنجح مؤامرته أخفى وطنيته وحبه للحرية تحت مظهر خليع لا يأبه إلا للذائذ والمسرات فكان مضرب للمثل للرجل الذى يخفى غير ما يظهر . (المترجم)

عن جبالها وغاباتها ، وعن عادات سكانها المبتكرة ، وقد مرت — كما يستطيع الإنسان أن يتصور — كلمة انتقام أكثر من مرة فى قصصه ، لأنه من المستحيل أن يتحدث المرء عن الكورسيكيين دون أن يهاجم أو يبرر لديهم هذا الانفعال الذى يضرب به المثل . غير أن أورسو قد أدهش الآنسة نيفيل قليلا ، إذ استنكر بوجه عام ذلك الحقد اللامتناهى لدى مواطنيه ، ومع هذا فقد جعل يحاول أن يبرر ذلك بين الريفيين ويدعى أن الانتقام هو مبارزة الفقراء فيقول : « فى الحق أنه لا يقتل أحد أحدا إلا بعد توعد خاضع للقاعدة : احترس فأنا أحترس . » هذه هى الكلمات المحددة التى يتبادلها العدوان قبل أن يعد كل منهما الفخاخ لخصمه . نعم إن القتل عندنا أكثر منه فى أى بلد آخر ، ولكنك لن تجد أبدا سببا سافلا لهذه الجرائم حقا عندنا كثير من القتلة ، ولكن ليس عندنا لص واحد .

وحينما كان ينطق بكلمتى القتل والانتقام كانت الآنسة ليديا تنظر إليه بانتباه ، ولكن بدون أن تكشف على ملامحه أقل أثر للانفعال . ولما كانت قد اقتنعت بأن لديه القوة الذاتية الضرورية ليصير نفسه غير قابلة للتغلغل فيها من جميع العيون مع استثناء عينيها بطبيعة الحال ، فقد استمرت تعتقد اعتقادا جازما أن شبح الكولونيل ديلاربيا لن ينتظر الترضية التى يتطلبها وقتا طويلا .

ابتدأ ركاب السفينة يرون كورسيكا ، وجعل الربان يبين لهم المواضع الأساسية من الشاطىء ، ومع أن هذه المواضع كانت غير معروفة للآنسة ليديا فإنها كانت تشعر بسرور فى معرفة أسمائها ، لأنه لا شئ أشد إسآما من منظر بلا اسم . وأحيانا كان منظار الكولونيل الطويل يكشف أحد سكان الجزيرة مرتديا ملابس من الجوخ الأسمر مسلحا ببندقية طويلة ، ممتطيا جوادا قصيرا يعدو به فى الطريق المنحدر ، فكانت الآنسة ليديا تحسب أنها ترى فى كل واحد منهم قاطع طريق ، أو ابنا ذاهبا للانتقام لوالده ، ولكن أورسو كان يؤكد لها أنه أحد السكان الهادئين من القرية المجاورة مسافر لبعض شأنه ، وأن حمله البندقية حداثة ورقى أكثر منه ضرورة على نحو أن الشاب المدنى المختال لا يخرج بدون عصا رشيقة . ومع أن البندقية كانت فى نظر الآنسة ليديا أقل نبلا وأقل شاعرية من الخنجر فإنها كانت ترى أنها للرجل أكثر أناقة من العصا . وقد تذكرت أن جميع أبطال اللورد بيرون كانوا يموتون بالرصاص لا بالخناجر التقليدية .

وبعد أن أمضوا ثلاثة أيام فى البحر ألفوا أنفسهم أمام جزائر سانجنير ، الدموية الصغيرة ، وهنا بدا أمام أعينهم منظر خليج أجاسيو البديع فوجدوا أن تشبيهه بخليج نابولى حق . وفى اللحظة التى كانت فيها السفينة داخلة المرفأ كانت النيران تندلع فى غابة هناك . فتذكر رائيها بركان فيزوف فيقوى ذلك وجه الشبه . غير أنه لكى يكون الشبه تاما ينبغى أن يكون

جيش أتيلا[1] قد جاء ليقاتل بالقرب من نابولى ، لأن كل شيء حول أجاسيو ميت ومقفر ، فبدل تلك المصانع الأنيقة التى يكتشفها الإنسان فى كل ناحية من كاستيلاماريه إلى ميزينو ، لا يرى حول خليج أجاسيو إلا غابات مظلمة ، ووراءها جبال قاحلة ، ولا توجد « فيلا » ولا منزل ، وإنما فقط يوجد هنا وهناك فوق تلول المدينة بضعة مبان بيضاء منعزلة فى إطارات من الخضرة ، وهى كنائس جنائزية صغيرة ومدافن أسرية ، وبالاجمال : كل شيء فى هذا المنظر ذو حسن جدى حزين .

كان مظهر المدينة ولا سيما فى تلك الفترة ينمى التأثر الناشيء من عزلة البيئة المحيطة بها ؛ فلا توجد حركة فى الطرقات التى لايلتقى المرء فيها إلا بوجوه عاطلة هى دائما هى ، ولا ترى فيها نساء سوى بضع قرويات تجئن لتبعن المأكولات ، ولا يسمع الإنسان فيها الحديث المرتفع أو الضحك أو الغناء على نحو ما يحدث فى المدن الايتالية . وأحيانا تحت ظلال شجرة من أشجار النزهة يرى الإنسان بضعة عشر ريفيا مسلحين يلعبون الورق أو ينظرون إلى من يلعبون ، وهم لا يصيحون ولا يتشاجرون أبداً . وإذا انتعش اللعب تسمع طلقة غدارة ،

(١) جيش أتيلا هو جيش بربرى زحف من آسيا تحت قيادة أتيلا ملك هانس . وغزا أوربا حوالى سنة ٤٣٤ بعد المسيح . وكان هذا الملك يطلق على نفسه اسم كارثة الاله ، ويزعم أن للموضع الذى يمر فيه جواده لاينبت فيه عشب بعد ذلك . ويريد المؤلف أن يقول هنا : إنه لكى تشبه نابولى بأجاسيو يجب أن نفرض أن جيش أتيلا قد قاتل حولها . ومعنى هذا أن أجاسيو يحوط بها القحل كأن جواد الملك قد مر بها . (المترجم)

وهى التى تسبق التهديد دائما ، إذ أن الكورسيكى جدى وصامت بالطبع . وفى المساء ترى بعض الوجوه تستمتع باستنشاق النسيم الرطيب ، ولكن هؤلاء المتنزهين هم جميعاً من الأجانب تقريباً ، أما سكان الجزيرة فيمكثون أمام أبوابهم ، وكل واحد منهم يتجسس كأنه صقر فى عشه .

٤

بعد أن زارت الآنسة ليديا المنزل الذى ولد فيه نابليون ، وبعد أن استحضرت لنفسها — بطرق تتفاوت شرعيها — قليلا من الأوراق التى تزين حوائطه ، وبالاجمال بعد يومين من نزولها إلى كورسيكا أحست كأن حزنا عميقاً يستولى عليها كما يتحتم أن يحدث لكل أجنبى يوجد فى بلد ، عاداته الغير الاجتماعية تقضى عليه بعزلة تامة ، فندمت على فكرتها المتسرعة ولكن الارتحال العاجل كان سيسىء إلى سمعتها كرحالة لا تهاب شيئاً . و إذاً فقد أذعنت للصبر وصممت على أن تقتل الوقت بخير ما تستطيع . وفى أثناء هذا التصميم الشجاع أعدت أقلاماً وألواناً ورسمت مناظر للخليج وصورة لقروى أسمر كان يبيع شماما ، ولكنه كان ذا لحية بيضاء ، ويلوح عليه أنه أشد الأشقياء افتراساً . غير أن كل ذلك لم يكن يكفى لتسليتها ، فاعتزمت أن توقع فى غرامها ذلك المنحدر من أسرة كابورو ، ولم يكن هذا بالشىء العسير ، لأنه

— فضلا عن أنه لم يكن معجلا لرؤية قريته — كان يبدو عليه كأن أجاسيو تروقه كثيراً رغم أنه لم ير فيها أحداً .

على أن الآنسة ليديا قد تعهدت لنفسها بأداء مهمة نبيلة ، وهى أن تمدين هذا الدب الجبلى ، وأن تحمله على التخلى عن ذلك المشروع الرهيب الذى عاد به إلى جزيرته. ومنذ أن عنيت بدراسة هذا الشاب حدثت نفسها بأن من الخسارة أن تدعه يجرى إلى حتفه ، وأنه سيكون من الفخر لها أن تهدى كورسيكيا .

كانت الأيام تمر على أولئك المسافرين على النحو الآتى : فى الصباح كان الكولونيل وأورسو يذهبان إلى الصيد ، وكانت الآنسة ليديا ترسم أو تكتب إلى أصدقائها لكى تستطيع أن تؤرخ رسائلها فى أجاسيو . وحوالى الساعة السادسة كان الرجلان يعودان محملين بالقنائص فيتعشون وتغنى الآنسة ليديا ثم ينام الكولونيل ويستمر الشابان يتحدثان إلى ساعة متأخرة .

لا أدرى أى عمل رسمى حمل الكولونيل على زيارة المحافظ ، ولما كان هذا الأخير — كأكثر زملائه — شديد الملل ، فقد كان سعيداً بأن يعلم نبأ وصول انجليزى ثرى من الطبقة العالية ووالد لفتاة جميلة . ولهذا استقبله خير استقبال وأزهقه بكثرة تقديم خدماته إليه . وفوق ذلك فبعد أيام قليلة جاء ليرد إليه الزيارة . كان الكولونيل — وقد غادر المائدة — مضطجعاً ليستريح على المقعد الطويل ، وكانت

ابنته تغنى وتعزف على بيانة مبتذلة ، وكان أورسو جالساً يقلب صفحات دفتر الموسيقى وينظر إلى كتفى الفنانة وشعرها الذهبى ، وأنهم لعلى هذه الحالة إذ أنبئوا بزيارة المحافظ ؛ فتوقف العزف ونهض الكولونيل فقدم الزائر إلى ابنته ثم قال له :

— أنا لا أقدم إليك السيد ديلاربيا لأنك تعرفه بدون شك .

فسأل المحافظ أورسو وعليه ملامح ارتباك طفيف قائلا :

— هل سيدى هو ابن الكولونيل ديلاربيا ؟

فأجاب:

— نعم يا سيدى .

وحينئذ قال المحافظ :

— لقد تشرفت بمعرفة السيد والدك .

لم تلبث الموضوعات العامة فى الحديث أن نفدت ، وجعل الكولونيل قسر إرادته يتثاءب تثاؤباً متتابعاً ، ولما كان أورسو — بصفته من حزب الأحرار — لا يريد أن يتحدث إلى ذنب من أذناب السلطة الوقتية فقد أخذت الآنسة ليديا تحتمل عبء المحادثة وحدها ، ولم يكن المحافظ من جانبه يذر الحديث يخفت ، إذ من الجلى أنه كان يحس بسرور عظيم فى أن يتحدث عن باريس وعن الطبقات العالية إلى سيدة تعرف أعيان الهيئة الاجتماعية الأوربية ، وكان المحافظ من وقت إلى آخر — وهو يتحدث — يلحظ أورسو بفضول غريب ، وأخيراً سأل الآنسة ليديا قائلا :

— هل عرفت السيد ديلاربيا فى فرنسا نفسها ؟

فأجابت — فى شئ من الارتباك — بأنها عرفته على ظهر السفينة التى حملتهم إلى كورسيكا ، وإذ ذاك قال المحافظ فى صوت منخفض :

— هذا شاب كما ينبغى أن يكون عليه الشباب .

ثم استمر يقول بصوت أكثر انخفاضاً :

— وهل قال لك بأية نية يعود إلى كورسيكا ؟

فأجابته الآنسة ليديا وقد ظهرت عليها ملامح العظمة قائلة :

— أنا لم أسأله عن ذلك ، وأنت تستطيع أن تستجوبه .

اعتصم المحافظ بالصمت ، ولكن بعد لحظة سمع أورسو يوجه إلى الكولونيل بضع كلمات بالإنجليزية فقال له :

— لقد سافرت كثيراً ياسيدى فيما يظهر ، ولابد أن تكون قد نسيت كورسيكا . . . وعاداتها .

— حقاً كنت فى طليعة شبابى حين غادرتها .

— هل لا تزال ملتحقاً بالجيش ؟

— إننى فى الاستيداع يا سيدى .

وعند ذلك قال المحافظ فى فخفخة ملحوظة :

— أنا لاأشك يا سيدى فى أنك قضيت فى الجيش الفرنسى الزمن الكافى لتصييرك فرنسياً كاملا .

ليس من الفخر العظيم للكورسيكيين أن تذكرهم بأنهم ينتسبون إلى الدولة الكبرى ، إذ هم يريدون أن يستمروا شعباً

منعزلا ، وهم يبررون هذه الدعوى بهيئة كافية لفوزهم بها . ولهذا شاك ذلك أورسو فقال :

— هل تتصور يا سيدى المحافظ أن الكورسيكى — لكى يكون رجل شرف — محتاج للخدمة فى الجيش الفرنسى ؟

— كلا ، بكل تأكيد، ليست هذه فكرتى ألبتة ، وإنما أنا أتكلم فقط عن عادات هذا البلد التى ليس بعضها مما يود الحاكم أن يراه .

اعتمد المحافظ على كلمة عادات وظهر على وجهه من ملامح الجد أكثر ما يمكن ظهوره ، وبعد قليل نهض فانصرف وقد ظفر بوعد من الآنسة ليديا بأنها ستذهب إلى المحافظة لرؤية زوجته . وعلى أثر خروجه قالت الآنسة ليديا :

— كان ينبغى أن أذهب إلى كورسيكا لأعلم كيف يكون المحافظ ، وهذا الأخير يبدو لى لطيفاً بهيئة كافية .

فأجاب أورسو بقوله :

— أما أنا فلا أستطيع أن أقول عنه مثل هذا ، وإنى لأجده غريباً فى مظهره الفخفخائى الغامض .

ولما كان الكولونيل إذ ذاك فى حالة أكثر من النعاس ، فقد ألقت الآنسة ليديا نظرة نحوه ، ثم خفضت صوتها وقالت :

— أنا أرى أنه ليس غامضاً إلى الحد الذى تدعيه ، وأحسب أننى فهمته .

— أنت بكل تأكيد دقيقة جداً يا آنسة نيفيل ، وإذا

كنت تريدين شيئاً من سرعة الخاطر فيما قاله فلابد من أن تكونى أنت التى خلعته عليه يقيناً .

— إن هذه هى إحدى جمل المركيز دى ماسكارى[1] فيما أظن يا سيد ديلاربيا ، لكن هل تريد أن أعطيك برهانا على فطنتى ؟ أنا ساحرة قليلا ، وأعرف ماذا يفكر الأشخاص الذين أراهم مرتين .

— يا إلهى ! أنت ترعبيننى إذا كنت تعرفين أن تقرئى أفكارى ، فلا أدرى أيجب علىّ أن أكون مسروراً من ذلك أم محزونا . . .

ولكن الآنسة ليديا قاطعته واستمرت تقول وقد احمر وجهها :

— يا سيد ديلاربيا نحن لم نتعارف إلا منذ بضعة أيام ، ولكن فى البحر وفى البلاد البربرية ... أرجو أن تعذرنى ... فى البلاد البربرية يصير الناس أصدقاء بهيئة أسرع منها فى المجتمع الراقى ، وهكذا لا تدهش إذا حدثتك كصديقة عن أشياء جد داخلية وقد لا ينبغى أن يتدخل فيها أجنبى .

— أوه ! لا تقولى هذه الكلمة يا آنسة نيفيل ، فالأخرى كانت تروقنى أكثر .

— إذاً يا سيدى يجب أن أقول لك إنى — دون أن أحاول معرفة أسرارك — قد عرفت منها جزءاً ، ومنها مايحزننى .

---

(١) يريد المؤلف أن يشير الى جمل وردت على لسان لمركيز المزيف دى ماسكارى فى مسرحية « المتأنقات المضحكات » لموليير . (المترجم)

أنا أعرف ياسيدى الكارثة التى أصابت أسرتك ، وقد حدثنى الناس كثيراً عن الطباع الانتقامية فى مواطنيك ، وعن أنهاجهم فى الانتقام لأنفسهم ... أليس هذا هو الذى كان المحافظ يلمح إليه ؟

فقال أورسو وقد صار شاحباً كأنه ميت :

— هل الآنسة ليديا تستطيع أن تتصور ! . . .

فقاطعته قائلة :

— لا ياسيد ديلاريبا أنا أعرف أنك رقيق الحساسية ممتلئ بالشرف ، وقد قلت لى أنت نفسك إن عامة الشعب هى الطبقة الوحيدة التى لا تزال فى بلادكم تعرف الانتقام الذى يروقك أن تدعوه ضورة من صور المبارزة .

فقال :

— هل تحسبين إذاً أننى جدير بأن أصير يوماً قاتلا ؟

فخفضت الآنسة ليديا عينيها واستمرت تقول :

— ما دمت أحدثك عن هذا ياسيد أورسو ، فيجب عليك أن ترى أننى لا أرتاب فيك ، وإذا كنت قد حدثتك عنه فذلك لأنى فهمت أنك عندما تعود إلى بلادك قد تحاط بأوهام بربرية ، وحينئذ يسرك أن تذكر أن هناك كائناً يحترمك لشجاعتك فى مقاومتها .

ثم نهضت واستمرت تقول :

— هيا بنا لانتكلم بعد ذلك عن هذه الأشياء الدميمة ، فإنها تؤلم رأسى ، وفوق هذا فقد تقدم بنا الوقت . ألست حانقاً علىَّ ؟ إذاً فعم مساء على الطريقة الإنجليزية .

ثم مدت إليه يدها فضغط عليهـا ، وعليه ملامح الجد والتأثر وقال لها :

— ياآنسة هل تعرفين أن هناك لحظات تستيقظ فيها غرائز بلادى فى نفسى ، وأحيانا عندما أفكر فى والدى المسكين . . . تتملكنى أفكار مزعجة ، لكننى بفضلك قد تخصلت منها إلى الأبد فشكرا شكرا !

ولقد كان يود أن يستمر فى حديثه ، ولكن الآنسة ليديا أسقطت ملعقة شاى على الارض فأيقظ ضجيجها الكولونيل الذى قال :

— يا ديلاربيا إن خروجنا للصيد سيكون فى الخامسة غدا ، فحافظ على الموعد .

— نعم يا كولونيلى .

٥

فى اليوم التالى ، وقبل رجوع الصائدين بقليل بينما كانت الآنسة نيفيل عائدة إلى الفندق لمحت سيدة شابة مرتدية ملابس سوداء وممتطية جوادا ذا قامة قصيرة ، لكنه قوى ، وداخلة المدينة ، وكان خلفها قروى ممتط جوادا أيضا ومرتد سترة من جوخ أسمر ، مثقوبة تجاه المرفق ، وقد علق فى عنقه قارورة ، وكان فى حزامه غدارة وفى يده بندقية قد وضع مؤخرها فى قراب من الجلد متصل بالسرج . وقصارى القول : كان مجهزا

بعدة كاملة كأنه أحد أشقياء أبطال الفواجع المسرحية ، أو كأنه أحد متوسطى الكورسيكيين على سفر . وقبل كل شئ استرعى جمال هذه السيدة الجدير بالملاحظة انتباه الآنسة نيفيل . كانت هذه الشابة تبدو فى العشرين من عمرها ، وكانت طويلة القامة بيضاء ذات عينين زرقاوين قاتمتين ، وثغر وردى ، وأسنان براقة ، وكان الناظر إليها يقرأ فى ملامحها فى الوقت عينه الكبرياء والقلق والحزن ، وكانت واضعة فوق رأسها ذلك الغطاء الحريرى الأسود الذى يدعى « ستزارو » والذى أدخله الجينيون فى كورسيكا والذى يجمل النساء إلى حد بعيد ، وكانت جدائل شعرها الكستنائى اللون تؤلف عمامة حول رأسها . ولقد كانت ملابسها نظيفة ، ولكنها فى منتهى البساطة .

تمكنت الآنسة نيفيل من أن تتأمل هذه السيدة ذات « المتزارو » لأنها كانت قد وقفت لتسأل أحد المارة بكثير من الاهتمام كما كان ذلك يبدو فى عينيها . وبناء على الجواب الذى أجابها به محدثها ضربت جوادها بالسوط ثم عدت عدوا سريعا ولم تقف إلا عند باب الفندق الذى يقيم فيه السيد توماس نيفيل وأورسو . وهناك بعد أن تبادلت بضع كلمات مع صاحب الفندق قفزت بخفة من فوق جوادها وجلست على مقعد حجرى إلى جانب الباب على حين كان تابعها يقود الجوادين إلى الحظيرة . مرت الآنسة ليديا بملابسها الباريسية أمام هذه الأجنبية فلم ترفع نحوها عينيها . وبعد ربع ساعة فتحت نافذتها

فرأتها جالسة فى ذات الموضع وعلى نفس الهيئة . وبعد قليل ظهر الكولونيل وأورسو عائدين من الصيد ، وإذ ذاك قال صاحب الفندق بضع كلمات للآنسة ذات الحداد وأشار بأصبعه إلى الشاب ديلاربيا ، فاحمرت ونهضت بحماسة وخطت بضع خطوات إلى الأمام ثم وقفت جامدة كأنها ذاهلة ، وكان أورسو قريبا منها ، فجعل ينظر إليها بفضول ، وأخيرا قالت له بصوت متأثر :

— هل أنت أُورْسُو أَنْتُونيُو دِيلاَّرِبيا ؟ أنا كولومبا

فصاح أورسو دهشا :

— كولومبا !

وإذ ذاك أخذها بين ذراعيه وجعل يقبلها بحنان ، فأدهش الكولونيل وابنته ، لأن الناس فى انجلترا لا يتعانقون فى الطرقات . ثم قالت كولومبا لشقيقها :

— يا شقيقى أرجو أن تغفر لى ، إذ قد جئت بدون أمرك ، ولكنى علمت من أصدقائنا أنك وصلت إلى أجاسيو ، وقد كانت رؤيتك عزاء لى . . .

قبلها أورسو مرة أخرى ثم التفت نحو الكولونيل وقال له :

— هذه هى شقيقتى ولم أكن لأعرفها قطعاً لو لم تسم نفسها . يا كولومبا هذا هو الكولونيل السير توماس نيفيل . يا كولونيل تفضل فاعذرنى ، فأنا لا أستطيع أن أتشرف بالعشاء معك اليوم . . . إذ أن أختى . . .

لكن الكولونيل قاطعه صائحاً :

— يا للشيطان وأين تريد أن تتعشيا ؟ يا عزيزى أنت تعرف معرفة جيدة أنه لا يوجد فى هذا الفندق الملعون إلا عشاء واحد وأنه لنا ، والآنسة ستبعث إلى نفس ابنتى سروراً عظيما بانضمامها إلينا .

وعلى أثر ذلك نظرت كولومبا إلى شقيقها الذى لم يذر الكولونيل يرجوه كثيراً ثم دخلوا جميعاً إلى كبرى قاعات الفندق التى كان الكونيل يستعملها للاستقبال وللمائدة على التعاقب . ولما قدمت الآنسة ديلاريبا إلى الآنسة نيفيل انحنت كولومبا لها انحناءة احترام عميقة ، ولكنها لم تنطق كلمة واحدة ، وكانت تبدو كأنها نافرة . وقد تكون هذه هى المرة الأولى التى وجدت فيها أمام أجانب من الطبقة العالية ، ومع ذلك فلم يكن فى سلوكها شىء يشعر بأنها من الأقاليم ، بل إن الغرابة التى كانت تلوح عليها أنقذت موقف الارتباك . وبهذا نفسه راقت الآنسة نيفيل . ولما لم يكن فى الفندق غرف خالية ، فقد اندفعت الآنسة ليديا فى طريق اللطف أو شهوة الاطلاع إلى حد أن عرضت على الآنسة ديلاريبا أن تهىء لها سريراً فى غرفتها الخاصة ، فتمتمت كولومبا ببضع كلمات شكر ثم تبعت الوصيفة لتجرى فى زينتها التعديل الصغير الذى يجعله السفر على الجواد ضروريا بسبب الغبار والشمس . وعند ما عادت إلى البهو وقفت أمام بنادق الكولونيل التى كان الصائدان قد وضعاها فى إحدى زوايا الغرفة وقالت :

— ما أجمل هذه الأسلحة ، هل هى ملكك يا شقيقى ؟

— كلا ، إنها أسلحة الكولونيل الإنجليزية وهى جيدة بقدر ما هى جميلة .

فقالت كولومبا :

— كنت أود من كل قلبى أن يكون لك بندقية شبيهة بهذه البنادق .

وحينئذ صاح الكولونيل قائلا :

— يقيناً إن لديلاربيا بندقية من هذه الثلاث ، وهو يجيد استعمالها جداً . ولقد أطلق اليوم أربع عشرة طلقة ، فأصاب أربعة عشر صيداً .

وعلى أثر هذا احتدمت بينهما معركة من الكرم انهزم فيها أورسو ، واقترنت هزيمته بسعادة عظيمة فى قلب أخته كما كان من السهل أن يرى ذلك فى ملامح السرور الطفولى الذى سطع فجأة على وجهها بعد أن كان منذ هنيهة شديد الجد .

وإذ ذاك قال الكولونيل :

— اختر يا عزيزى .

لكن أورسو رفض . فقال له الكولونيل :

— إذاً ، فالآنسة شقيقتك هى التى ستختار لك .

فلم تمهله كولومبا إلى أن يعيد ما قال ، بل سرعان ما اختارت أقل البنادق حلية ، ولكنها كانت من ماركة مانتون الفاخرة ذات الرصاص الضخم وقالت :

— هذه لا بد أن تبعث الرصاصة أجود البعث .

وبينما كان شقيقها مرتبكا فى تشكراته قدم العشاء فجاء فى وقته المناسب لينقذه من هذا الارتباك ، ولقد أبدت كولومبا أول الأمر شيئا من المقاومة فى الجلوس إلى المائدة ولم تذعن إلا تحت تأثير نظرة من شقيقها ، وقبل أن تبدأ فى الأكل أشارت إشارة الصليب ، ففتنت الآنسة ليديا بمرآها وقالت فى نفسها :

— حسن هذه إنسانة بدائية .

ثم عاهدت نفسها على أن تقيد عدة بملاحظات شيقة على هذه الشابة الممثلة لتقاليد كورسيكا القديمة ، أما أورسو فمن الجلى أنه كان متضايقا قليلا خشية أن تقول شقيقته أو تعمل شيئا تشم منه رائحة قريته بصورة مغالية ، ولكن كولومبا كانت تلاحظه بدون انقطاع وتنظم حركاتها طبق حركاته وأحيانا كانت تتأمله فى تحديق وعليها ملامح غريبة من الأسى . وإذا التقت عند ذلك عيناه بعينها فإنه هو الذى كان يحول نظراته عنها أولا كما لو كان يريد أن يفر من سؤال نفسانى كانت شقيقته توجهه إليه وهو يفهمه حق الفهم .

كانوا يتحدثون بالفرنسية ، لأن الكولونيل كان يسئ التعبير بالإيتالية ، وكانت كولومبا تفهم الفرنسية ، بل وتجيد إجادة كافية نطق الكلمات القليلة التى تضطر إلى تبادلها مع ضائفتها . وبعد العشاء لاحظ الكولونيل أن نوعا من التضايق يسود بين الشقيقين ، فسأل أورسو بصراحته العادية : أيود أن يتحدث مع الآنسة كولومبا وحدهما ؟ وفى هذه الحالة يقترح أن ينتقل هو وابنته إلى الحجرة المجاورة ، ولكن أورسو بادر

إلى شكره وقال له إنه سيكون لديهما متسع من الوقت للتحدث فى قرية بييترانيرا .

وعند ذلك أخذ الكولونيل مكانه العادى فوق الصفة . وبعد أن حاولت الآنسة نيفيل الحديث فى عدة موضوعات ويئست من أن تحمل كولومبا الجميلة على الكلام رجت أورسو أن يقرأ لها أنشودة من أناشيد دانتى ، وكان شاعرها المفضل فاختار من أناشيد الجحيم الأنشودة التى توجدفيها قصة فرانشيسكا داريمينى وشرع يقرأ معتمدا بقدر ما يستطيع على تلك الأبيات السامية التى توضح توضيحا جيدا الخطر الذى ينشأ من انفراد اثنين بقراءة كتاب حب . وبقدر ما كان يقرأ كانت كولومبا تقترب من المائدة وترفع رأسها الذى كان إلى الآن منخفضا وطفقت عيناها اللتان اتسعتا تلمعان بلهب تجاوز المستوى العادى ، وكانت تحمر تارة وتصفر أخرى ، وتهتاج فى مقعدها . مزاج إيتالى جدير بالإعجاب ، ذلك المزاج الذى — لكى يفهم الشعر — ليس فى حاجة إلى متنطع يبين له مافيه من جمال . وحينما انتهت المطالعة صاحت قائلة :

— ما أجمل هذا الشعر ! من الذى ألفه ياشقيقى ؟

فأحس أورسو بشئ من الخجل ، وحينئذ أجابت الآنسة ليديا باسمة :

— إنه شاعر فلورانسى مات منذ عدة قرون .

وقال أورسو :

— سأجعلك تقرئين دانتى حينما سنعود إلى بييترانيرا .

فاستمرت كولومبا تقول :

— يا إلهى ! كم هذا جميل !

ولما كانت قد علقت ثلاثة أبيات أو أربعة فقد تلتها أولا بصوت خافت ثم انتشت فأنشدتها بصوت عال وبعاطفة أقوى مما كان لدى شقيقها أثناء قراءته فدهشت الآنسة ليديا دهشا عظيما وقالت لها :

— يظهر أنك تحبين الشعر كثيرا ، كم أنا أغبطك على السعادة التى ستشعرين بها عند قراءة دانتى للمرة الأولى .

واذ ذاك قال أورسو :

— أنت ترين يا آنسة نيفيل إلى أى حد بلغ شعر دانتى من السلطان حتى يؤثر فى متوحشة صغيرة لا تعرف إلا صلاتها . . . ولكنى مخدوع ، فأنا أذكر أن كولومبا محترفة ، وفى نعومة أظافرها كانت تروض نفسها على صناعة الشعر ، ووالدى كان يكتب إلىّ أنها أعظم راثيات قرية بييترانيرا وما يحوطها على بعد مرحلتين من كل ناحية .

عند ذلك ألقت كولومبا على شقيقها نظرة متوسلة ، ولكن لما كانت الآنسة نيفيل قد سمعت عن الارتجالات الكورسيكية ، وكانت تموت شغفاً بأن تسمع إحداها فقد أسرعت فرجت كولومبا أن تقدم إليها نموذجاً من موهبتها . وإذ ذاك تدخل أورسو ، وقد تألم من ذكره استعدادات شقيقته الشعرية ، ولكنه عبثاً أقسم أنه لا شئ أسخف من « البالاتا » الكورسيكية ، وأن تلاوة شعر كورسيكى بعد شعر دانتى يعتبر خيانة لبلاده ،

غير أن كل هذا لم ينتج إلا إثارة رغبة الآنسة نيفيل ، فاضطر في النهاية إلى أن يقول لشقيقته :

— إذاً ارتجلي شيئاً ولكن ليكن ذلك قصيراً .

وعند ذلك تنهدت كولومبا ونظرت زهاء دقيقة أو دقيقتين إلى غطاء المائدة ثم إلى أخشاب السقف ، وأخيراً وضعت يدها على عينيها كتلك الطيور التي تطمئن وتحسب أنها غير مرئية حينما لا ترى هي شيئاً وأنشدت بصوت مضطرب القطعة الآتية :

الفتاة والحمامة البرية

« في الوادي البعيد خلف الجبل — حيث لا تجيء الشمس إلا ساعة من نهار — يوجد في الوادي منزل مظلم — والعشب ينمو فوق عتبته — وأبوابه ونوافذه دائماً مغلقة — ولا يظهر أي دخان من سطحه — ولكن في الظهر حين تجيء الشمس — تفتح نافذة ساعتئذ — وتجلس اليتيمة فتغزل على دولابها — تغزل وتنشد وهي تشتغل — أنشودة حزن — لكن لا تجيب أية أنشودة أخرى على أنشودتها — وفي أحد الأيام ، في يوم من أيام الربيع — نزلت حمامة برية على شجرة بالقرب منها — فسمعت أنشودة الفتاة — فقالت لها : أيتها الفتاة أنت لا تبكين وحدك — لأن صقراً قاسياً اختطف مني صاحبي . — أيتها الحمامة أريني الصقر المختطف — هل هو على ارتفاع يساوي السحاب — إذا كان كذلك فسأهوي به عما قريب إلى الأرض — ولكني أنا الفتاة المسكينة من

يرد إلىَّ شقيقى — شقيقى الذى هو الآن فى بلاد بعيدة ! — أيتها الفتاة قولى لى : أين شقيقك — وجناحاى تحملانى نحوه .. »

فصاح أورسو ، وهو يقبل شقيقته بانفعال يتعارض مع نبرة المزاح التى كان يتصنعها قائلا :

— هذه حمامة حسنة التربية !

وإذ ذاك قالت الآنسة ليديا بدورها :

— إن أنشودتك فاتنة ، وأريد أن تكتبيها لى فى دفترى ، وسأترجمها إلى الانجليزية وسأجعلها تلحن وتوقع .

أما الكولونيل الخيِّر الذى لم يفهم كلمة واحدة فقد أضاف ثناءه إلى ابنته ثم أتبع ذلك بقوله :

— أهذه الحمامة البرية يا آنسة هى نفس الطائر الذى أكلناه اليوم ؟

قدمت الآنسة نيفيل دفترها إلى المرتجلة وقد دهشت كثيرا حين رأتها تكتب أنشودتها مقتصدة فى الورقة بطريقة غريبة ، فبدل أن تكتب الشعر على نظامه رسمت الأبيات متعاقبة فى نفس السطر بقدر ما يسمح به عرض الورقة أى أن هذه الآبيات لم تعد تتفق مع التعريف المألوف فى الإنشاء الشعرى ، وهو « أن يكون فى سطور صغيرة متساوية فى الطول مع هامش من كل جانب » . ولقد كان هناك أيضا بضع ملاحظات على إملاء الآنسة كولومبا التى كانت تتبع هواها فلا تسير طبق القواعد والتى كانت تدفع الآنسة نيفيل إلى

الابتسام على حين كانت العزة الأخوية عند أورسو فى عذاب.

ولما حانت ساعة النوم اتجهت الفتاتان إلى غرفتها ، وهناك بينما كانت الآنسة ليديا تخلع عقدها وقرطها وأساورها لاحظت أن صاحبتها أخرجت من بين ملابسها شيئا طويلا وأخفته تحت « المتزارو » الذى كان موضوعا على منضدة ثم ركعت وأدت صلاتها بتقوى ، وبعد دقيقتين كانت فى سريرها .

ولما كانت الآنسة ليديا بطبعها شديدة الشغف بالاطلاع وبطيئة فى خلع ملابسها ككل الانجليزيات فقد اقتربت من المنضدة وتصنعت البحث عن دبوس ورفعت « المتزارو » فلمحت تحته خنجرا طويلا مثبتا تثبيتا عجيبا فى مقبض من صدف وفضة ، وكانت صناعته جديرة بالملاحظة ، وهو سلاح قديم ذو قيمة كبيرة فى نظر الغواة .

فقالت باسمة :

— هل من التقاليد هنا أن الآنسات يحملن هذه الآلة الصغيرة فى ملابسهن ؟

فأجابت كولومبا متنهدة :

— ينبغى ذلك تماما ، إذ بين الناس كثير من الاشرار .

فتناولت الآنسة نيفيل الخنجر ، وجعلت تشير به إشارة الطعن التى تمثل على المسرح من أعلى إلى أدنى وهى تقول :

— وهل لديك من الشجاعة حقا ما يمكنك من أن توجهى إلى أحد طعنة خنجر كهذه ؟

فأجابت كولومبا بصوتها العذب الموسيقى قائلة :

— نعم إذا كان ذلك ضروريا ، لكى أدافع عن نفسى أو عن أصدقائى . . . ولكن ليس هكذا ينبغى إمساكه ، فبهذه الطريقة يمكن أن تجرحى نفسك إذا تراجع الشخص الذى تريدين طعنه ، وانما الطعن هكذا صعودا إلى أعلى . فعلى هذه الصورة يكون قاتلا فيما يقال . سعداء أولئك الناس الذين لا تدعوهم الحالة إلى استعمال مثل هذه الاسلحة !

ثم تنهدت وتركت رأسها يسقط على الوسادة وأغلقت عينيها ، فلم يكن من الممكن أن يرى الإنسان فى هذه اللحظة وجها أجمل ولا أنبل ولا أطهر من وجهها ، بل إن فيدياس[1] — لكى يصنع تمثالا لمينيرف — لم يكن يصبو إلى نموذج آخر لعمله .

٦

إننى — لكى أذعن لحكمة هوارس — *in medias res* [2] قد ألقيت بنفسى بديا فى وسط الموضوع . والآن وبعد أن نام الجميع : كولومبا الجميلة والكولونيل وابنته ، سأنتهز فرصة

---

(١) فيدياس هو أشهر مثالى الاغريق ، وقد ولد حوالى سنة ٥٠٠ وتوفى فى سنة ٤٣١ قبل المسيح ، وكان من أجل تماثيله وأكثرها إتقانا تمثال « جيبيتر » (ذوس) بمدينة أولامبى ، وتمثال « مينيرف » (أتينا) بمعهد بارتينون . (المترجم)

(٢) هذه حكمة لهوراس الشاعر اللاتينى الشهير نصح بها الكتاب والشعراء أن يلقوا بأنفسهم فى وسط الموضوع مباشرة بدون مقدمات . وقد سبق هوميروس هوراس إلى هذه الطريقة . (المترجم)

هذه اللحظة فأحيط علم قارئى ببعض الخصائص التى يجب عليه ألا يجهلها إذا كان يريد أن يتغلغل أكثر من ذلك فى هذه القصة الحقيقية . إنه يعرف أن الكولونيل ديلاَّ رِبِيًّا والد أورسو قد مات مقتولا ، ولكن لا يقتل المرء فى كورسيكا كما يقتل فى فرنسا بيد أول هارب من السجن لم يجد طريقة لسرقة الأوانى الفضية أفضل من القتل ، وإنما يقتل المرء بأيدى أعدائه . غير أن معرفة المبرر الذى تخلق الأعداء هى غالبا عسيرة جدا ، فكثير من الأسر متباغض تحت تأثير تقاليد عتيقة ، وتراث السبب الأصلى للبغض قد اندثر تماما .

كانت الأسرة التى ينتسب إليها الكولونيل ديلاربيا تبغض عدة أسر أخرى ، ولكنها كانت تمقت على الأخص أسرة باريتشينى . ويعزو بعض الناس هذا إلى أن أحد أفراد أسرة ديلاربيا كان فى القرن السادس عشر قد أغوى إحدى فتيات أسرة باريتشينى فطعنه أحد أقارب الفتاة المهانة بخنجر . ويروى غيرهم القصة على نحو آخر ، فيدعون أن الفتاة المغواة كانت من أسرة ديلا ربيا ، وأن الشاب المقتول كان من أسرة باريتشينى . وقصارى القول — لكى أستعمل التعبير المحدد — كان بين المنزلين دم ، ومع ذلك فهذا القتل ، على غير العادة ، لم ينتج قتلا آخر ، وذلك لأن أسرتى ديلاربيا ، وباريتشينى كانتا مضطهدتين اضطهادا متساويا أمام الحكومة الجينية ، وكان فتيانهما قد اعتادوا الهجرة من الوطن فى طليعة شبابهم ، فحرمت الأسرتان عدة أجيال من ممثليهما الأقوياء . وفى نهاية القرن

الماضى كان أحد أفراد أسرة ديلاربيا — وهو ضابط فى جيش نابولى — موجودا فى أحد نوادى الميسر ، فتشاجر مع آخرين من شباب الجيش ، فوجهوا إليه بين سبابهم دعوتهم إياه براعى المعز فى كورسيكا . وعند ذلك تناول سيفه ، ولكنه لما كان واحدا ضد ثلاثة ، فقد كاد موقفه يسوء لولا أن أجنبيا كان يلعب فى ذلك النادى صاح قائلا : « إننى كورسيكى أيضا! » وأسرع الى الذود عنه ، وكان الأجنبى من أسرة باريتشينى ولكنه لم يكن يعرف مواطنه . وحينما تفاهما تبادلا مظاهر أدبية كبرى ، وتعاهدا على صداقة خالدة ، لأن الكورسيكين فى البلاد الأجنبية يرتبطون فى سهولة على عكسهم فى جزيرتهم ، وقد شوهد هذا بوضوح فى ذلك الظرف ، فديلاربيا وباريتشينى ظلا صديقين حميمين فى إيتاليا ، ولكنهما بعد أن عادا إلى كورسيكا لم يكونا يتقابلان إلا نادرا ولو أنهما يقطنان قرية واحدة . وعندما توفيا كان الناس يقولون إنهما لم يتبادلا الحديث منذ خمسة أعوام أو ستة. وقد عاش نجلاهما من بعدهما فى حالة تشبه الرسميات كما يقال فى الجزيرة . فأما أحدهما وهو جيلفوتشيو والد أورسو ، فقد كان فى الجيش ، وأما الآخر ، وهو جيوديتشى باريتشينى فقد كان محاميا . ولما صار كل منهما رئيس أسرته وفرقت بينهما مهنتاهما لم يكن لديهما تقريبا أية فرصة للتلاقى ولا لسماع أحدهما حديثا عن الآخر .

ومع هذا ففى أحد الأيام وقد كان ذلك حوالى سنة ١٨٠٩ طالع جيوديتشى إحدى صحف مدينة باستيا ، فرأى أن الكابتن

جيلفوتشيو قد منح وساما فأعلن أمام شهود أنه لم يدهش من هذا النبأ لأن القائد *** يحمى أسرته ، فنقلت هذه الكلمة إلى جيلفوتشيو فى فينا ، فقال لأحد مواطنيه إنه عند عودته إلى كورسيكا سيجد جيوديتشى ثريا جدا ، لأنه يربح من قضاياه التى يخسرها أكثر مما يربح من قضاياه التى يكسبها . ولم يعرف أحد قط أكان يريد أن يشير بهذا إلى أن ذلك المحامى كان يخون موكليه أم كان يريد فقط أن يردد تلك الحقيقة الشعبية وهى أن القضية الباطلة تعود بالفائدة على رجل القانون أكثر مما تعود به عليه القضية الحقة . وأياما كان فإن المحامى باريتشينى قد علم هذه اللدغة ولم ينسها . وفى سنة ١٨١٢ سعى هذا الأخير ليعين عمدة لقريته . وبينما هو مفعم بالأمل فى أن ينال هذا التعيين إذ بالقائد *** يكتب الى المحافظ يوصيه أن يعين أحد أقارب زوجة جيلفوتشيو فلم يسع المحافظ إلا أن يبادر إلى تنفيذ رغبة القائد ، ولم يرتب باريتشينى فى أن يعزو علة فشله إلى دسائس جيلفوتشيو . وبعد سقوط الأمبراطور فى سنة ١٨١٤ أبلغت السلطات أن صنيعة القائد هو بونابارتى ، فاستبدل بباريشينى ، ولكن هذا الأخير لم يلبث أن فصل بدوره أثناء المائة يوم [١] ، غير أنه بعد هدوء هذه العاصفه عاد فى وسط احتفال عظيم ، فاستولى

---

(١) من المعروف فى تاريخ فرنسا أن نابليون بعد أن سقط فى المرة الاولى عاد إلى السلطان وظل أمبراطوراً مائة يوم من ٢٠ مارس إلى ٢٨ يونيو سنة ١٨١٥ وانتهت بواقعة واترلو ، وقد دعى ذلك العصر بعصر المائة يوم . (المترجم)

على خاتم العمدية وعلى سجل الحالة المدنية (دفتر الأحوال) .

ومنذ هذه اللحظة صار نجمه أسطع منه فى أى وقت كان[١] .

ولما أحيل الكولونيل ديلاربيا على الاستيداع وعاد إلى قرية بييترا نيرا ثبت أمامه فى حرب مكبوتة تتجدد فيها المناضلات بدون انقطاع ، فحينا كان يدعى أمام المحكمة ليدفع تعويض خسارة أحدثها جواده فى أحد حواجز حقول السيد العمدة ، وحينا آخر كان العمدة بحجة إصلاح أرض الكنيسة يأمر بإزالة إحدى قطع الرخام المحطمة التى تحمل شعار أسرة ديلاربيا وتغطى قبر أحد أفرادها . وإذا قضمت المعز نباتات الكولونيل الناشئة فإن مالكها يجد الحماية فى كنف العمدة . وفوق ذلك ، فإن البدال الذى كان يقوم بمباشرة أعمال مكتب البريد ، وحارس القرية ، وهو جندى قديم مصاب بعاهة ، وكانا كلاهما من أتباع ديلاربيا قد طردا على التعاقب واستبدلا باثنين من صنائع باريتشينى .

وأخيرا توفيت زوجة الكولونيل وكانت قد أبدت رغبتها فى أن تدفن فى وسط غابة صغيرة كانت فى حياتها تحب أن تتنزه فيها . وهنا أعلن العمدة أنها ستدفن فى مقبرة القرية مادام أنه لم يتسلم إذنا يسمح بإنشاء قبر منعزل . وعلى أثر ذلك ثار الكولونيل وأعلن أن زوجته — إلى أن يجيء هذا الإذن — ستدفن فى المكان الذى اختارته ثم أمر بحفر القبر ،

---

(١) يبدو لى أن هذه الحالة تكاد تكون صورة صادقة لما يقع فى القرى المصرية على أثر تغيير الوزارات . (المترجم)

وكذلك العمدة من جانبه أمر بحفر قبر آخر فى المقبرة وطلب الشرطة لكى تظل القوة للقانون على حد تعبيره . وفى يوم الدفن وقف الحزبان وجها لوجه وخشى الناس حين ذاك أن تحتدم المعركة من أجل الاستيلاء على جثمان زوجة ديلاربيا . وعلى أثر خروج القسيس من الكنيسة عرض له حوالى أربعين قرويا مسلحين كان أقارب المتوفاة قد أعدوهم فأرغموه على أن يسلك طريق الغابة ، ولقد تقدم العمدة من الجانب الآخر وتبعه ولداه وأشياعه ورجال الشرطة ليعارضوا هذه الرغبة ولم يكد يواجه أعداءه ويأمر موكبهم بالتقهقر حتى قوبل بالصياح والتهديد . ولما كان التفوق فى العدد إلى جانب خصومه ، وكان يبدو أن أولئك الخصوم مستعدون لكل شئ ، فقد حشوا على أثر مرآه عدة بنادق ، بل قيل إن أحد الرعاة صوب إليه بندقيته ، ولكن الكولونيل رفع البندقية قائلا : « لا يطلق أحد بدون أمرى ! » وإذا كان العمدة « يخشى الضربات بطبعه » كبانورج [1] فقد رفض المعركة وقفل راجعا بفريقه . وحين ذاك سار الموكب الجنائزى ، وقد تعمد أن يسلك أطول طريق لكى يمر أمام دار العمدية . وهنا انضم الى الجمع أحد البله من القرويين وهتف قائلا : ليحى الامبراطور ! فلبى هتافه صوتان أوثلاثة ثم انتشا أنصار

---

(١) بانورج أحد أبطال كتاب « بانتاجرويل » لرابليه وهو مضرب المثل للتبصر المؤسس على الجبن حتى قالوا إنه يشبه أوديسوس فى تبصره ويباينه فى شجاعته . (المترجم)

ديلاربيا واقترحوا أن يقتلوا أحد ثيران العمدة كان يعترض طريقهم مصادفة، ولكن الكولونيل لحسن الحظ منع هذا العنف.

وعلى أثر ذلك حدث ما كان متوقعا وهو أن العمدة قد دون هذه الحادثة فى السجل وكتب للمحافظ تقريرا بأفخم أساليبه صور له فيه أن القوانين الإلهية والإنسانية قد ديست بالأقدام ، وأن جلاله هو بصفته عمدة ، وجلال القسيس قد جحدا وأهينا ، وأن الكولونيل ديلاربيا قد تزعم مؤامرة « بوونابارتية [1] » بنية قلب نظام وراثة العرش وتحريض بعض الأهلين على التسلح ضد البعض الآخر ، وهما جنايتان معاقب عليهما بنص المادتين ٨٦ ، ٩١ من قانون العقوبات .

غير أن المغالاة فى هذه الشكوى قد أضرت بنتيجتها ، وفوق ذلك فقد كتب الكولونيل الى المحافظ وإلى رئيس النيابة ، وقد كان أحد أقارب زوجته صهرا لأحد نواب الجزيرة ، وآخر قريبا لرئيس المحكمة . وبفضل هذه الحماية اندثرت تلك الدسيسة وبقى جثمان السيدة ديلاربيا مدفونا فى الغابة ، ولم يحكم الا على الأبله وحده بالسجن خمسة عشر يوما .

ولما فشل باريشينى فى هذه القضية حوّل دسائسه إلى ناحية أخرى ، فبعث أوراقا قديمة من مرقدها واعتمد عليها فى

---

(١) «بوونابارتية» نسبة إلى «بوونابارت» وهو النطق الكورسيكى لبونابارت . وكان أعداء نابليون بعد سقوطه لا ينطقون بكلمة نابوليون ألبتة ، ويردون كلمة بونابارت الى النطق الكورسيكى الاصلى ، فينطقونها : « بوونابارتيه » احتقارا له وتذكيرا للناس بكورسيكيته . (المترجم)

التعرض للكولونيل بشأن ملكية نهر كان يدير طاحونة مائية ، وهنا نشأت بينهما قضية استغرقت وقتا غير قصير . وبعد سنة ، وبينما كانت الظواهر تؤيد أن المحكمة ستنطق بحكمها لصالح الكولونيل ، إذ بباريتشيني يضع بين يدى رئيس النيابة رسالة بتوقيع شخص يدعى أجوستينى وهو شقى شهير يهدد فيها العمدة بالحريق والقتل إذا لم يتنازل عن دعواه . ومن المعروف أن حماية الأشرار كانت فى كورسيكا من الأمور المألوفة المشتهاة ، وأن أولئك الأشقياء — ليأسروا أصدقاءهم — كانو يتدخلون فى المناضلات الخاصة . وبينما كان العمدة يمنى نفسه بالاستفادة من هذه الرسالة ، إذا حدث حادث جديد عقد الموقف ، وهو أن الشقى أجوستينى أبلغ رئيس النيابة أن توقيعه قد قلد بقصد إلقاء الريبة على سلوكه واتهامه بأنه يتجر بتأثيره. ثم ختم بلاغه بهذه العبارة : « وإذا تبينت المزور فسأعاقبه عقابا يضرب به المثل».

كان من الواضح أن أجوستينى لم يكتب رسالة التهديد إلى العمدة . وقد اتهم كل من ديلاربيا وباريتشيني الآخر بكتابتها ، فجعل التهديد يتفجر من الجانبين ، ولم تعرف العدالة أى الفريقين هو الجانى .

وفى هذه الأثناء قتل الكولونيل . وهاك حادثة قتله كما ثبت لدى العدالة . فى اليوم الثانى من أغسطس سنة ١٨١٧ بعد غروب الشمس كانت مادلين بييترى حاملة حبوبا وعائدة إلى قرية بييترانيرا فسمعت طلقتين قريبتين منها ، وخيل إليها أنهما أطلقتا فى ممشى صغير ينتهى إلى القرية ، وكان ذلك على بعد

نحو مائة وخمسين خطوة من المكان الذى كانت فيه . وعلى أثر هذا رأت أن رجلا يعدو منحنيا نحو القرية ، وقد وقف لحظة والتفت إلى الوراء ، ولكن بعد المسافة حال دون تمييزها ملامحه . وفوق ذلك فقد وضع فى فمه ورقة ضخمة من أوراق الكرم أخفت كل وجهه تقريبا ثم أشار بيده الى رفيق لم تره الشاهدة واختفى بين الاشجار .

وحينئذ ألقت المرأة حملها وصعدت الممر مهرولة فألفت الكولونيل ديلاربيا غارقا فى دمه ، وقد اخترقت جسمه رصاصتان ، ولكنه لايزال يتنفس وكانت الى جانبه بندقيته محشوة ومعدة للاطلاق كما لو كان شرع فى الدفاع عن نفسه ضد شخص كان يهاجمه مواجهة فى نفس اللحظة التى أطلق عليه فيها شخص آخر الرصاص من الخلف. كان يحشرج ويغالب الموت ، ولكنه لم يكن يستطيع أن ينطق بكلمة . وقد أسند الأطباء هذا إلى طبيعة إصابتيه اللتين كانتا قد اخترقتا رئته ، وكان الدم يخنقه ويسيل من جرحيه ببطء كأنه زبد أحمر . وعند ذلك رفعت مادلين بييترى رأسه قليلا ، ووجهت إليه بضعة أسئلة فرأت فى وضوح أنه كان يريد أن يتكلم ، ولكنه لم يكن يستطيع أن ينطق بكلام مفهوم . ولما لاحظت أنه يحاول أن يضع يده فى جيبه بادرت فأخرجت منه دفترا صغيرا وقدمته إليه مفتوحا ، فتناول قلما من ذلك الدفتر وحاول الكتابة . وقد رأته يؤلف بمشقة بضعة أحرف ، غير أنها لما لم تكن تعرف القراءة لم تفهم معنى ما كتب . ولما أنهكه هذا المجهود ترك الدفتر مع المرأة وضغط على يديها بقوة وهو ينظر اليها بهيئة غريبة

كأنه كان يريد أن يقول لها : « هذا هام ، إذ هو اسم قاتلى » .

وبينما كانت بييترى صاعدة الى القرية التقت بباريتشينى وابنه فيشينتلو وكان الليل قد أرخى سدوله . فقصت عليهما مارأت فأخذ منها العمدة الدفتر وأسرع إلى دار العمدية ليرتدى الشارات الرسمية الضرورية لمعاينة الجناية وليدعو كاتم أسراره والشرطة. ولما بقيت مادلين وحدها مع الشاب فيشينتلو ، عرضت عليه أن يذهب ليساعد الكولونيل إذا كان لايزال حيا ، ولكن فيشينتلو أجابها بأنه إذا اقترب من رجل كان ألد أعداء أسرته ، فإنه يتهم بقتله . وبعد هينهة وصل العمدة فالفى الكولونيل قد فارق الحياة ، فنقل الجثة ودون الحادثة .

لم يمنعه اضطرابه الطبيعى فى هذا الموقف من الإسراع بوضع خاتم الشمع على دفتر القتيل والقيام بالتنقيب عن الجانى بقدر ما تسمح له به سلطته ، ولكن لم ينتج أى بحث من هذه البحوث اكتشافا هاما . وحينما جاء النائب فتح الدفتر أمامه فرأيا على ورقة ملوثة بالدماء بضعة أحرف كتبت بيد خائرة ، ومع ذلك فهى قابلة للقراءة فى وضوح وقد خط فيها مايلى : « أجوستين . . . » فلم يرتب النائب فى أن الكولونيل قد أراد أن يعين أجوستينى قاتلا له ، ولكن لما دعيت كولومبا ديلاريبا بأمر النائب طلبت أن تختبر الدفتر ، وبعد أن تصفحت مافيه من أوراق وقتا غير قصير أشارت بيدها نحو العمدة وصاحت قائلة : « هذا هو القاتل » ! ثم روت — بسرعة ووضوح مدهشين فى أزمة الألم التى هى مغمورة فيها —

أن والدها قد تسلم منذ يومين رسالة من ابنه فأحرقها وقيد في أوراق دفتره عنوانه الذى انتقلت إليه كتيبته ، وذاك العنوان لايوجد الآن فى هذا الدفتر ، فهى تستنتج من ذلك أن العمدة قد انتزع تلك الورقه التى كان فيها العنوان ، وهى نفسها التى كتب فيها والدها اسم القاتل . وفى رأيها أن العمدة هو الذى استبدل هذا الاسم باسم أجوستينى . وفى الواقع رأى النائب أن الجزء الذى كان الاسم مكتوبا فيه ينقص ورقة ، ولكنه لم يلبث أن لاحظ أن أوراقا تنقص من أجزاء أخرى فى هذا الدفتر نفسه . وقد أعلن شهود آخرون أن الكولونيل كان يمزق أوراقا من دفتره حين كان يريد أن يشعل لفافة . وإذاً فليس هناك شئ أكثر احتمالا من أن يكون قد أحرق خطأ بهذا الطريقة العنوان الذى نسخه . وفوق ذلك فقد لوحظ أن العمدة بعد أن تسلم الدفتر من بييترى لم يكن يستطيع أن يقرأ مافيه بسبب الظلام . وقد أثبت أنه لم يقف لحظة واحدة قبل عودته إلى دار العمدية وأن أونباشى الشرطة قد رافقه ورآه حين أوقد المصباح ووضع الدفتر فى الظرف وختمه أمام عينيه .

ولما أتم الأونباشى شهادته خرجت كولومبا عن طورها وركعت على ركبتيها وتوسلت إليه بكل ماهو مقدس لديه أن يجيب فى صراحة على هذا السؤال وهو : ألم يترك العمدة منفردا لحظة واحدة ؟ وبعد أن تردد الأونباشى بعض الشئ وكان متأثر تأثيرا مرئيا بانفعال الفتاة اعترف بأنه ذهب إلى

حجرة مجاورة ليبحث عن ورقة كبيرة ، ولكنه لم يمكث هناك دقيقة وكان العمدة دائما يكلمه أثناء كان هو يبحث فى الظلام عن تلك الورقة فى أحد الأدراج على أنه قد شهد بأنه عند عودته قد ألقى الدفتر الملوث بالدم فى موضعه على المنضدة التى ألقاه عليها العمدة على أثر دخوله .

وإذ ذاك أدى العمدة شهادته بهدوء عظيم وأعلن أنه يعذر هياج الآنسة ديلاربيا ، وأنه يريد أن يتفضل فيتنزل إلى تبرئة نفسه فبرهن على أنه كان طول المساء فى القرية ، وأن ابنه فيشينتاُّو كان معه أمام دار العمدية فى لحظة الجناية ، وأن ابنها لآخر ، أُرْلاندوشيو ، قد أصيب بالحمى فى ذلك اليوم نفسه فلم يغادر سريره. وأطلع المحققين على كل بنادق منزله فلم يجدوا بينها أية راحدة أطلقت حديثا ، أما الدفتر فقد فهم فى الحال أهميته فختم عليه بالشمع ثم وضعه بين يدى وكيله ، لأنه تنبأ بأنه — بسبب عداوته مع الكولونيل — يمكن أن يرتاب فيه . وأخيرا ذكر أن أجوستينى كان قد هدد بالموت ذلك الذى كتب الرسالة باسمه ثم لمح إلى أنه من المحتمل أن يكون هذا الشقى قد ارتاب فى الكولونيل فقتله ، ولم يكن الانتقام لمبرر من هذا النوع بدون نظير فى تقاليد الاشقاء .

وبعد خمسة أيام من وفاة الكولونيل ديلاربيا فوجئ أجوستينى بفريق من الجنود فقتل وهو يدافع عن نفسه دفاع المستميت ، وقد وجدت معه رسالة من كولومبا تتوسل اليه فيها أن يجيب فى صراحة على سؤالها الآتى : أجناية القتل التى نسبت

إليه حقة أم غير حقة ؟ ولما لم يجب على رسالتها فقد استنتج الرأى العام أنه لم يجد لديه من الشجاعة ما يمكنه من أن يقول لفتاة إنه قتل والدها ، ومع ذلك فإن الأشخاص الذين كانوا يدعون أنهم يعرفون خلق أجوستينى كانوا يقولون إنه لو كان هو الذى قتل الكولونيل لتباهى بذلك . ولقد كان هناك شقى آخر معروف باسم براندولاشيو ، فكتب إلى كولومبا رسالة أقسم فيها بالشرف على براءة رفيقه ، ولكن البرهان الوحيد الذى قدمه على ذلك هو أن أجوستينى لم يقل له قط إنه ارتاب فى الكولونيل .

والنتيجة من كل هذا أن الباريتشينيين لم تكن لديهم ما يقلقهم ، وأن النائب قد غمر العمدة بالثناء لاسيما أن هذا الأخير قد توج سلوكه بتنازله عن كل طلباته فى القضية التى كانت قائمة بينه وبين الكولونيل ديلاربيا بشأن ملكية النهر .

ارتجلت كولومبا — حسب تقاليد البلاد — مرثية أمام جثة والدها فى حضرة أصدقائه المجتمعين ، وفيها نفثت كل حقدها على الباريتشينيين واتهمتهم فى وضوح بالقتل وهددتهم أيضا بانتقام شقيقها . وقد صارت هذه المرثية شعبية وهى التى كان البحار ينشدها أمام الآنسة ليديا .

ولما علم أورسو بوفاة والده —وكان إذ ذاك فى شمال فرنسا— طلب إجازة ، ولكنه لم يستطع أن ينالها . ولقد صدق فى أول الأمر بناء عن كتاب من شقيقته أن الباريتشينيين هم الجناة ، ولكنه لم يلبث أن تسلم نسخة من التحقيق وكتابا خاصا من

النائب كاد يؤكد له فيه أن الشقى أجوستينى هو الجانى الوحيد. وفى كل ثلاثة أشهر كانت كولومبا تكتب إليه مرة لتعيد عليه تهمها التى كانت تسميها براهين ، فكانت هذه الاتهامات تجعل دمه الكورسيكى يغلى قسر إرادته ، بل إنه فى بعض الأحيان لم يكن يبرأ من المساهمة فى أوهام شقيقته ، ومع ذلك فقد كان فى كل مرة يكتب إليها فيها يكرر لها أن أقاويلها ليس لها أى أساس وأنها لاتستحق أدنى تصديق ، بل إنه كان يحظر عليها عبثا أن تتحدث إليه عنها أكثر من ذلك . ولقد مر على هذا عامان أحيل فى نهايتهما إلى الاستيداع . وإذ ذاك فكر فى أن يرى بلاده ، لا لكى ينتقم من قوم يعتقد أنهم أبرياء ، ولكن ليزوج شقيقته ويبيع ممتلكاته الصغيرة إذا كانت ذات قيمة كافية لحياتة بعيدا عن الجزيرة .

٧

سواء أكان وصول شقيقة أورسو هو الذى أعاد إلى نفسه بقوة أكثر من ذى قبل ذكرى المنزل الأبوى أم أنه قد تألم قليلا أمام صديقيه المتمدينين من ملابس كولومبا وطرائقها البرية فإنه أعلن منذ اليوم التالى تصميمه على مغادرة أجاسيو ، والعودة الى بييترانيرا ، ولكنه مع ذلك أخذ وعدا من الكولونيل بأن يجئ لينزل فى منزله العتيق المتواضع حينما يذهب الى باستيا ، وتعهد له — فى مقابل هذا — بأنه سيمكنه

من صيد أوعال وديكة برية وخنازير متوحشة وغير ذلك .

وفى اليوم السابق لرحيله عرض على رفيقيه — بدل الذهاب إلى الصيد — نزهة عند شاطئ الخليج . وإذ ذاك تأبط ذراع الآنسة ليديا واستطاع أن يتحدث معها بكل حرية ، لأن كولومبا كانت قد بقيت فى المدينة لتقوم بمشترياتها ، ولأن الكولونيل كان يتركها على ممر اللحظات ليصطاد طيور البحر فى وسط دهشة المارة الذين لم يكونوا يتصورون أن امرأ يفقد باروده من أجل قنص من هذا النوع .

كانا يسلكان الطريق الذى يوصل الى الكنيسة الإغريقية الصغيرة حيث يبدو أجمل مناظر الخليج . ولكنهما لم يكونا ينتبهان إليه أقل انتباه . وبعد صمت صار طوله كافيا لجعله مربكا قال أورسو :

— ياآنسة ليديا ... مارأيك فى أختى ؟ أجيبينى بكل صراحة.

— إنها تروقنى كثيرا . . .

ثم استمرت تقول باسمة :

— أكثر منك ، لأنها كورسيكية حقا ، وأنت متوحش تمدينت أكثر من اللازم .

— تمدينت أكثر من اللازم ! . . . هذا حسن ، ولكنى أشعر رغم أنفى بأننى عدت إلى الوحشية منذ أن وطئت قدماى هذه الجزيرة ، إذ أن لدى كثيرا من الفكر المرعبة تهيجنى وتعذبنى . . . وقد كنت فى حاجة إلى أن أتحدث إليك قليلا قبل أن أقذف بنفسى فى صحرائى .

— ينبغى أن تتشجع ياسيدى انظر إلى إذعـان شقيقتك ، إنها تقدم إليك المثال .

— آه ! لاتستمرى فى خطئك ولا تؤمنى بإذعانها. نعم إنها لم تقل لى كلمة واحدة بعد ، ولـكنى أقرأ فى كل نظرة من نظراتها ما تنتظره منى .

— ماذا تريد منك ؟

— أوه ! لاشئ . . . إنها تريد فقط أن أجـرب بنـدقية والدك لأعـرف هل هى جيـدة بإزاء الإنسان كما هى بإزاء الحجل أولا ؟

— أية فكرة تلك ! أنت تستطيع أن تفرض هذا ! بينما تعترف أنها لم تقل لك شيئا بعد ؟ إن هذا لمرعب من جانبك .

— لو لم تكن تفكر فى الانتقـام لحدثتنى بديا عن والدنا ولـكنها لم تفعل ، ولنطقت بأسماء أولئك الذين تعتبر خطأ — كما أعلم — أنهم قتلته ، غير أنها لم تنطق كلمة واحدة عنهم ، ذلك لأننا نحن الـكورسيكيين عنصر دهاء . ولما كانت شقيقتى تفهم أننى لست الآن فى قبضة يدها تماما ، فهى لاتريد أن تفزعنى ، مادمت أستطيع الانفلات منها ، ولـكنها عندما تـكون قد قادتنى إلى حافة الحفرة ، وحين يكون الدوار قد لعب برأسى ستدفعنى إلى الهوة .

وإذ ذاك سرد أورسو على الآنسة نيفيل بعض التفاصيل عن وفاة والده وذكر لها البراهين الأساسية التى تجمعت لديه فجعلته ينظر إلى أجوستينى كقاتل ثم أضاف الى ذلك قـوله :

— لم يستطع شئ أن يقنع كولومبا كما رأيت ذلك فى رسالتها الأخيرة وقد أقسمت على موت الباريتشينيين ، وأنت... ياآنسة نيفيل ترين إلى أى حد أنا واثق بك ، ومن الممكن أنه لولا أنها مقتنعة — بفضل أحد الأوهام التى تبررها تربيتها الوحشية — بأن تنفيذ الانتقام يختص بى بصفتى رئيسا للأسرة ، وبأن شرفى متعلق به لما كان أولئك القوم بعد من أهل هذا العالم .

— فى الحق ياسيد ديلاربيا أنت تثلب شقيقتك .

— كلا إنها كورسيكية ... ولقد أعلنت أنت نفسك ذلك ... إنها تفكر كما يفكرون جميعا . هل تعرفين لماذا كنت جد حزين أمس ؟

— لا ، ولكنك منذ وقت فريسة لأزمات مزاج أسود . . . لقد كنت أكثر ظرفا فى الأيام الأولى لمعرفتنا .

— بالعكس ، أنا كنت أمس أكثر مرحا وسعادة منى فى الأيام الأخرى ، إذ رأيتك خيرة مع شقيقتى وشفوقة عليها الى حد بعيد ! . . . لقد كنت أنا والكولونيل عائدين فى الزورق ، فهل تعرفين ماذا قال لى أحد المجذفين بلهجته الإقليمية الجهنمية : « لقد قتلت كثيرا من القنائص يا أورس أنتون ، لكنك ستجد أورلاندوشيو باريتشيني صيادا أعظم منك » .

— وإذاً فما هو الشئ الفظيع الى هذا الحد فى هذه الكلمات وهل أنت تدعى أنك صائد ماهر إلى هذه الدرجة ؟

— لكن ألا ترين إذاً ، أن هذا الشقى يريد أن يقول إننى لن أجد من الشجاعة ما أقتل به أورلاندوشيو ؟

— هل تعرف ياسيد ديلاربيا أنك ترعبنى ؟ يظهر أن هواء جزيرتكم لايسبب الحمى فحسب ، بل هو يصير الناس مجانين ، ومن حسن الحظ أننا سنغادرها عما قريب .

— ليس ذلك قبل أن تذهبى إلى بييترانيرا ، فقد وعدت شقيقتى بهذا .

— وإذا أخلفنا هذا الوعد فلا بد أننا ننتظر انتقاما .

— هل تذكرين ما كان السيد والدك يقصه علينا منذ أيام عن أولئك الهنود الذين يهددون رؤساء الشركة بأن يدعوا أنفسهم يموتون جوعا إذا لم يجيبوا سؤلهم ؟

— أمعنى هذا أنك ستترك نفسك تموت جوعا إذا لم أذهب ؟ إننى أشك فى ذلك . ستظل يوما بدون أكل ثم تحضر لك الآنسة كولومبا « بروشيو » [١] شهيا إلى حد أنك تتخلى عن مشروعك .

— أنت قاسية فى سخرياتك ياآنسة نيفيل ، ويجب أن تجامليني .انظرى إلىّ ، أنا وحيد هنا وليس لدى إلا أنت لتمنعينى من أن أصير مجنونا كما تقولين . لقد كنت ملاكى الحارس . والآن . . .

---

(١) البروشيو هو نوع من الجبن مطبوخ بالقشدة ، وهو طعام قومى فى كورسيكا .

فقاطعته الآنسة ليديا بلهجة جدية قائلة :

— والآن لكى تحتفظ بهذا العقل السهل الاضطراب ، لديك شرفك كرجل وكعسكرى. ثم استمرت تقول وقد التفتت لتقتطف زهرة : وأيضا — إذا كان ذلك يمكن أن يفيدك — لديك ذكرى ملاكك الحارس .

— آه ! ياآلسة نيفيل لو كنت أستطيع أن أتصور أنك تهتمين حقا بعض الشئ . . .

فقاطعته وهى متأثرة قليلا قائلة :

— اسمع ياسيد ديلاربيا ، مادمت طفلا ، فأنا سأعاملك كطفل ، حين كنت صغيرة أعطتنى والدتى عقدا جميلا كنت أصبو إليه فى شغف ، ولكنها قالت لى : « كل مرة تضعين فيها هذا العقد على جيدك تذكرى أنك لاتزالين تجهلين الفرنسية » . وعلى أثر ذلك فقد العقد فى نظرى شيئا من قيمته ، إذ أنه صار بالنسبة إلىّ نوعا من التأنيب ، ولكنى تحليت به وعرفت الفرنسية . والآن هل ترى هذا الخاتم ؟ إنه جعران مصرى وجد فى هرم ، وليس ذلك بالشئ الهين أو اليسير ، وهذا الوجه الغريب المرسوم عليه والذى قد تحسب أنت أنه زجاجة معناه : الحياة البشرية ، ويوجد فى بلادى قوم يرون أن هذا الهيروغليفى ينطبق على الحياة أشد الانطباق ، والرسم الذى بعد هذا هو رسم ترس وذراع يقبض على حربة ، ومعناه : النضال والمعركة . وإذاً ، فاجتماع هذين الحرفين يؤلف هذه الحكمة التى أرى أنها عظيمة بهيئة كافية ، وهى : إن الحياة معركة .

أوه ! لاتظن أنني أترجم الهيروغليفية فى سهولة ، وإنما أحد العلماء هو الذى شرح لى ذلك . هاك هذا الجعران . وحينما يستولى عليك بعض الأفكار الكورسيكية الرديئة انظر إلى طلسمي وقل لنفسك : ينبغي أن نخرج منتصرين من المعركة التى تقذف بنا إليها الأهواء الشريرة ، فى الحق أنا لا أعظ سيئا .

— سأفكر فيك ياآنسة نيفيل وسأقول لنفسى . . .

— قل لنفسك إن لك صديقة ستكون حزينة إذا علمت أنك شنقت .على أن ذلك سيحزن سادتى الكابورو اجدادك كثيرا .

وعلى أثر هذه الكلمة تخلصت من ذراع أورسو ضاحكة وهرولت نحو والدها وقالت له :

— ياوالدى دع هذه الطيور المسكينة وتعال معنا لنكون شعراء فى كهف نابليون .

٨

يوجد دائما شئ من الرسميات عند الرحيل حتى لو كان الفراق إلى أمد قصير ، ولما كان من المحتم على أورسو أن يسافر مع شقيقته فى الصباح الباكر ، فقد ودع الآنسة ليديا فى المساء ، لأنه لم يكن يؤمل أنها ستحدث لأجله استثناء فى عاداتها الكسولة . ولقد كانت توديعاتهما فاترة وجدية ؛ فمنذ محادثتهما على شاطئ البحر كانت الآنسة ليديا تخشى أن تكون قد غلت فى إظهارها الاهتمام بأورسو أكثر من اللازم ، وهو أيضا من

جانبه كان قلبه مثقلا بسخرياتها ولا سيا لهجتها العابثة ، وكان فى إحدى اللحظات قد حسب أنه تبين فى سلوك تلك الشابة الانجليزية عاطفة محبة بادئة ، ولكنه الآن — وقد حيره مزاحها — قد جعل يقول لنفسه إن علاقته بها ليست فى نظرها إلا معرفة بسيطة ستنسى عما قريب . وإذاً ، فلشد ما كانت دهشته عظيمة حينما كان فى الصباح جالسا يتناول القهوة مع الكولونيل فرأى الآنسة ليديا داخلة تتبعها شقيقته ، وكانت قد نهضت فى الساعة الخامسة ، وهذا بالنسبة إلى انجليزية ولاسيما الآنسة نيفيل مجهود عظيم إلى حد أنه استخلص منه شيئا من الاعتزاز بالنفس . وإذ ذاك قال لها :

— يؤلمنى أن تنزعجى فى هذا الصباح الباكر ، ولا ريب أن شقيقتى هى التى أيقظتك رغم توصياتى ولا بد أنك تلعنينا ، ولعلك تودين لو أنى كنت قد شنقت .

فأجابته الآنسة ليديا بصوت خافت ، وباللغة الإيتالية ، وجلى أن ذلك كان لكى لا يسمع والدها قائلة :

— كلا ، لكنك عبست فى وجهى أمس من أجل مزاحى البرىء ، ولم أكن أريد أن أدعك تحمل ذكرى سيئة من خادمتك . أى قوم فظعاء أنتم معاشر الكورسيكيين ، وداعا إذاً ، والى وقت قريب فيا أرجو .

نطقت بهذه العبارة ومدت إليه يدها ، فلم يجد أورسو جوابا غير التنهد ، وحينئذ اقتربت منه كولومبا واقتادته إلى جانب إحدى النوافذ وأطلعته على شئ كانت تخفيه تحت « المتزارو »

وتحدثت معه لحظة بصوت خافت . وعلى أثر ذلك قال أورسو للآنسة نيفيل :

— إن شقيقتي تريد أن تقدم إليك هدية غريبة ياآنسة ، لكن نحن كورسيكيون وليس لدينا شئ عظيم نهديه . . . ماعدا محبتنا التي لا يمحوها الزمن ، وشقيقتي تقول إنك نظرت بإمعان إلى هذا الخنجر ، وهو من آثار الأسرة . ومن المحتمل أن يكون قد علق في الزمن الغابر في حزام أحد الكابورو الذين أنا مدين لهم بشرف معرفتك ، وكولومبا تؤمن بأنه نفيس الى حد أن استأذنتني في تقديمه إليك ، وأنا لا أدري أأمنحها هذا الإذن أم لا ، لأنني أخشى أن تسخري منا .

— هذا الخنجر فاتن ، لكنه أحد أسلحة الأسرة فلا أستطيع أن أقبله .

غير أن كولومبا صاحت في حماس قائلة :

— ليس هذا خنجر والدي ، وإنما أهدي إلى أحد أجداد والدتي من لدن الملك تيودور ، فاذا قبلته الآنسة فانها تقدم إلينا سرورا .

فقال أورسو :

— انظري لاتستهيني بخنجر ملك ياآنسة ليديا .

ولما كان تراث الملك تيودور يعتبر في نظر الغاوي أنفس بكثير من تراث أقوى الملوك ، فقد قويت فتنة الآنسة ليديا وجعلت تتخيل الأثر الذي ينتجه هذا السلاح حين يكون موضوعا على إحدى المناضد في منزلها بسان جيمس بليس ،

فتناولت الخنجر فى تردد من يريد أن يقبل ، ثم قالت موجهة أعذب ابتساماتها الى كولومبا :

— لكن ياعزيزتى الآنسة كولومبا ... أنا لا أستطيع ... أنا لن أجرؤ على أن أدعك تسافرين مجردة من سلاحك .

فأجابت كولومبا بلهجة اعتزاز تقول :

— إن أخى معى ، ولدينا البندقية الجيدة التى أهداانا إياها والدك . أورسو ، أحشوتها بالرصاص ؟

احتفظت الآنسة نيفيل بالخنجر ، ولكى تمنع كولومبا الخطر الذى يتعرض له الإنسان حينما يهدى إلى أصدقائه سلاحا قاطعا أو ثاقبا قد طلبت قطعة من البرونز كثمن لهديتها .

وعندما حان موعد السفر ، ضغط أورسو للمرة الأخيرة على يد الآنسة نيفيل ، وقبلتها كولومبا ثم قبلت بشفتيها الورديتين الكولونيل الذى كان معجبا بالأدب الكورسيكى . وعلى أثر ذلك نظرت الآنسة ليديا من نافذة البهو فرأت الشقيقين يتهيآن لامتطاء جواديهما ، ولمحت عينى كولومبا تلمعان بسرور خبيث لم تكن قد لاحظته من قبل . إن هذه السيدة الطويلة القوية المتعصبة لآرائها فى الشرف البربرى — بالكبرياء التى ارتسمت على جبهتها ، والابتسامة الجهنمية التى حنت شفتيها ، وباقتيادها هذا الشاب مسلحا كأنه ذاهب الى حملة رهيبة — قد ذكرتها بفزع أورسو ، فحسبت أنها ترى شيطانه الشرير يقوده الى حتفه . وكان أورسو قد امتطى جواده ورفع رأسه فلمحها . وسواء أكان قد تنبأ بما يخالج نفسها أم قد أراد أن يودعها الوداع الاخير

فإنه أخذ الخاتم المصرى الذى كان قد علقه فى عنقه ووضعه على شفتيه ، فاحمر وجهها وعادت الى النافذة ثم لم تلبث أن استعادت حالتها الطبيعية ونظرت فشاهدت ذينك الكورسيكيين يبتعدان عدوا بجواديهما القصيرين متجهين نحو الجبال . وبعد نصف ساعة أراها الكولونيل إياهما بمنظاره يتبعان شاطىء الخليج ، فرأت أورسو يدير رأسه كثيرا نحو المدينة . وآخيرا اختفيا وراء البقاع الرطبة التى تحولت الآن إلى مغرس بديع ، وحينئذ نظرت الآنسة ليديا فى المرآة فرأت وجهها شاحب اللون فقالت لنفسها :

— ما عسى أن تكون فكرة هذا الشاب عنى ؟ وأنا ، ماهى فكرتى عنه ؟ ولماذا أفكر فيه ؟ إنها معرفة سفر ! . . . وماذا جئت أفعل فى كورسيكا ؟ . . . أوه ! أنا لا أحبه ألبتة ! . . . كلا كلا ، على أن هذا مستحيل ، وكولومبا . . . أنا أكون زوجة شقيق رثاءة تحمل خنجرا كبيرا ! (وإذ ذاك تنبهت إلى أنها تمسك بيدها خنجر الملك تيودور ، فقذفت به على منضدة زينتها) إننى أتخيل كولومبا فى لوندرا ترقص فى ألمكس ! . . . أى أسد [١] نظهره أيها الإله الأعظم ! . . . إنها قد تحرز نجاحا عظيما . . . إنه يحبنى ، أنا متأكدة من ذلك ، إنه بطل رواية وأنا التى قطعت عليه طريق حوادثه . . . لكن هل لديه حقا الرغبة فى أن ينتقم لوالده على الطريقة الكورسيكية ؟ . . . إنه كان وسطا

(١) كانت كلمة أسد فى ذلك العصر تطلق فى انجلترا على الشخص الذى يستحدث بدعة غير عادية تجعله حديث المجالس . (المترجم)

بين كونراد (١) ، والحضرى المتأنق ، وقد جعلته أنا أنيقا بحتا ولو أنه لايزال يرتدى ثوبا كورسيكيا .

وبعد هذا ألقت بنفسها على سريرها وحاولت أن تنام ولكن هيهات فذلك كان مستحيلا عليها . ولن أحاول أن أتابع حديثها النفسانى الذى قالت فيه أكثر من مائة مرة إن السيد ديلاربيا لم يكن قط ، وليس ، ولن يكون أبدا شيئا بالنسبة إليها .

٩

كان أورسو إبان ذلك يسير مع شقيقته ، وكانت حركة جواديهما السريعة أول الأمر تمنعهما من التحدث ولكن حينما اضطرهما الصعود القاسى إلى الإبطاء بدآ يتبادلان بضع كلمات عن الصديقين اللذين فارقاهما ، فطفقت كولومبا تتحدث بحماسة عن جمال الآنسة نيفيل وشعرها الذهبى وطرائقها الرقيقة ، وسألت عما عسى أن يكون عليه الكولونيل ، وهل هو ثرى إلى الحد الذى يظهر به ، وهل الآنسة ليديا هى ابنته الوحيدة . ثم قالت :

— لابد أن تكون تلك مصاهرة موفقة ، ويبدو لى أن عاطفة الصداقة التى لدى والدها نحوك موفورة . . .

ولما لم يجبها أورسو بشئ فقد استمرت تقول :

— إن أسرتنا كانت فيما مضى ثرية ، وهى الآن لاتزال من

---

(١) كونراد هو بطل قصيدة اللورد بيرون التى عنوانها «القرصان» وهو شخصية غامضة مفعمة بالحنق على المجتمع ، وحياته مليئة بالأحداث . (المترجم)

أكثر أسر الجزيرة اعتبارا ، فكل أولئك السينيورى (١) أبناء غير شرعيين ، ولا يوجد نبل إلا فى أسر الكابورو ، وأنت تعلم ياأورسو أنك تنحدر من أوائل كابورو الجزيرة ، وتعلم أن منشأ أسرتنا كان فيما وراء الجبل وأن الحروب المدنية هى التى اضطرتنا إلى أن ننزح إلى هذا الجانب . فلو كنت فى مكانك يا أورسو لما ترددت فى أن أطلب يد الآنسة نيفيل إلى والدها...

وعند ذلك هز أرسو كتفيه بينما تابعت قولها.

— ولا شتريت بـ « دوتها » غابة فالسيتّا والكروم القريبة من منزلنا ، ولبنيت دارا جميلة بالحجر المصقول ، ولشيدت طابقا آخر على البرج العتيق الذى طالما قتل فيه سامبوكتشيو كثيرا من العرب فى زمن الكونت أريجو بيل ميسيريه (٢) .

فقال أورسو وهو يعدو بجواده .

— كولومبا أنت مجنونة .

— أنت رجل يا أورس أنتون ، وتعرف بدون شك أكثر من

---

(١) السينيورى هى كلمة تطلق فى كورسيكا على الأفراد المنحدرين من نسل سادة الاقطاعيات وكانت الخصومة محتدمة دائما بين الكابورو وأولئك الاقطاعيين من أجل النبل ، إذ كان الاولون يرمون الأخيرين بحداثة الاسر ويتباهون عليهم بالعراقة رغم تفوقهم عليهم فى الثروة أحيانا. (المؤلف)

(٢) الكونت أريجو بيل ميسيريه هو أحد رؤساء كورسيكا ، وقد مات حوالى القرن العاشر ، ويقال إنه عند موته سمع الناس صوتا فى الفضاء يترنم بهذه النبوءة وهى : لقد مات الكونت أريجو بيل ميسيريه ، وستهوى كورسيكا بعد الآن فى التعاسة . (المؤلف)

السيدة ما عليك عمله ، ولكنى أود أن أعرف ما الذى يستطيع أن يعترض به ذلك الإنجليزى على مصاهرتنا . هل يوجد كابورو فى انجلترا ؟ . . .

وبعد رحلة طويلة وصل الشقيقان وهما يتحدثان على هذا النحو إلى قرية صغيرة ليست بعيدة عن بوكونيانو حيث نزلا فتعشيا وأمضيا الليل عند أحد أصدقاء أسرتهما فاستقبلا هناك بذلك الكرم الكورسيكى الذى لايستطيع الإنسان أن يقدره إلا إذا شاهده . وفى اليوم التالى رافقهما ضائفهما على بعد مرحلة من داره ، وفى لحظة افتراقهم قال لأورسو :

— هل ترى هذه الغابات ، هذه المالكى ، فاذا فعل الإنسان شؤما [1] فانه يستطيع أن يعيش فيها عشرة أعوام فى سلام دون أن يجىء رجال الشرطة أو الجنود ليبحثوا عنه . إن هذه الغابات تتصل بغابة فيزافونا العظيمة وحينما يكون للإنسان أصدقاء فى بوكونيانو أو فيما يحوطها لايعوزه شئ . إن معك بندقية جميلة ولا بد أنها تصيب على بعد ، أقسم بدم المادونا إن المرء يستطيع أن يقتل بهذه شيئا خيرا من الخنزير الوحشى . فقال أورسو بفتور إن بندقيته انجليزية ، وإنها تطلق الرش [2] على بعد ، ثم تعانقا وسلك كل طريقه .

---

(١) هذا تعبير كورسيكى ، معناه أخذ بالثأر فارتكب جريمة القتل . (المترجم)

(٢) أراد أورسو هنا بتصر بندقيته على إطلاق الرش استعمال الاسلوب الحكيم ، ليصرف ضائفه عن التلميح بالانتقام الى الحديث عن الصيد (المترجم)

ولما صار المسافران على بعد مسافة صغيرة من بييترانيرا لمحا — عند مدخل مضيق كان عليهما أن يجتازاه — سبعة رجال أو ثمانية مسلحين ؛ بعضهم جالس على الصخر ، والبعض نائم فى وسط الأعشاب، وبضعة منهم كانوا واقفين كأنهم يرتقبون. وكانت جيادهم ترعى الأعشاب على مقربة منهم ، فتأملتهم كولومبا لحظة بمنظار أخرجته من إحدى الحقائب الجلدية التى يحملها الكورسيكيون فى أسفارهم ثم صاحت بلهجة مرحة قائلة :

— إنهم رجالنا ! . . . وإن بييروتشيو قد قام بمهمته خير قيام .

فسألها أورسو قائلا :

— أى رجال ؟

— رعاتنا فأنا قد بعثت أول أمس مساء بييروتشيو لكى يجمع هؤلاء الرجال الشجعان حتى يرافقوك الى منزلك ، فليس من الملائم أن تدخل بييترانيرا بدون موكب . وفوق ذلك فيجب أن تعرف أن الباريتشينيين قادرون على كل شئ .

فأجابها أورسو بلهجه قاسية قائلا :

كولومبا ، لقد رجوتك عدة مرات ألا تحدثينى بعد عن الباريتشينيين ولا عن شكوكك التى لا أساس لها ، وأنا لن أصير نفسى مضحكا بأن أعود إلى منزلى مع هذه الشرذمة من العاطلين ، وإنى لمتألم من جمعك إياهم دون أن تنبئينى بذلك .

فقالت :

— شقيقى ، لقد نسيت بلادك ، وإنه علىّ أنا وحدى تقع

تبعة حفظك حينما يعرضك عدم تبصرك للخطر، ولقد كان الواجب يقضى علىّ أن أفعل مافعلت .

وفى هذه اللحظة لمحها الرعاة فأسرعو إلى جيادهم. وجاءوا يعدون لمقابلتهما ، وإذ ذاك تقدم شيخ قوى ذو لحية بيضاء متزمل — رغم الحرارة — برداء من جوخ كورسيكى أسمك من فرو معزه وصاح قائلا :

— ليحى أورس أنتون ! إنه لصورة حقيقية لوالده ، وكل ما بينهما من فرق هو أنه أطول وأقوى منه . ما أجمل هذه البندقية ! إن الناس سيتحدثون عنها فيما بعد يا أورس أنتون .

ثم صاح كل الرعاة هاتفين كأنهم جوقة :

— ليحى أورس أنتون ! لقد كنا نعرف من قبل أنه سيعود فى النهاية .

ثم تقدم نحوه رجل ضخم طويل قوى وقال له :

— آه ! ياأورس أنتون كم كان والدك يكون سعيدا لو أنه هنا ليستقبلك ! ذلك الرجل العزيز ، لو أنه صدقنى وتركنى أنظم مسألة جيوديتشيه . . . لرأيته بيننا الساعة ، ذلك الرجل الشجاع ، إنه لم يصدقنى حين ذاك ولكنه الآن يعرف أننى كنت محقا .

ثم استأنف الشيخ يقول :

— إن جيوديتشيه لن يفقد بانتظاره شيئا ذا قيمة .

وعلى أثر ذلك صاحوا جميعا هاتفين وقد رافق هتافهم نحو اثنتى عشرة طلقة .

— ليحى أورس أنتون .

وفى وسط هذا الجمع من الرجال المتطين الجياد والمتحدثين كلهم فى آن واحد ، والمتزاحمين على مصافحة أورسو ظل منقبض المزاج وبقى زمنا دون أن يستطيع إسماعهم صوته . ثم بدت عليه الملامح التى كان يظهرها أمام جنوده حين كان يوزع عليهم التأنيبات والعقوبات وقال لهم :

— ياأصدقائى أنا أشكركم على المحبة التى تبدونها لى والتى كنتم تحملونها لوالدى ، ولكنى أرغب ، بل أريد ألا يتقدم إلىّ أحد بنصيحة ، فأنا أعرف ما يجب علىّ عمله .

فصاح الرعاة قائلين :

— إنه محق ، إنه محق ، أنت تعلم علم اليقين أنك تستطيع الاعتماد علينا .

— نعم أنا أعتمد عليكم ، ولكنى غير محتاج إلى أحد الآن ، وليس هناك أى خطر يهدد منزلى ، فعودوا إلى معزكم إذ أنا أعرف طريق بيترانيرا ، ولست فى حاجة إلى مرشد .

وإذ ذاك قال له الشيخ :

— لا تخش شيئا ياأورس أنتون ، فهم لا يجرؤون على أن يظهروا فى هذا اليوم لأن الجرذ يختفى فى جحره حينما يظهر السنور .

فقال أورسو :

— أنت السنور أيها العجوز ذو اللحية البيضاء ، ما اسمك ؟

— ماذا ؟ أ أنت لاتعرفنى ياأورس أنتون ؟ أنا الذى طالما

حملتك ورائى على بغلى العضاض ، ألا تعرف بولُّو جريفُّو ؟ إنه لرجل شهم ، وهو لأسرة ديلاربيا جسما وروحا . قل كلمة واحدة ، وحينما ستتكلم بندقيتك الضخمة ، فإن بندقيتى العجوز كصاحبها لن تصمت . اعتمد على ذلك يا أورس أنتون .

— حسن حسن ، ولكن باسم كل الشياطين انصرفوا جميعا ودعونا نُتم طريقنا .

وأخيرا ابتعد الرعاة مسرعين نحو القرية ، ولكنهم كانوا من حين إلى حين يقفون عند كل مرتقع من الطريق كما لو كانوا ينقبون عن كمين ، وكانوا دائما على مقربة من أورسو وشقيقته ، ليسعفوهما بالمساعدة فى وقت الحاجة، وكان الشيخ بولُّو جريفّو يقول لرفاقه .

— أنا أفهمه ! أنا أفهمه ! إنه لا يقول ما سيفعل ، ولكنه سيفعل ، إنه صورة حقيقية لوالده ، هذا حسن . قل إنك لا تحقد على أحد وإنك نذرت نذرا للقديسة نيجا [1] . مرحى مرحى لكنى أنا لن أضمن جلد العمدة مقابل تينة واحدة ، إذ قبل مضى شهر لن يستطيع أحد أن يصنع منه قربة .

دخل ذلك المنحدر من دماء ديلاربيا قريته تتقدمه تلك الطليعة الكاشفة واتجه إلى قصر الكابورو العتيق ، فهب أفراد أسرته الذين كانوا منذ وقت طويل محرومين من رئيسهم وتجمعوا لملاقاته ، وكذلك سكان القرية المحايدون قد خرجوا ووقفوا على

---

(١) لا توجد فى قائمة القديسين قديسة بهذا الاسم ، وإنما نيجا رمز للنفى . ويطلق هذا التعبير على من اعتزم إنكار شىء . (المترجم)

عتبات دورهم ليروه مارا ، أما الباريتشينيون فقد كانوا فى داخل منازلهم ينظرون إليه من وراء مصاريع نوافذهم .

كانت قرية بيترانيرا مبينة على غير نظام ككل قرى كورسيكا التى لكى يرى المرء فيها شارعا معتدلا ينبغى أن يسير إلى كارجيزى التى أسسها السيد دى ماربوف . فمنازلها المنتثرة هنا وهناك دون اتباع أى خط مستقيم تشغل قمة تل صغير يقع فى أسفل الجبل . وفى وسط القرية توجد سنديانة ضخمة خضراء ، وعلى مقربة منها حوض من حجر الصوان تصب فيه الماء أنبوبة خشبية تحمله إليه من نبع مجاور ، وكان هذا الحوض قد بنى للصالح العام على نفقة الديلاريبين والباريتشينيين ، ولكن ينخدع المرء إذا ألفى فى بنائه برهانا على وفاق قديم بين الأسرتين ، إذ أنه كان على العكس ثمرة غيرتهما ، ففى زمن مضى بعث الكولونيل ديلاريبا مبلغا صغيرا الى مجلس القرية للمساهمة فى بناء حوض ، وحين ذاك بادر المحامى باريتشينى إلى دفع مبلغ مساو لمبلغ الكولونيل ، فكانت قرية بيترانيرا مدينة بمائها لهذه المعركة السخية . يوجد حول هذه السنديانة الخضراء موضع خال يدعى بالميدان يجتمع فيه جميع العاطلين فى المساء ، وأحيانا يلعبون فيه الورق ، وفى كل عام يقيمون فيه حفلة رقص بمناسبة عيد «الكارنافال» . وفى طرفى هذا الميدان ينتصب بناءان شامخان من الصوان ، وهما البرجان المتعاديان اللذان أحدهما لديلاريبا والآخر لباريشينى ، وهما متماثلان فى الصورة ،

متعادلان فى الارتفاع . وفيهما يرى الإنسان خصومة الأسرتين ممثلة دون أن ينحاز الحظ إلى جانب إحداهما .

وقد يكون من المناسب أن نوضح هنا ما ذا يراد بكلمة برج وهو بناء مربع على ارتفاع أربعين قدما بحيث لو وجد فى بلد آخر لاعتبر من أبراج الحمام ، و بابه الضيق يفتح على ارتفاع ثمانية أقدام من الأرض ويتوصل إليه بسلم مستقيم ، وفوق الباب توجد نافذة متصلة بطنف فتح فى أرضه ثقب يُمَكِّنُ المتربِّصَ فيه بلا مخاطرة من ضرب الرائد الفضولى ، وبين الباب والنافذة يرى المرأء أسطوانتين حجريتين عليهما رسوم جافة ، وكانت إحداها فى الماضى تحمل شعار جينوا ولكنه شُوِّهَ حتى أصبح اليوم لا يفهمه إلا الأثريون ، وعلى الأخرى قد رسم شعار الأسرة التى تملك البرج ، ولكى تتم هذه الحلية أضف إليها بضعة آثار للرصاص على الأسطوانتين وفى أخشاب النافذة ؛ وبهذا كله تستطيع أن تكَوِّن لك فكرة عن القصر الكورسيكى فى العصور الوسطى . ولقد نسيت أن أقول لك إن بناء المسكن يلامس البرج و إنهما فى الغالب يتصلان من الداخل

كان برج ديلاربيا ومنزله يشغلان الجانب الشمالى من الميدان ، وبرج الباريتشينيين ومنزلهم يشغلان الجانب الجنوبى منه ، وكان الفضاء من البرج الشمالى إلى الحوض متنزه الديلاريبيين كما كان الجانب المقابل للباريتشينيين . ومنذ حادثة دفن زوجة الكولونيل لم ير إنسان قط أحد أفراد كل

من الأسرتين يظهر فى جانب آخر من الميدان غير الذى كان محدداً لأسرته بنوع من الاتفاق الصامت .

غير أن أورسو لكى يتجنب دورة طويلة أراد أن يمر أمام بيت العمدة ، ولكن شقيقته أنذرته ونصحت له أن يسلك طريقاً ضيقاً ينتهى إلى منزلهم دون اجتياز الميدان فأجابها قائلا :

— لماذا يزعج المرء نفسه ؟ أو ليس الميدان للجميع ؟

وعلى أثر نطقه بهذه العبارة دفع جواده إلى الأمام ، فقالت كولومبا فى نفسها :

— يا له من قلب شهم ! . . . يا والدى إنه سينتقم لك.

ولما وصلا إلى الميدان كانت تسير بين منزل باريتشينى و بين شقيقها ، وعيناها دائما محدقتان إلى نوافذ أعدائها فلاحظت أنهم وضعوا خلف نوافذهم المتاريس والحواجز منذ وقت قريب ثم ثقبوا فتحات صغيرة بين قطع الخشب الضخمة السميكة التى حشوا بها أسفل النوافذ . وحين يخشى الانسان مهاجمة يسلك هذه الخطة فيستطيع أن يحتمى وراء المتاريس و يطلق الرصاص من تلك الفتحات على المهاجمين . وعند ذلك قالت :

— يا لهم من جبناء . انظر ياشقيقى إنهم بدءوا يحتمون ويضعون الحواجز ، ولكن ينبغى أن يخرجوا يوما .

أحدث مرور أورسو فى الجانب الجنوبى من الميدان أثراً عظيما فى بييترانيرا واعتبر برهانا على الجرأة التى تقرب من حدود التهور . وفى المساء كان ذلك الحادث للمحايدين المجتمعين حول السنديانة موضوع تأويلات لا تنتهى إذ كان يقال :

— إنه من حسن الحظ أن ابنى باريتشينى لم يجيئا بعد ، لأنهما أقل صبرا من والدهما ، ومن الممكن أنهما لو كانا هنا لما تركا عدوهما يمر من أرضهما دون أن يدفع ثمن تحديه غاليا .

وحينئذ أضاف شيخ كان يعتبر متنبىء القرية إلى ما تقدم قوله :

— تذكروا ما قلته لكم ياجيرانى لقد تأملت فى وجه كولومبا اليوم ، فأيقنت بأن فى رأسها شيئاً . أنا أشم رائحة البارود فى الهواء ، وفى غضون وقت قصير سيكون فى بييترانيرا لحم مجزرة رخيص .

١٠

لما كان أورسو قد فارق والده فى طليعة شبابه فلم يكن لديه من الوقت ما يمكنه من معرفته معرفة جيدة ، إذ كان قد ترك بييترانيرا فى الخامسة عشرة ليدرس فى بيزا ومن هناك التحق بالكلية الحربية أثناء كان الكولونيل يطوف فى أوروبا بالنسور الأمبراطورية ، ولم يره أورسو إبان ذلك إلا فى فرص نادرة . وفى سنة ١٨١٥ فقط التحق باحدى الكتائب التى كان والده يقودها ، ولكن الكولونيل الذى لم يكن يلين بازاء القوانين العسكرية كان يعامل ابنه ككل الضباط الشبان بكثير من القسوة . ولهذا كانت الذكريات التى احتفظ بها أورسو لوالده من نوعين : الأول حين كان فى بييترانيرا يكل إليه رمحه ويدعه يفرغ بندقيته على أثر عودته من الصيد ، أو يجلسه للمرة الأولى وهو طفل على مائدة الأسرة . والثانى عند ما يتمثل

الكولونيل يعاقبه على بعض السهو ويدعوه دائما بالملازم ديلاربيا ويقول له مثلا :

— يا ملازم ديلاربيا أنت لست فى مكانك من المعركة ، فأنت معاقب ثلاثة أيام ، أو إن رماتك على بعد خمس خطوات من بقية الكتيبة ، فأنت معاقب خمسة أيام . أو إنك لا تزال — والدقيقة الخامسة بعد الساعة الثانية عشرة — مرتديا ملابس الصباح ، فأنت معاقب ثمانية أيام .

ولم يَدْعُهُ باسمه إلا مرة واحدة فقط فى موقعة واتيرلو إذ قال له :

— هذا حسن جداً يا أورسو ، ولكن ليكن لديك شئ من التبصر .

على أن هذا النوع الأخير من الذكريات ليس هو الذى كان يتمثل له فى بييترانيرا وإنما منظر المواضع المألوفة له منذ طفولته والأثاث الذى طالما استعملته والدته التى كان يحبها بحنان هما اللذان كانا يثيران فى نفسه عدداً من الانفعالات العذبة والشاقة . وإلى جانب ذلك كان المستقبل المظلم الذى يُعَدُّ له والقلق الغامض الذى توحى به إليه شقيقته ، وفوق كل هذا فكرة أن الآنسة نيفيل ستجيء إلى منزله الذى يبدو له اليوم صغيراً ، فقيراً ، غير لائق بانسان متعود على الترف ، والاحتقار الذى قد يقذف فى نفسها ، كل هذه الأفكار كانت تؤلف فى رأسه مزيجاً مبهما وتوحى إليه يأساً عميقاً .

ومهما يكن من الأمر فقد جلس ليتعشى على مقعد ضخم

من السنديان حيث كان والده يجلس ليرأس مائدة الأسرة ، ثم ابتسم عند مارأى كولومبا تتردد فى أن تجلس معه إلى الخوان .

على أنه قد حفظ لها جميل الصمت الذى اعتصمت به أثناء العشاء والانسحاب السريع الذى قامت به على أثر ذلك ، إذ أنه كان يشعر بالانفعال إلى حد يجعله غير قادر على مقاومة المهاجمات التى كانت تعدها له بلا ريب . ولكن كولومبا جاملته فتركت له الوقت الكافى لاسترداد حالته الطبيعية .
ولما انفرد بنفسه سند رأسه بيده وظل جامداً وقتاً طويلا، وقد أمرَّ فى خاطره مناظر الخمسة عشر يوماً الأخيرة. وكان ينظر فى فزع إلى هذا الارتقاب الذى كان يبدو على كل واحد ممن حوله بازاء سلوكه مع الباريتشينيين ، وقد أخذ يلمح فى نفسه أن رأى أهل بييترانيرا قد بدأ يكون بالنسبة إليه هو المبدأ العام ، أى أنه يجب عليه أن ينتقم لنفسه ، وإلا لدعى بالجبان ، ولكن ممن ينتقم؟ وهو لم يكن يستطيع أن يصدق أن الباريتشينيين هم قتلة والده . فى الحق أنهم أعداء أسرته ولكن لم يكن لديه من الآيات — لكى يعزو إليهم جريمة القتل — إلا أوهام مواطنيه الفظة . كان أحياناً ينظر إلى طلسم الآنسة نيفيل ويردد فى صوت خافت تلك الحكمة المنقوشة عليه : « الحياة معركة ! » وأخيراً قال فى نفسه بلهجة حازمة : « سأخرج من ذلك منتصراً ! » وعلى أثر هذه الفكرة المتفائلة نهض وتناول المصباح وهم بالصعود إلى غرفته ، وإنه لعلى هذه الحال إذ طرق طارق باب المنزل رغم أن الساعة لم تكن ملائمة

لاستقبال زائر . وعنـد ذلك بدت كولومبا تتبعها خادمتها فأسرعت نحو الباب وهى تقول :

— ليس هذا شيئاً مزعجاً .

ومع ذلك فقبل أن تفتح سألت : من الطارق ؟ فأجابها صوت عذب قائلا : أنا .

وحينئذ رفع الحاجز الخشبى الذى كان موضوعاً فى الداخل وفتح الباب وعادت كولومبا إلى حجرة المائدة تتبعها صبية فى العاشرة من عمرها تقريباً حافية القدمين ، مهلهلة الثياب ، وعلى رأسها منديل قبيح تنفلت من تحته خصل طويلة من شعر أسود تشبه جناح الغراب . كانت تلك الطفلة نحيلة شاحبة محترقة البشرة من حرارة الشمس ، ولـكن لهيب الذكاء كان يلمع فى عينيهـا . فلما رأت أورسو ، وقفت بحياء وانحنت أمامه انحناءة إجلال على الطريقة الريفية ، ثم تحدثت بصوت خافت مع كولومبا وقدمت إليها ديكا بريا حديث الصيد فقالت لها :

— شكراً ياشيلى ، اشكرى عمك . هل صحته جيدة ؟

— جيدة جداً يا آنسة ، وهو فى خدمتك . أنا لم أستطع أن أجيء قبل ذلك ، لأنه لم يأت إلا متأخراً ، ولقد مكثت فى الغابة ثلاث ساعات فى انتظاره .

— أو لم تتعشى ؟

— لا يا آنسة ، لم يكن لدى وقت .

— ستعطين عشاءك ، هل لا يزال لدى عمك خبز ؟

— قليل يا آنسة ، ولـكن البارود على الأخص هو الذى

يعوزه ، لأن وقت الكستناء قد حل فلم يعد الآن فى حاجة إلا إلى البارود .

— سأعطيك خبزاً له وباروداً ، ولكن قولى له أن يقتصد فيه لأنه غال .

وحينئذ قال لها أورسو بالفرنسية :

— كولومبا من هذا الذى تحسنين إليه ؟

فأجابته بنفس اللغة :

— إنه طريد مسكين من القرية ، وهذه الصغيرة هى ابنة أخيه .

— يخيل إلى أنك تستطيعين أن تستعملى نعَمَك خيراً من هذا الاستعمال . فلماذا ترسلين بارودا إلى شرير يستخدمه فى اقتراف الجرائم ، ولولا هذا الضعف الأسيف الذى هو هنا — فيما يظهر — لدى الجميع نحو الأشرار لكانوا قد اختفوا من كورسيكا منذ زمن بعيد .

— إن أشرار بلادنا ليسوا هم الطرداء فى الغابات .

— إمنحيهم خبزاً إذا أردت ، فيجب ألا يمنع الخبز عن احد ، ولكنى لا أريد أن تُقَدَّم إليهم ذخائر .

فقالت كولومبا بلهجة جدية :

— شقيقى أنت السيد هنا ، وكل شئ فى هذا المنزل ملكك ، ولكنى أنذرك أننى سأفضل أن أعطى هذه الصبية غطاء رأسى لتبيعه على أن أمنع البارود عن طريد ، أمنع عنه البارود ! هذا يوازى تسليمه إلى الشرطة. وأية حماية لديهم إذا لم يكن الرصاص ؟

ولقد كانت الطفلة فى هـذه الأثناء تلتهم قطعة من الخبز وتنظر بانتباه إلى كولومبا وشقيقها ، كل بدوره ، باحثة فى أعينهما عن التكهن بما يقولانه وحين ذاك سأل أورسو :

— وأخيراً ما ذا فعل شقيك ؟ ولأية جريمة ألقى بنفسه فى الغابة ؟

فصاحت كولومبا قائلة :

— إن براندولاتشيو لم يقترف جرائم ، و إنما هو قتل جيوفان أوبيزو إلذى كان قد قتل والده حين كان هو فى الجيش .

وعند ذلك أدار أورسو رأسه وتناول المصباح وصعد إلى غرفته دون أن ينبس ببنت شفـة ، وآنئـذ أعطت كولومبـا الطفلة بارودا وطعاما واقتادتهـا إلى الباب وهى تعيد عليها قولها :

— ليسهر عمك سهرا تاما على حياة أورسو بنوع خاص .

١١

أمضى أورسو هزيعا كبيراً من الليل قبـل أن ينـام ، وبالتالى استيقظ متـأخراً بالنسـبة إلى كورسيكى على الأقل . ولم يكد يستيقظ حتى كان الشيء الأول الذى وقعت عليه عينـاه هو منزل أعدائه ، والفتحات الصغيرة التى أحدثوها فى الحواجز ، وعلى أثر ذلك نزل وسأل عن شقيقته فأجابته الخادمة سافيريا بقولها :

— إنها فى المطبخ تعد رصاصا .

وعلى هذا النحو لم يكن يستطيع أن يخطو خطوة دون أن يتعقبه شبح الحرب . ولما دخل المطبخ ألفى كولومبا جالسة على مقعد صغير وحولها رصاص حديث الإعداد فقال لها :

— يا للشيطان ؟ ما ذا تصنعين هنا !

فأجابته بصوتها العذب قائلة :

— لم يكن عندك رصاص لبندقية الكولونيل ، وقد وجدت قالبا على هذا المقياس ، فسيكون لديك اليوم أربع وعشرون طلقة يا شقيقى .

— لست فى حاجة إلى ذلك والحمد لله .

— لا ينبغى أن يؤخذ المرء على غرة وهو فى حالة احتياج ياأورس أنتون . إنك قد نسيت بلادك والناس الذين يحوطونك .

— إذا كنت قد نسيتهم فأنت تذكريننى بهم سريعا . قولى لى : ألم تصل حقيبة ضخمة باسمى منذ بضعة أيام !

— بلى ياشقيقى ، فهل ينبغى أن أصعدها إلى غرفتك !

— أأنت تصعدينها ! إنك لو حاولت رفعها لما كان لديك من القوة ما يساعدك على ذلك . . . ألا يوجد هنا رجال يستطيعون أن يصعدوها ؟

— أنا لست ضعيفة إلى الحد الذى تظنه .

نطقت كولومبا بهذه العبارة وهى تشمر عن ساعدها وتكشف عن ذراع أبيض مستدير كامل التكوين ، ولكنه ينم عن قوة غير عادية وهتفت بالخادمة قائلة :

— هلم ياسافيريا أعينيني .

وحينما أسرع أورسو إلى مساعدتها كانت قد رفعت الحقيبة الثقيلة وحدها ، وعلى أثر ذلك قال لها :

— ياعزيزتي كولومبا إنه يوجد في هذه الحقيبة شيء لك ، وأنت تعذرينني إذا كنت قد أحضرت إليك هذه الهدية المتواضعة ، لأن كيس الملازم الذي في الاستيداع ليس مليئاً بالمال تماماً .

وفي أثناء حديثه فتح الحقيبة وأخرج منها بضعة ثياب وشالا وأشياء أخرى مما تستعمله الشابات ، فصاحت كولومبا قائلة :

— ما أجمل هذه الأشياء ! سأحفظها سريعاً خشية أن يصيبها تلف ، وسأستبقيها لعرسي ، لأنني الآن في حداد .

ثم قبلت يد شقيقها وعلى فمها ابتسامة حزينة .

— إن في الاحتفاظ بالحداد وقتا طويلا إلى هذا الحد شيئا من التصنع ياشقيقتي .

فقالت كولومبا بلهجة حازمة :

— لقد أقسمت ألا أترك الحداد إلا . . .

ثم نظرت من النافذة إلى منزل باريتشيني ، فقاطعها أورسو محاولا أن يجنبها إتمام عبارتها بقوله :

— إلا في اليوم الذي تتزوجين فيه ؟

فقالت وكانت لاتزال تنظر إلى منزل الأعداء وعليها ملامح مأساوية :

— أنا لن أتزوج إلا برجل يكون قد حقق ثلاثة أشياء ...

— يدهشنى أن لم تتزوجى إلى الآن مع ما أنت عليه من الجمال يا كولومبا . هلم إنك ستنبئينى باسم من يخطب ودك . على أنى سأستمع الى «السيريناد»(١) بانتباه ، وينبغى أن تكون بديعة لتروق رثاءة عظيمة مثلك .

— ومن الذى يرغب فى يتيمة فقيرة ؟ . . . ثم إن الرجل الذى سيجعلنى أترك الحداد يجب أن يحمله الى نساء ذلك المنزل.

فقال أورسو فى نفسه : لقد صار ذلك جنونا . ولكنه لم يجبها بشئ تجنبا للمناقشة .

غير أن كولومبا استأنفت تقول فى لهجة دلال :

— شقيقى ، وأنا أيضا لدى شئ أريد أن أقدمه إليك . إن الملابس التى عليك جميلة أكثر من اللازم فى هذه البلاد وإن ريدانجوتك الأنيقة ستصير قطعا فى يومين إذا لبستها فى الغابة ، وينبغى أن تحتفظ بها إلى أن تجئ الآنسة نيفيل .

ثم فتحت إحدى خزائن الثياب وأخرجت منها ملابس صياد كاملة واستمرت تقول :

— لقد صنعت لك سترة من قطيفة ، وهاهى ذى قبعة من النوع الذى يستعمله رشقاؤنا نسجتها لك منذ أمد بعيد . هل تريد أن تجرب هذه الملابس ؟

ثم البسته سترة عريضة من قطيفة خضراء ، وفى ظهرها

---

(١) السيريناد هى أناشيد غرام كان الشبان فيما مضى ينشدونها ليلا تحت نوافذ معشوقاتهم إبداء لعواطفهم ليختار أولياء الفتيات من بينهم أزواجا لبناتهم . (المترجم)

جيب متسع ، ووضعت على رأسه قبعة مدببة من قطيفة سوداء موشاة بخرز أسود ثم قالت له :

— هذه هي جعبة رصاص والدنا ، أما خنجره ففى جيب سترتك ، وسأبحث لك عن الغدارة .

فقال أورسو وهو ينظر فى مرآة صغيرة قدمتها اليه سافيريا :

— إن علىّ ملامح قاطع طريق حقيقى كأولئك الذين يراهم النظارة على مسارح باريس الهزلية .

فقالت الخادم العجوز :

— إن مظهرك جميل جدا على هذا النحو ياأورس أنتون ، وإن أرشق رجال مدينتى بوكونيانو وباستيليكا ليسوا خيرا منك .

ولقد تغدى أورسو فى كسائه الجديد ، وفى أثناء تناول الطعام قال لشقيقته إن حقيبته تحتوى على عدد من الكتب ، وإن نيته متجهة إلى استيراد كتب أخرى من فرنسا وإيتاليا ، والى حملها على الدراسة كثيرا . ثم أضاف إلى ذلك قوله :

— لأنه من الخجل يا كولومبا أن فتاة كبيرة مثلك لا تعرف إلى الآن أشياء يعرفها الأطفال فى القارة عند تجاوزهم سن الرضاع .

— أنت محق يا شقيقى ، وأنا أعرف ما ينقصنى معرفة تامة ، وليس شئ أحب إلى نفسى من الدراسة ولا سيما إذا أعطيتنى أنت دروساً .

مضت عدة أيام دون أن تنطق كولومبا باسم الباريتشينيين ، وكانت دائماً معتنية بشقيقها حتى فى أصغر الشؤون ، وكانت

تحدثه عن الآنسة نيفيل ، وكان هو يقرئها مؤلفات فرنسية وإيتالية ، فكان يدهش حيناً من دقة ملاحظتها ورجاحتها ، وحينا من جهلها العميق بأكثر الأشياء عامية . وفى صباح أحد الأيام بعد الإفطار خرجت كولومبا من حجرة المائدة ، وبدل أن تعود بكتاب وأوراق بدت وعلى رأسها المتزارو وكان مظهرها أكثر جدية منه فى الأوقات العادية ثم قالت له :

— شقيقى ، أنا أرجوك أن تخرج معى .

فقال لها أورسو وهو يقدم لها ذراعه :

— وإلى أين تريدين أن أرافقك ؟

فقالت :

— أنا لست فى حاجة إلى ذراعك يا شقيقى ، لكن خذ بندقيتك وعلبة رصاصك ، إذ يجب ألا يخرج الرجل بدون سلاح .

فقال أورسو متهكماً :

— حسن . ينبغى أن يصوغ المرء نفسه حسب كل حداثة ، وإلى أين نذهب ؟

ولكن كولومبا دون أن تجاوب أحاطت رأسها بالميزارو ودعت كلب الحراسة وخرجت يتبعها شقيقها ، وجعلت تسير بخطوات واسعة ، ولما ابتعدت عن القرية سلكت طريقاً ملتوياً بين الكروم بعد أن بعثت أمامها الكلب الذى أشارت إليه إشارة كان كأنه يعرفها معرفة جيدة ، إذ لم يلبث أن شرع يجرى بين الأشجار تارة فى جانب وتارة فى آخر ، لكنه دائماً على بعد خمسين خطوة من سيدته ، وأحياناً كان يقف فى وسط

الطريق ، لينظر إليها وهو يحرك ذنبه ، فيبدو عليه أنه يؤدى على الكمال وظيفته ككشاف ، وحين ذاك قالت كولومبا لشقيقها :

— إذا نبح موسكيتو فاحْشُ بندقيتك ياشقيقى وقف ساكنا .

وعلى نصف ميل من القرية ، وبعد كثير من الدوران وقفت كولومبا فجأة فى إحدى زوايا الطريق ، وكان هناك هرم صغير مؤلف من غصون بعضها أخضر ، والبعض الآخر يابس ، وفى قمته ، أى على ارتفاع ثلاثة أقدام تقريباً ، كان المرء يرى الطرف الأعلى لصليب ناتىء مدهون باللون الأسود . وفى عدة جهات من كورسيكا وعلى الأخص فى الجبال يوجد تقليد جد قديم — وقد يكون متصلا بخرافة وثنية — يحتم على كل مارّ أن يلقى حجراً أو غصن شجرة على الموضع الذى مات فيه رجل موتاً عنيفاً . وفى مدى أعوام طويلة وبقدر ما تبقى ذكرى خاتمته المأساوية فى رءوس الناس تستمر هذه القرابين الغريبة تتراكم ، ويدعى ذلك بـ « موكيو » فلان :

فوقفت كولومبا أمام هذه الكتلة من الأغصان ثم نزعت غصنا من شجرة وألقته على الهرم وهى تقول :

— يا أورسو ، هنا مات والدنا ، فلنصل على روحه يا شقيقى .

ثم ركعت على ركبتها وحاكاها شقيقها ، وفى هذه اللحظة دق ناقوس الكنيسة ببطء لأن رجلا كان قد مات فى الليل ،

ففاضت العبرات من عينى أورسو ، وبعـد بضع دقائق نهضت كولومبا وعيناها جامدتان ، ولكن وجهها منتعش ، ثم أشارت على عجل بإبهامها إشارة الصليب المألوفة لدى مواطنيها والتى ترافق عادة مواثيقهم الجدية ، ثم جذبت شقيقها فسلكا معاً طريق القرية وعادا صامتين إلى منزلهما ، فصعد أورسو إلى غرفته . وبعد لحظة تبعته كولومبا حاملة صندوقا صغيرا فوضعته على المنضدة ثم فتحته وأخرجت منه قميصا ملوثا بالدماء ثم قالت وهى تلقى به على ركبتى شقيقها :

— هاهو ذا قميص والدك ياأورسو ، وهاهو ذا الرصاص الذى أصابه .

ثم وضعت فوق القميص رصاصتين صدئتين ثم ألقت بنفسها بين ذراعيه وضغطت عليه بقوة وصاحت قائلة :

— أورسو ، شقيقى ! ستنتقم له !

ثم قبلته بهياج وقبلت الرصاصتين والقميص وخرجت من الغرفة تاركة شقيقها متحجرا فى كرسيه .

ظل أورسو ردحا من الزمن جامدا لايجرؤ على أن يبعد من خاطره هذه الذكريات المرعبة ، وأخيرا أجهد نفسه وأعادها إلى الصندوق ثم جرى إلى الجانب الآخر من الغرفة والقى بنفسه على سريره وأداز وجهه نحو الحائط وأخفاه فى الوسادة كأنه يريد أن يفر من منظر شبح ، وكانت كلمات شقيقته الأخيرة ترن بدون انقطاع فى أذنيه ، وكان يخيل إليه أنه يسمع نبوءة مشئومة غير قابلة للتجنب تطلب منه دما ، ودما بريئا .

أنا لن أحاول أن أرسم أحاسيس هذا الشاب المختلطة التى كانت تشبه مايحتل رأس المجنون فتحدث فيه اضطرابا . ومهما يكن من شئ فقد ظل وقتا طويلا على هذه الهيئة دون أن يجرؤ على أن يدير رأسه ، وأخيرا نهض فأغلق الصندوق وخرج مسرعا من المنزل وجعل يذرع الحقول من غير أن يعرف إلى أين يذهب ، وبعد قليل لطف الهواء الطلق بعض مابه ، فصار أكثر هدوءا ثم جعل يتأمل باعتدال موقفه ووسائل الخروج منه ، فنحن نعرف من قبل أنه لم يكن يتهم الباريتشينيين بالقتل ، ولكنه كان يتهمهم بتزوير كتاب الشقى أجوستينى . ولما كان هذا الكتاب — فيما يظن على الأقل — هو الذى تسبب فى قتل والده ، فقد أخذ يسائل نفسه : أيتعقبهم كمزورين ؟ ولكنه كان يشعر أن ذلك مستحيل . وفى بعض الأحيان — عندما كانت أوهام بلاده وغرائزها تستولى عليه وتهيئ له إمكان انتقام سهل — كان ينبذها بتقزز وهو يفكر فى رفاقه فى الجيش ؛ وفى منتديات باريس ، وعلى الأخص فى الآنسة نيفيل. ثم يعود فيفكر فى تأنيبات شقيقته ، ولقد كان مابقى فى طبعه من كورسيكية يبرر هذه التأنيبات ويصيرها أكثر تأثيرا فى نفسه ولم يبق لديه فى هذه المعركة المحتدمه بين ضميره وأوهامه إلا أمل واحد ، وهو أن يبدأ — لأى مبرر كان — مشاجرة مع أحد ابنى المحامى ، وأن يقاتله فى مبارزة ، إذ أن فى قتله برصاصة أو بضربة سيف توفيقا بين آرائه الكورسيكية وآرائه الفرنسية . وعندما عثر على هذه الوسيلة وتأمل فى طرائق تنفيذها أخذ

يحس بأنه استراح من عبء ثقيل . وإنه لكذلك إذ خطرت له أفكار أخرى من نوع أكثر عذوبة فساهمت فى تهدئة ثورته المحمومة ، وهى أن سيسيرون ، بينما كان فى أشد حالات يأسه يوم وفاة ابنته توليا نسى ألمه حينما مرت بخاطره تلك العبارات التى كان سيقولها فى مناسبة موتها . وكذلك لطف أورسو مزاجه ، إذ فكر أنه يستطيع أن يرسم للآنسة نيفيل من حالته النفسية لوحة لا يمكن أن يفوتها تشويق هذه الانسانة الجميلة بقوة .

كان إذ ذاك يقترب من القرية التى ابتعد عنها كثيرا دون أن يلاحظ ذلك ، وبينما هو على هذه الحالة إذ سمع فتاة صغيرة تغنى فى ممشى إلى جانب الغابة ، وهى بدون شك تعتقد أنها منفردة ، وكان ماتغنيه هو أحد هاتيك الألحان المتشابهه الخاصة بالولولة الجنائزية فتقول : « إلى ابنى ، ابنى الذى فى البلاد البعيدة — احتفظوا بوسامى وبقميصى الدامى . . . »

فسأل أورسو الصبية بلهجة غضب وقد ظهر أمامها بغتة :

— ماهذا الذى تنشدينه أيتها الصغيرة ؟

فقالت الطفلة وهى مرتعبة قليلا :

— أ أنت ياأورس أنتون ! . . . إنها لاحدى أنشودات الآنسة كولومبا .

فصاح أورسو بصوت مزعج :

— أنا أحظر عليك أن تغنيها .

فأدارت الطفلة رأسها يمينا وشمالا كأنها تبحث لتعرف من

أى الجوانب تستطيع أن تنجو بنفسها ، ولو لم تكن معنية بحفظ حزمة كانت فوق العشب عند قدميها لكانت قد فرت فعلاً .

وحينئذ شعر أورسو بخجل من عنفه وسألها بأكثر ما يستطيع من وداعة قائلا :

— ماهذا الذى كنت تحملينه ياصغيرتى ؟

ولما ترددت شيلينا فى الاجابة رفع القماش الذى كان يحوط الحزمة فرأى انها تحوى خبزا وأطعمة أخرى فسألها قائلا :

— إلى من تحملين هذا الخبز يالطيفتى ؟

— أنت تعرف ذلك تماما ياسيدى ، إنه لعمى .

— وعمك ، أليس هو طريدا .

— إنه فى خدمتك ياسيد أورس أنتون .

— وإذا قابلك رجال الشرطة ، فهم سيسألونك أين تذهبين ؟

فقالت الطفلة بلا تردد :

— سأجيبهم بأنى أحمل الطعام إلى اللوكيين [1] الذين يشتغلون فى الغابة .

— وإذا التقيت ببضع صيادين جائعين يودون أن يتغدوا على حسابك وأن يغتصبوا طعامك . . . ؟

إنهم لن يجرؤا على ذلك ، واذا فعلوا فسأقول لهم إنه لعمى .

---

(١) اللوكيون هم سكان مدينة لوكا بإيطاليا ، وكانوا يعملون فى غابات كورسيكا . (المترجم)

— وفى الواقع أن عمك ليس هو الرجل الذى يدع الناس يسلبونه غداءه ، وهل هو يحبك كثيرا ؟

— نعم ياأورس أنتون ، فانه منذ وفاة والدى هو الذى يعنى بالأسرة : بوالدتى وبى وبأختى الصغيرة ، وقبل أن تمرض والدتى أوصى عليها الأثرياء ، ليجدوا لها عملا ، والعمدة يعطينى ثوبا كل عام ، والقسيس يعلمنى الدين والقراءة منذ أن نبههما عمى الى ذلك ، وإنما شقيقتك على الأخص هى الخيّرة نحونا .

وفى هذه اللحظة ظهر كلب فى الممر ، فوضعت الفتاة أصبعيها على فمها وصفرت صفرة حادة ، وإذ ذاك أقبل الكلب عليها وداعبها ثم اندفع بغتة فى الغابة ، وبعد قليل بدا رجلان رثا الثياب ولكنهما مدججان بالسلاح ، ووقفا خلف الأشجار على بضع خطوات من أورسو ، وكأنهما جاءا زاحفين كما يزحف الثعبان بين الشجيرات التى تغطى أرض الغابة ثم صاح أكبرهما سنا قائلا :

— أوه ؟ ياأورس أنتون ، لتكن خير قادم ، ماذا ؟ ألا تعرفنى ؟

فأجاب أورسو وهو يحدق فى وجهه قائلا :

— لا .

— من الغريب أن لحية وقبعة مدببة تغيران رجلا ! هلم ياملازمى ، انظر جيدا أنسيت قدماء واتيرلو ؟ ألم تعد تتذكر براندو سافيلى الذى مزق أكثر من خرطوشة إلى جانبك يوم البأساء ؟

— ماذا ؟ هل هو أنت ؟ وقد فررت فى سنة ١٨١٦ .

— كما تقول يامـلازمى فان الخدمـة كانت تضجرنى ثم إنه كان لدى حساب فى هـذه البـلاد يجب على أن أصفيه. ها ها ! ياشيلى إنك فتاة شهمة ، قدمى إلينا مامعك سريعا ، لأننا جائعان — ليس لديك فكرة ياملازمى عن الرغبة التى تـكون عند الإنسان فى الأكل حينما يكون فى « الماكى ». منذا الذى بعث إلينا هذا ؟ أهى الآنسة كولومبا أم العمدة ؟

— لا ياعمى ، إنما هى الطحانة التى أعطتنى ذلك لك ، ومنحتنى غطاء لوالدتى .

— وماذا تريد منى ؟

— إنها تقول : إن أولئك الـكوكيين الذين اتخذتهم ليحرثوا لهـا يطالبونها الآن بخمسة وثلاثين سـولديا وبالـكستناء بسبب تعرضهم لوباء الحمى الموجود الآن فى أسفل بييترانيرا .

— يالهم من كسـالى ! . . . سأرى ذلك. ياملازمى ، أتريـد بـدون كلفة أن تقاسمنا عشاءنا ، فلطـالمـا تناولنا معـا طعـاما أسوأ مـن هـذا إبّـان عهد مـواطننا المسكـين الـذى طـرد .

— شكرا عظيما ، وأنا أيضا قد طردت .

— نعم لقد سمعت هذا ، ولـكنى أراهن على أنك لم تكن غاضبا من ذلك كثيرا بسبب تصفية حسابك .

ثم قال الشقى لرفيقه :

— هيا ياقسيس إلى المائدة ! ياسيـد أورسـو ، أنا أقـدم

إليك سيدى القسيس ، وفى الحق أنا لا أدرى أهو قسيس أم لا ؟ ولكنه لديه علم القسيس .

وحينئذ قال الشقى الثانى :

— أنا لست الا طالبا دينيا مسكينا منع من متابعة إلهامه ، من يدرى ؟ لقد كان من الممكن أن أصير بابا يا براندولاشيو

فسأله أورسو قائلا :

— وأى سبب إذاً ذلك الذى حرم الكنيسة أنوارك ؟

— أوه ! لا شئ ، هو حساب صُفِّىَ كما يقول صديقى براندولاشيو . وتفصيل ذلك أن شقيقة لى اقترفت جنونا أثناء كنت أنا ألتهم الكتب فى جامعة بيزا ، فتحتم علىّ أن أعود إلى البلا لأزوجها ، ولكن خطيبها كان معجلا فتوفى بالحمى قبل وصولى بثلاثة أيام . وهنا اتجهت — كما كنت تفعل لو أنك فى مكانى — إلى شقيقه فقيل لى إنه متزوج ، فما العمل ؟

فقال أورسو :

— فى الواقع أن هذا شئ يربك ، فماذا فعلت ؟

— هذه هى إحدى الحالات التى يرجع فيها إلى البندقية .

— ومعنى هذا أنك . . .

فقال الشقى بفتور :

— لقد وضعت له رصاصة فى رأسه .

وإذ ذاك بدت من أورسو حركة امتعاض ، ومع هذا فإن الفضول ، وقد تكون أيضا الرغبة فى تأخير لحظة العودة إلى منزله ، قد أبقياه فى مكانه وجعلاه يتابع المحادثة مع هذين

الرجلين اللذين كان ضمير كل منهما يرزح تحت جريمة قتل واحدة على الأقل .

وبينما كان رفيق براندولاشيو يتحدث كان هو يضع خبزا ولحما ثم وضع لنفسه وأخرج نصيب كلبه الذى قدمه إلى أورسو تحت اسم بروسكو ، وقال له عنه إنه موهوب غريزة عجيبة يعرف بها الجندى أيا كان تنكره . وأخيرا قطع قطعة من الخبز وخرطة من اللحم وقدمها إلى ابنة شقيقه . وبعد أن أكل الطالب الدينى بضع لقم صاح قائلا :

— ماأجمل حياة الأشقياء ! قد تذوقها يوما ياسيد ديلاربيا، وسترى كم هو عذب ألا يعرف الإنسان له مولى غير هواه .

وإلى هذه النقطة كان الشقى يعبر عن آرائه بالإيتالية ، ثم استأنف بالفرنسية قائلا :

— إن كورسيكا غير مسلية لشاب مثلك ، ولكنها ليست كذلك بالنسبة إلى الشقى ، أى فرق ! إن النساء مجنونات بنا ، فأنا الذى ترانى فى هذه الحالة لى ثلاث خليلات فى ثلاث جهات مختلفة ، ففى كل مكان أنا فى منزلى ، وبينهن واحدة هى زوجة شرطى .

فقال أورسو بلهجة جدية :

— أنت تعرف كثيرا من اللغات ياسيدى .

— إذا كنت أتكلم الفرنسية ، فذلك لأن الحشمة واجبة علينا للاطفال ، إذا أنا وبراندولاشيو ، نريد أن تنشأ هذه الصغيرة نشأة مستقيمة .

فقال براندولاشيو :

— وحينما تبلغ الخامسة عشرة سأزوجها ، وقد وقع اختيارى على شخص مناسب .

فقال أورسو :

— وهل أنت الذى ستبدأ بالطلب ؟

— بدون شك ، إذ لو أننى قلت لأحد أثرياء البلد : أنا ، براندو سافيلّى ، وأرى بسرور أن يتزوج ابنك ميشيلينا سافيلى ، فهل تحسب أنه يعصى لى أمرا ؟

فقال القسيس :

— وأنا لا أنصح له بهذا العصيان ، إذ أن يد رفيقى ثقيلة .

ثم استمر براندولاشيو يقول :

— على أننى لو كنت لئيما أو وغدا لما كان علىَّ إلا أن أفتح كيسى ، فتمطر فيه قطع من فئة المائة سولدى .

فسأله أورسو قائلا :

— وهل يوجد فى كيسك إذاً شئ يجذب المال ؟

— كلا ولكنى لو كتبت كما فعل البعض إلى ثرى : « أنى فى حاجة الى مائة فرنك » لبادر بإرسالها إلى غير أنى رجل شرف ياملازمى .

وحينئذ قال الشقى الذى يدعوه رفيقه بالقسيس :

— هل تعرف ياسيد ديلاربيا أنه فى هذا البلد ذى الأخلاق البسيطة يوجد مع ذلك بضعة أشرار يستفيدون من الاحترام الذى نوحيه الى الجميع بوساطة جوازاتنا (وقد أشار

إلى بندقيتـه) لأجل أن يحصلوا على سندات مالية عن طريق تزوير خطنا .

فقال أورسو بلهجة مباغتة :

— أنا أعرف ذلك ، ولـكن أية سندات مالية ؟

فاستمر الشقى يقول :

— منذ ستة أشهر بينما كنت أتنزه على مقربة من أوريزا ، إذ بقروى قد أقبل علىَّ ورفع قبعته ثم قال لى : « آه ياسيدى القسيس (وهم لايزالون يدعوننى كذلك) اعـذرنى وامنحنى شيئا من الوقت ، فأنا لم أستطع أن أجد إلا خمسة وخمسين فرنـكا ، وهذا هو كل ما أمكننى جمعه. » فدهشت كل الدهش وقلت له : « — ما معنى هذا أيها الغبى؟ خمسة وخمسون فرانـكا ؟ — أريد أن أقول : عندى خمسة وستون فرانـكا ، أما المائة التى تطلبهـا منى فهى مستحيلة — كيف أيهـا الحيـوان ! أ أنا طلبـت منك مائة فرانك؟ كيف ذلك وأنا لا أعرفك ؟ » وإذ ذاك قدم الى كتابا أو بالأحـرى رقعة جد قـذرة يطلب فيهـا كاتبها إليه أن يضع مائة فرانك فى مـكان معين ، وإلا فانه سيرى منزله محرقـا ، وبقراتـه مقتولة بيـد جيوكانتو كاستريكـونى ، وهو اسمى ، وقـد تجرأ المزيف على تقليد إمضائى ، والذى شاكنى أكثر من ذلك هو أن الرسالة كانت مكتوبة بلغة ريفية ، ومفعمـة باخطـاء إملائية . . . أ أنا أخطىء فى الإمـلاء ! أنـا الذى كنـت أحصل على جميع الجـوائز فى الجامعة ! فبدأت باعطـاء هـذا الحقير صفعة أدارتـه حول نفسه مـرتين

وقلت له : « آه ! أنت تعتبرنى لصا أيها الوغد ! » ثم ركلته بقدمى فى الموضع الذى تعرفه ، وبعد أن هدأت قليلا سألته قائلا : « ومتى يجب أن تحمل هذا المبلغ الى المكان المعين ؟ — اليوم . — حسن ، إذهب فضعه . » ولقد كان ذلك الموضع الى جانب شجرة صنوبر ، وكان محددا تحديدا تاما . فحمل المبلغ ودفنه إلى جانب الشجرة ثم جاء إلىّ وكنت مختبئا على مقربة منه ، فظللت وإياه ست ساعات مميتة ، وكنت سأمكث ياسيد ديلاربيا ثلاثة أيام لو لزم ذلك . وفى نهاية هذه الساعات الست ظهر أحد سكان مدينة باستيا ، وهو مراب وضيع ، وانحنى ليأخذ المبلغ ، فأطلقت عليه رصاصة فهوى رأسه فوق القطع الفضية التى كان يكشف عنها ثم قلت للريفى : « والآن أيها الغبى خذ مبلغك ولا تعد بعد ذلك إلى اتهام جيوكانتو كاستريكونى بالوضاعة . وعلى أثر هذا جمع ذلك المخلوق المسكين فرانكاته الخمسة والستين دون أن ينظفها ثم شكرنى فودعته بركلة قدم أخرى ثم هرول .

وحينئذ صاح براندولاشيو قائلا :

— أنا أغبطك على هذه الطلقة ، ولابد أنك ضحكت كثيرا .

— لقد أصبت ذلك المرابى فى صدغه .

ثم جعل يتحاور مع أورسو محاورة علمية حول إمكان ذوبان الرصاصة فى الهواء قبل أن تصل الى الهدف وكان أورسو يفضل النقاش فى ذلك الموضوع العلمى على التحدث مع هذا الشقى عن خلقية عمله فجاراه فى هذا الايضاح ، غير أن براندولاشيو الذى

لم يكن هذا النقاش يروقه قد قاطعهما لينذرهما بأن الشمس قد آذنت بالمغيب ثم قال :

— مادمت لم ترد أن تتعشى معنا ياأورس انتون فأنا أنصح ألا تجعل الآنسة كولومبا تنتظرك وقتا طويلا ، ثم إنه ليس من الخير دائما أن يسير الإنسان فى الطرقات بعد غروب الشمس ، ولماذا إذاً ، تخرج بدون بندقية ؟ إنه يوجد فى هذه الجهات كثير من الأشرار فاحترس . نعم ليس أمامك اليوم ما تخشاه ، لأن الباريتشينيين قد دعوا المحافظ إلى منزلهم ، إذ التقوا به فى الطريق وسيمكث يوما فى بييترانيرا قبل أن يذهب الى كورتيه ليضع الحجر الأساسى كما يقولون وتلك سخافة رسمية ، وسيبيت الليلة عند الباريتشينيين ، غير أنهم غدا سيكونون أحرارا ، وفيشينتيلوُّ شاب ردىء ، وأورلاندوشيو لا يكاد يمتاز عنه . . . فاجتهد فى أن تلقاهما مفترقين : اليوم أحدهما ، وغدا الآخر ، ولكن احترس ، وأنا لا أقول لك إلا ذلك .

فقال أورسو :

— شكرا لك على نصائحك ، ولكن ليس بيننا شئ مشترك ، وإلى أن يجيئوا ليبحثوا عنى ليس لدى ما أقوله لهم .

وعند ذلك أحدث الشقى بلسانه صوت سخرية ، إلا أنه لم يُجِب بشئ . ولما هم أورسو بالانصراف قال له :

— وعلى ذكرى هذا أنا لم أشكرك على بارودك ، فقد جاء فى الوقت الملائم ، والآن لاينقصنى شئ . . . أو بالأحرى

ينقصنى حذاء ، ولكنى سأصنع لى حذاء من جلد أحد الكباش البرية فى يوم من هذه الأيام .

وعند ذلك وضع أورسو بخفة قطعتين من ذات الخمسة فرانكات فى يد الشقى وقال له :

— إن كولومبا هى التى تبعث اليك البارود . وهذا ما تشترى به حذاء .

غير أن براندولاشيو رد إليه القطعتين وصاح قائلا :

— لا ترتكب حماقات ياملازمى ، فهل أنت تعتبرنى متسولا ؟ نعم أنا أقبل الخبز والبارود ، ولكنى لا أريد شيئا آخر ألبتة .

— لقد حسبت أنه يمكن التساهل بين جنود قدماء . هيا وداعا .

ولكنه قبل أن ينصرف وضع القطعتين فى حقيبة الشقى دون أن يلمحهما . وعلى أثر ذلك قال له الإلهى بدوره :

— وداعا ياأورس أنتون ! قد نلتقى فى الغابة يوما من الأيام ، وسنتابع إذ ذاك دراساتنا عن فيرجيل .

كان أورسو قد غادر صاحبيه الشريفين منذ ربع ساعة حينما سمع وقع أقدام رجل يعدو خلفه بكل قواه ، وكان هو براندولاشيو ، وقد صاح لاهثا :

— هذا كثير ، وأكثر من المألوف ! وهاهى ذى فرانكاتك العشرة ، ولو حدث ذلك من جانب شخص آخر لما أغضيت عن هذا المزاح . قدم إلى الآنسة كولومبا من جانبى كثيرا من الاحترام ، لقد أفقدتنى التنفس ، فعم مساء .

١٢

وعندما رجع أورسو إلى المنزل ألفى كولومبا مشغولة البال قليلا من غيبته الطويلة ، ولكنها حين رأته عادت إلى ملامحها الهادئة الحزينة التى هى مظهرها العادى . وفى أثناء تناول طعام العشاء لم يتحادثا إلا فى أشياء غير هامة . ولما شجع مظهر كولومبا الهادىء أورسو ، قص عليها مقابلته مع الشقيين ، بل تجرأ على شئ من المزاح فيما يتعلق بالتربية الخلقية والدينية التى تتلقاها شيلينا بوساطة عناية عمها وزميله الشريف كاستريكونى ، فأجابت كولومبا بقولها :

— إن براندولاشيو رجل شريف ، أما كاستريكونى فقد سمعت أنه رجل لا مبدأ له .

— أنا أظن أنه يساوى براندولاشيو ، وبراندولاشيو يساويه ، فكلاهما فى حرب صريحة مع المجتمع ، إذ أن الجريمة الأولى لاتزال تجذبهما كل يوم إلى جرائم أخرى ، ومع ذلك فقد لا يوازيان فى الإجرام أشخاصا لايقيمون فى الغابة .

وإذ ذاك لاح على وجه شقيقته بريق من السرور ، وقد استمر هو يقول :

— نعم إن لهؤلاء الأشقياء شرفا على طريقتهم هم ، وإن الوهم القاسى ، لا الطمع السافل ، هو الذى قذف بهم الى الحياة التى يحيونها .

وعلى أثر ذلك ساد الصمت بينهما هنيهة ثم قالت كولومبا وهى تسكب القهوة :

— شقيقى قد تعرف أن شارل باتيست بيترى توفى فى الليلة الماضية ، نعم توفى بحمى المستنقعات .

— ومن بيترى هذا ؟

— إنه رجل من أهل هذه القرية ، وهو زوج مادلين التى تسلمت دفتر والدنا منه وهو يحتضر ، وقد جاءت فرجتنى أن أحضر سهرته وأن أنشد فيها شيئا ، ومن الملائم أن تذهب أنت أيضا فانهم جيراننا ، وان هذا نوع من الأدب لا يمكن الاستغناء عنه فى جهة محصورة كجهتنا .

— إلى الشيطان سهرتك هذه يا كولومبا ، فأنا لا أحب أن أرى شقيقتى تبدو على هذا النحو فى منظر عام .

— ياأورسو ، كل واحد يشرف موتاه حسب طريقته ، فالمرثية تنحدر إلينا من أجدادنا ، ويجب علينا أن نحترمها كتقليد أثرى ، ومادلين ليس لديها موهبة الرثاء وفيورديسبينا العجوز التى هى عظمى رثاءات هذه البلد مريضة . وإذاً ، فينبغى أن يكون هناك أحد ينشد المرثية .

— وهل تحسبين أن شارل باتيست لن يهتدى فى طريقه الى العالم الآخر إذا لم تنشد أشعار رديئة على تابوته ! إذهبى إلى السهرة إذا أردت يا كولومبا ، وسأذهب معك إذا كنت تظنين أن ذلك واجب ، ولكن لا ترتجلى ، فذلك غير لائق فى مثل سنك هذه . . . أنا أرجوك ياشقيقتى .

— شقيقى لقد وعدت أن أرتجل ، وهذه هى العـادة هنـا كما تعرف ، وأنا أكرر لك أنه لايوجد الا أنا للارتجال.

— عادة حمقاء .

— أنا أتألم كثيرا من هذا الإنشاد ، إذ أنه يعيد الىَّ كل ذكريات بأسائنا ، وغدا سأمرض من ذلك ، ولـكنه ينبغى فاسمح لى به ياشقيقى ، وتذكر أنك فى أجاسيو طلبت إلىَّ أن أرتجل لأسلى تلك الآنسة الانجليزية التى تسخر من تقاليدنا القديمة ، أفلا أستطيع إذاً ، أن أرتجل اليوم لأجل قوم هم سيعترفون لى بهذا الجميل ، وسيعينهم ذلك على احتمال آلامهم ؟

— هيا ، افعلى ماتريدين فأنا أراهن على أنك قد أنشأت مرثيتك فعْلاً وأنك لاتريدين أن تضيعيها .

— كَلا فأنا لاأستطيع أن أنشئ ذلك مقدما ياشقيقى إذ أننى حين أنشئ أقف أمـام الميت وأفـكر فى الأحيـاء فتجىء العبرات إلى عينى ، و إذ ذاك أنشد ما يتمثل فى نفسى .

ولقد نطقت كولومبا بهذه العبـارات فى بساطة تجعل من المستحيل أن يفترض المرء أن لديها أقل غرور شعرى . وهكذا لانت قنـاة أورسو ورافقهـا إلى منزل بييترى . كان المتوفى راقـدا على مائدة مكشوف الوجـه فى كـبرى غرف المنزل ، وكانت الأبواب والنوافذ مفتحة ، وحـول المائدة عدة شموع موقدة ، وكانت أيمه جالسة عند رأسه وخلفها عدد كبير من النساء يشغل جانبا مـن الغرفـة ، وفى الجـانب الآخـر كان الرجال مصطفين وقوفـا عارى الرؤوس ، وأعينهم محـدقة إلى

الجثمان ، وكانوا جميعا يلتزمون الصمت العميق ، وكان كل زائر جديد يقترب من المائدة يقبل المتوفى [١] ويشير برأسه إلى أيمه وابنه ثم يأخذ مكانه بين الواقفين دون أن ينبس ببنت شفة. ومع ذلك فمن حين إلى آخر كان أحد الحاضرين يقطع الصمت فيوجه بضع كلمات إلى المائت كما قالت له إحدى النساء مثلا : «لماذا تركت زوجتك الخيرة ؟ ألم تكن تعنى بك ؟ ماذا كان ينقصك ؟ لماذا لم تبق شهرا آخر حتى ترى حفيدك الذى ستضعه زوجة ابنك ؟ »

وبعد ذلك تقدم ابن بييترى ، وهو شاب طويل القامة وضغط على يد والده المثلجة وصاح قائلا : « أوه لماذا لم تمت موتا عنيفا حتى ننتقم لك ! . . . »

كانت هذه الكلمات هى الأولى التى سمعها أورسو وهو داخل ، وعندما رآه الحاضرون انفرجت الدائرة وسمعت تمتمة فضول خفيفة تنم عن شغف الجماعة الذى أثاره حضور الرثاءة .

وعلى أثر ذلك قبلت كولومبا الأيم وتناولت إحدى يديها وبقيت بضع دقائق تتأمل خافضة عينيها ثم زحزحت غطاء رأسها إلى الوراء وحدقت إلى المائت وانحنت على جثته وهى تكاد تشبهه فى الشحوب ثم بدأت تقول :

«شارل باتيست ! ليستقبل المسيح روحك ! — إن الحياة هى الألم . وإنك ذاهب الى موضع — لاشمس فيه ولا زمهرير —

---

(١) يحدثنا المؤلف أن هذا التقليد كان لايزال معمولا به فى بوكونيانو إلى سنة ١٨٤٠.

ولم تعد بعد محتاجا إلى مقصلتك — ولا إلى فأسك — الثقيلة ولم يعد لك عمل بعد — بل كل أيامك منذ الآن ستكون آحادا — ياشارل باتيست! ليستقبل المسيح روحك! — إن ابنك سيتولى إدارة منزلك لقد رأيت السنديانة تهوى — فحسبت أنها ماتت — ولكنى عدت فألفيت جذورها — قد نبتت شجرة صغيرة — وهذه الشجرة قد صارت سنديانة ذات ظلال وارفة — فاستريحى يامادلين تحت أغصانها — وفكرى فى السنديانة التى لم تعد موجودة . »

وهنا أخذت مادلين تبكى بصوت عال ، وإذ ذاك جعل رجلان أو ثلاثة يجففون العبرات من فوق خدودهم السمراء ، وقد كانوا قبل الآن يستطيعون أن يطلقوا الرصاص على بنى الإنسان بنفس الهدوء الذى يطلقونه به على الحجل .

ولقد استمرت كولومبا على هذه الحالة بعض الوقت متجهة طورا إلى المائت وآخر إلى أسرته ، وأحيانا تمثل المتوفى نفسه متحدثا الى أصدقائهم يواسيهم أو ينصح لهم . وبقدر ما كانت ترتجل كان وجهها يأخذ مظهرا مثاليا ، وكانت بشرتها تتلون بلون وردى شفاف يزيد فى ظهور لمعان أسنانها وسطوع لهيب عينيها المتسعتين كأنها نبية ديلفى تتلقى إلهامات أبولون . وفى أثناء ذلك لم يسمع أحد أقل تمتمة من الجمهور الذى يزدحم حولها إذا استثنينا بعض تنهدات وبعض إجهاشات مكبوتة . ورغم أن أورسو كان أقل تأثرا من غيره بهذا الشعر الوحشى ، فإنه لم يلبث أن أحس بأن الانفعال العام قد غمره ،

فانتحى زاوية مظلمة من القاعة وبكى كما كان ابن بييترى يبكى .

وبينما هم على هذه الحال إذ ظهرت فجأة بين السامعين حركة خفيفة ثم انفرج الزحام ودخل عدة أشخاص أجانب . ومن الاحترام الذى أبداه الحاضرون لهم والسرعة التى اتخذت لإخلاء أمكنتهم كان من الجلى أن يكونوا من ذوى الأهمية الذين تشرف زيارتهم المنزل بهيئة غريبة ، ومع ذلك فاحتراما للمرثية لم يوجه أحد إليهم الحديث ، وكان أول الداخلين يبدو عليه أنه فى الأربعين من عمره ، وكانت ملابسه السوداء ووسامه وملامح السلطة والثقة التى تلوح على وجهه ، كل ذلك لم يلبث أن جعل الحاضرين يتكهنون بأنه المحافظ . ولقد كان خلفه شيخ مُنْحَنٍ تبدو على وجهه أعراض الصفراء ، وكان يحاول عبثا إخفاء نظرة خئوفة قلقة تحت منظاره الأخضر ، وكان مرتديا ملابس سوداء واسعة تدل — ولو أنها لاتزال جديدة — على أنها صنعت منذ عدة سنوات. وكان هذا الشخص ملازما للمحافظ ملازمة تامة كأنما كان يريد أن يختفى فى ظله ، وبعده دخل شابان طويلا القامة قد أحرقت الشمس بشرتيهما وكانت خدّا كل منهما قد اختفيتا تحت لحية كثة ، وكانت نظراتهما تشف عن تعاظم وصفاقة ، وقد أبديا على أثر دخولهما شهوة اطلاع وقحة .

ولقد كان أورسو لطول الزمن قد نسى ملامح أهل قريته ، ولكن منظر الشيخ ذى المنظار الاخضر أيقظ فى الحال فى نفسه ذكريات قديمة وكان حضوره خلف المحافظ يكفى فى معرفته ، فقد كان هذا الشيخ هو باريتشينى المحامى وعمدة بييترانيرا وقد جاء

مع ولديه ليطلعوا المحافظ على المرثية . من العسير أن يحدد المرء مامر فى هذه اللحظة فى نفس أورسو ، ولكن حضور عدو والده قد سبب له نوعا من التقزز الممتزج بالانزعاج فأحس أنه قد صار أكثر منه فى أى وقت آخر استعدادا للتأثر بالرِّيَبِ التى طالما قاومها كل هذا الزمن الطويل.

أما كولومبا فان منظر ذلك الرجل الذى كانت قد عاهدت نفسها على أن تحمل له حقدا قاتلا قد جعل مظهرها السريع التأثر يأخذ ملامح مرعبة ، إذ امتقع لونها ، وخنق الانفعال صوتها فحوله إلى نوع من الحشرجة ومات على شفتيها البيت الذى كانت قد ابتدأته . . . ولكنها لم تلبث أن أستأنفت المرثية وجعلت تنشد بقوة مايلى :

« حينما يولول الصقر — أمام عشه الخالى — تحوم حوله العصافير — مهينة آلامه . »

وهنا سمع الحاضرون ضحكة مكبوتة وكانت صادرة عن الشابين اللذين وصلا حديثا ؛ لأنهما قد وجدا هذا التشبيه جريئا بهيئة تجاوزت الحد ، غير أن كولومبا استمرت فى إنشادها تقول :

« سيستيقظ الصقر وسينشر جناحيه — وسيغسل منقاره بالدم — وأنت ياشارل باتيست — ينبغى أن يوجه إليك أصدقاؤك — وداعهم الأخير . — إذ أن عبراتهم قد جرت بهيئة غير كافية — أما اليتيمة المسكينة فلن تبكيك . — ولم هى تبكيك ؟ — فأنت قد رقدت بعد حياة طويلة هادئة — وفى وسط أسرتك —

وعلى استعداد للمثول أمام المولى القدير — وإنما اليتيمة تبكى والدها — الذى باغته قتلة سفلة — والذى ضرب من الخلف. — والدها الذى سال دمه الأحمر تحت الأوراق الخضراء — لكنها جمعت دمه — ذلك الدم النبيل البرىء — ونشرته فوق بييترانيرا. — لكى يصير سما زعافا قاتلا. — وستبقى بييترانيرا موسومة بهذا الدم — إلى أن يمحو — الدم المجرم أثر الدم البرىء ».

وعلى أثر انتهاء كولومبا من هذه الكلمات تركت نفسها تسقط فوق أحد المقاعد ثم سدلت غطاء رأسها فوق وجهها وأخذت تجهش بالبكاء ، وشرعت الباكيات يتجمعن حولها وبدأ عدد من الرجال يلقون نظرات وحشية على العمدة وولديه ، وجعل عدة شيوخ يتمتمون بكلمات ضد الفضيحة التى سببها حضورهم ، وإذ ذاك شق ابن المتوفى طريقا بين الجمهور وهم بأن يرجو العمدة أن يغادر المكان بأسرع مايستطاع . غير أن هذا الأخير لم ينتظر هذه الدعوة إلى الخروج ، بل أسرع إلى الباب فى الحال ، وكان ولداه قد سبقاه إلى الطريق . وبعد أن وجه المحافظ شيئا من عبارات التعزية الى الشاب بييترى خرج فى أثرهم . أما أورسو فقد اقترب من شقيقته وتأبط ذراعها واجتذبها إلى خارج القاعة . وعند ذلك قال بييترى لبعض أصدقائه :

— رافقوهما واعتنوا بألا يحدث لهما شئ !

فبادر شابان أو ثلاثة ووضعوا خناجرهم فى أكمام ستراتهم اليسرى وساروا كأنهم موكب لأرسو وشقيقته الى باب منزلهما.

١٣

كانت كولومبا لاهثة منهكة إلى حد أنها صارت غير قادرة على أن تنطق بكلمة واحدة ، وكان رأسها معتمدا على كتف شقيقها ، وكانت تقبض على إحدى يديه وتضغطها بين يديها . وعلى الرغم من أن أورسو كان فى قرارة نفسه غير راض عن خاتمة مرثيتها ، فإنه كان لديه من القلق والكدر ما يمنعه من أن يوجه إليها أقل تأنيب ، فانتظر صامتا نهاية النوبة العصبية التى كانت شقيقته — فيما يبدو — فريسة لها . وفى هذه اللحظة طرق الباب ودخلت سافريا فزعة ، فأعلنت قدوم المحافظ . وعند ما سمعت كولومبا هذا الاسم نهضت كأنها خجلة من ضعفها ووقفت معتمدة على مقعد جعل يضطرب تحت يدها اضطرابا مرئيا.

ولم يكد المحافظ يستقر فى مجلسه حتى بدأ حديثه ببعض اعتذارات عادية عن ساعة زيارته الغير الملائمة ، ثم أخذ يرثى لحالة الآنسة كولومبا ، وجعل يتحدث عن أخطار الانفعالات القوية ويقدح فى عادة الولولة الجنائزية التى تصيرها موهبة الرثاءة أكثر مشقة على الحاضرين ، ثم دس فى الحديث تأنيبا خفيفا وجهه بمهارة إلى اتجاه المقطع الأخير من المرثية ، وبعد ذلك غير نبرات صوته وقال :

— ياسيد ديلاربيا أنا مكلف من قبل صديقيك الانجليزيين

بإبلاغكما كثيراً من التحيات ، فالآنسة نيفيل تبعث ألف صداقة إلى شقيقتك ، ولدىّ منها رسالة إليك .

فصاح أورسو قائلا :

— رسالة من الآنسة نيفيل ؟

— من المؤسف أنها ليست معى الآن ، ولكنها ستكون لديك بعد خمس دقائق . كان والدها مريضاً ، ولقد خشينا وقتا أن يكون قد أصيب بحمى بلادنا الفظيعة ، ولكنه لحسن الحظ قد اجتاز الخطر ، وستلاحظ ذلك بنفسك عما قريب لأنك ستراه فيما أتصور .

— لا بد أن الآنسة نيفيل كانت قلقة جداً .

— من حسن ظنها أنها لم تعرف الخطر إلا بعد أن ابتعد يا سيد ديلاريبا إن الآنسة نيفيل حدثتنى كثيراً عنك وعن الآنسة شقيقتك .

فانحنى أورسو عند ذلك احتراماً واستمر المحافظ يقول :

— إنها تكن لكما كثيراً من الصداقة ، إذ هى تخفى تحت مظهر ملىء بالرشاقة ، وراء طيش ظاهرى عقلا كاملا .

فقال أورسو :

— إنها إنسانة فاتنة .

لقد جئت الآن إلى هنا تحت تأثير رجائها تقريباً يا سيدى إذ لا يعرف أحد أكثر منى ذلك التاريخ المشئوم الذى كنت أود ألا أضطرَّ إلى تذكيرك به ، ولكن ما دام أن السيد باريتشينى لا يزال عمدة لبييترانيرا ، وأنا محافظ هذه المقاطعة

فأحسب أنى لست فى حاجة إلى أن أنبئك بالقيمة التى منحتها لبعض التهم التى — إذا صح ما نمى إلىّ — قد ألقتها إليك شخصيات غير متبصرة والتى أنا أعرف أنك نبذتها بالاحتقار والثورة اللذين يجب أن ينتظرا من منزلتك وخلقك .

فقال أورسو وهو يهتز فى مقعده :

— يا كولومبا ، أنت متعبة جداً فيجب عليك أن تذهبى إلى مخدعك لتنامى .

فأجابت كولومبا على هذا الطلب باشارة سلبية ، وكانت قد رجعت إلى هدوئها العادى ، ثم حدقت بنظرات حادة إلى المحافظ الذى استمر يقول :

— إن السيد باريتشينى يود من أعماق قلبه أن يرى كف جميع أنواع العداء الذى بينكم . . . أقصد حالة الريب التى يجد كل واحد منكم نفسه فيها بازاء الآخر ، أما أنا فإنى سأكون مغتبطا بأن أراك توطد معه العلاقة التى يجب أن يوطدها الأشخاص الذين خلقوا ليتبادلوا الاحترام . . .

فقاطعه أورسو بصوت متأثر قائلا :

— سيدى أنا لم أتهم قط المحامى باريتشينى بأنه قتل والدى ولكنه عمل عملا سيمنعنى إلى الأبد من أن تكون لى به صلة وهو أنه زيف كتاب تهديد باسم أحد الأشقياء أو على الأقل قد عزاه خفية إلى والدى ، ومن المحتمل ياسيدى أن يكون هذا الكتاب هو السبب الغير المباشر فى موته .

وإذ ذاك تأمل المحافظ مليا ثم قال :

— إذا كان السيد والدك قد اعتقد هذا مدفوعا بحدة طبعه حين كان يخاصم باريتشيني ، فذلك جدير بالعذر ، لكن من جانبك أنت لم يعد مثل هذا الغي مسموحا به ، ففكر إذاً فى أن باريتشيني لم تكن لهمصلحة فى أن يزيف هذا الكتاب. . . نعم أنا لا أحدثك عن خلقه فأنت لا تعرفه وعندك معلومات ضده . . . ولكنك لاتفترض أن رجلا من رجال القانون . . .

غير أن أورسو قاطعه قائلا وقد نهض :

— لكن يا سيدى تفضل ففكر فى أن القول بأن هذا الكتاب ليس من صنع باريتشيني معناه نسبته إلى والدى ، وشرفه يا سيدى هو شرفى .

— لا يوجد أحد ياسيدى أكثر منى اقتناعاً بشرف الكولونيل ديلاريبا . . . ولكن . . . مزيف هذا الكتاب معروف الآن .

فصاحت كولومبا وهى تتقدم نحو المحافظ قائلة :

— ومن هو ؟

— إنه شقى قد اقترف عدة جنايات من تلك التى لا تغتفرونها أنتم معاشر الكورسيكيين ، إذ أنه لص يدعى توماسو بيانكى ، وهو الآن فى سجن باستيا ، وقد اعترف بأنه مزيف ذلك الكتاب المشئوم .

فقال أورسو :

— أنا لا أعرف ذلك الرجل ، وما عسى أن تكون غايته من هذا العمل ؟

وحينئذ أخذت كولومبا توضح الأمر فتقول :

— إنه رجل من أهل هذا البلد شقيق طحان قديم كان عندنا ، وهو شرير كذاب غير جدير بالتصديق .

فاستأنف المحافظ يقول :

— سترى المصلحة التى كانت له فى هذا الموضوع . إن الطحان الذى تتحدث عنه الآنسة شقيقتك — وهو يدعى فيما أظن تيودور — كان قد استأجر من الكولونيل طاحونة النهر الذى كان السيد باريشينى ينازع والدك فى ملكيته . ولم يكن الكولونيل — لكرمه المألوف — يربح أية فائدة تقريبا من طاحونته ، فحسب توماسو أنه لو فاز السيد باريتشينى بملكية النهر لكان على أخيه أن يدفع إيجارا ضخما لأنه من المعروف أن باريتشينى يحب المال . وقصارى القول أن توماسو ، لكى يؤدى خدمة إلى شقيقه قد قلد خط الشقى ، وهذه هى القصة كلها ، وأنت تعرف أن الروابط الأسرية فى كورسيكا قوية إلى حد أنها تقتاد إلى الجرائم . . . وتفضل فاطلع على هذه الرسالة التى كتبها النائب العام إلىّ فانها تؤيد كل ما قلته لك .

فجعل أورسو يطالع تلك الرسالة التى تقص فى تفصيل اعتراف توماسو ، وكانت كولومبا فى نفس الوقت تقرأ من فوق كتف شقيقها . وحينما انتهت من قراءتها صاحت قائلة :

— إن أورلاندوشيو باريتشينى قد ذهب إلى باستيا منذ شهر عند ما عرف أن شقيقى سيعود ، ولا بد أن يكون قد التقى بتوماسو واشترى منه هذه الفرية .

لكن المحافظ صاح بفروغ صبر قائلا :

— يا آنسة أنت تشرحين كل شيء بوساطة فروض بغيضة ، فهل هذه وسيلة اكتشاف الحقيقة ؟ أما أنت ياسيدى فإنك هادئ فماذا ترى ؟ هل تظن كالآنسة أن رجلا ليس لديه ما يخشاه سوى عقوبة بسيطة يضع فوق كاهله بقلب مرح جريمة تزييف ليؤدى خدمة إلى شخص لا يعرفه ؟

وحينئذ أعاد أورسو قراءة رسالة النائب العام وهو يزن كل كلمة بانتباه فائق ، لأنه منذ أن رأى المحامى باريتشينى كان يشعر فى نفسه أن اقتناعه ببراءته قد صار أكثر صعوبة من ذى قبل . وأخيرا اضطر الى الاعتراف بأن الإيضاح يبدو له كافيا ، غير أن كولومبا صاحت بقوة قائلة :

— إن توماسو بيانكى منافق ، وإننى لموقنة بأنه إما ألا يحكم عليه ، وإما أن يفر من السجن .

وعند ذلك هز المحافظ كتفيه وقال :

— لقد أطلعتك يا سيدى على المعلومات التى تسلمتها ، وأنا أنصرف وأتركك إلى أفكارك وسأنتظر إلى أن يرشدك عقلك . وآمل أنه سيكون أكثر قوة من . . . فروض شقيقتك .

وبعد أن اعتذر أورسو عن كولومبا ببضع كلمات أعاد القول بأنه يعتقد الآن أن توماسو هو الجانى الوحيد . . . وإذ ذاك نهض المحافظ وهم بالخروج ثم قال :

— لو لم يكن الوقت قد تأخر إلى هذا الحد لعرضت عليك أن تصحبنى لتأخذ رسالة الآنسة نيفيل . . . وفى نفس الفرصة

كنت تستطيع أن تقول للسيد باريتشيني كل ما قلته لى الآن فينتهى كل شئ .

فصاحت كولومبا بحرارة :

— لن يدخل أورسو ديلاربيا أبدا منزل أحد الباريتشينيين.

فقال المحافظ فى لهجة السخرية :

— إن الآنسة هى « تينتيناجو[١] » الأسرة فيما يظهر .

غير أن كولومبا قالت فى صوت حازم :

— إنهم يخدعونك وأنت لا تعرف المحامى ، فهو أكثر الرجال حيلا ونفاقا ، وأننى أضرع إليك ألا تدفع أورسو إلى عمل سيزمله بالخجل .

— يا كولومبا إن الهوى يضل عقلك .

— أورسو ! أورسو ! باسم الصندوق الذى وضعته بين يديك أنا أتوسل إليك أن تستمع إلىّ . إن بينك وبين الباريتشينيين دما فلا تذهب إلى منزلهم !

— شقيقتى !

— كلا ياشقيقتى ، لن تذهب أو أنا أغادر هذا المنزل ولن ترانى بعد ذلك . . . ياأورسو أشفق علىّ .

نطقت بهذه العبارات وركعت على ركبتيها ، وإذ ذاك قال المحافظ :

---

(١) «التينتناجو» هو الـكبش الذى يحمل الجرس ليقود القطيع فى الغابة . و يطلق هذا الاسم مجازا على العضو الذى يقود الاسرة فى الظروف الهامة .

— أنا محزون من أن أرى الآنسة ديلاربيا قليلة التعقل إلى هذا الحد ، ولكنى واثق من أنك ستقنعها .

ثم فتح الباب وتلكأ كأنه يريد من أورسو أن يتبعه .

فقال أورسو فى تردد :

— أنا لا أستطيع أن أتركها الآن ، فغدا إذا . . .

— أنا سأرحل مبكرا .

وفى الحال شبكت كولومبا يديها وصاحت قائلة :

— انتظر ياشقيقى إلى صباح غد على الأقل ، ودعنى أرَى مرة أخرى أوراق والدى . . . فانك لاتستطيع أن تأبى علىَّ ذلك .

— حسن ، سترينها هذا المساء ، لكن لا تعذبينى بعد ذلك بهذا البغض الخارج عن العقل... ألف عفو ياسيدى المحافظ... أنا نفسى أشعر بأنى متضايق جدا ، فيحسن أن يكون ذلك غدا.

فأجاب المحافظ وهو يهم بالانصراف :

— إن الليل يحمل معه النصائح ، وإنى آمل أن تنتهى ترددداتك .

وإذ ذاك صاحت كولومبا قائلة :

— سافيريا خذى المصباح ورافقى سيدى المحافظ ، وهو سيعطيك رسالة لشقيقى .

ثم أسرت إليها ببضع كلمات لم يسمعها أحد غيرها .

وبعد أن انصرف المحافظ قال أورسو لشقيقته :

كولومبا إنك آلمتنى كثيرا ، أفلا تزالين تأبين التسليم بالبديهات ؟

— لقد أمهلتنى إلى الغد ، وهذا وقت قصير ، ولكنى لا أزال أؤمل .

وعلى أثر ذلك تناولت حلقة من المفاتيح وأسرعت إلى غرفة بالطابق الأعلى ، وهناك فتحت على عجل أحد أدراج مكتب كان الكولونيل يحفظ فيه أوراقه الهامة وجعلت تبحث فيه .

١٤

تغيبت سافيريا عن المنزل وقتا طويلا ، وحينما عادت كان فروغ صبر أورسو قد بلغ أقصى حدوده . وأخيرا رآها داخلة وبيدها رسالة وخلفها شيلينا ، وهى لاتزال تدعك عينيها ، لأنها كانت قد أوقظت من نوم لم يطل مداه ، فسأل الصبية قائلا :

— أيتها الطفلة ، ماذا جئت تعملين هنا فى هذه الساعة ؟

فقالت :

— إن الآنسة قد استدعتنى .

فسأل أورسو نفسه قائلا: «ياللشيطان! ماذا تريد منها ياترى؟ غير أنه أسرع إلى فض رسالة الآنسة نيفيل وجعل يطالعها بينما صعدت شيلينا إلى حيث شقيقته ، وهاك نص تلك الرسالة :

« سيدى إن والدى كان متوعكا قليلا ، وفوق ذلك هو كسول فى الكتابة إلى حد يضطرنى إلى أن أكون كاتبته .

أنت تعرف أنه فى ذلك اليوم الذى كنا فيه معا قد بل قدميه بماء البحر بدل أن يمكث معنا ليعجب بمنظر الطبيعة ، ولا ينبغى أكثر من ذلك ليصاب الإنسان بالحمى فى جزيرتكم الساحرة. أنا أرى من هنا الملامح التى تظهر عليك حين تقرأ هذه الكلمة ، ولا ريب أنك ستبحث عن خنجرك ، ولكنى آمل أنه لم يعد لديك خناجر. والدى إذاً ، قد أصيب بقليل من الحمى ، وأنا قد أصبت بكثير من الفزع ، ولكن المحافظ لا أزال أجده لطيفا قدم إلينا طبيبا ظريفا جدا أنقذنا من ذلك المرض فى يومين ، فالنوبة لم تعد تظهر ، وولدى يريد أن يستأنف الصيد ، ولكننى أنا أحظر عليه هذا. كيف وجدت قصرك الجبلى؟ وهل برجك الشمالى لا يزال فى موضعه؟ وهل توجد فيه أشباح؟ أنا أسألك عن كل هذا ، لأن والدى يتذكر أنك وعدته بأوعال وخنازير متوحشة وكباش برية. . . ونحن نعول حينما سنذهب إلى باستيا على أن نسألك الضيافة ، وآمل أن قصر ديلاربيا الذى تقول عنه إنه جد قديم ومتهدم لاينهار فوق رؤوسنا . — إنى — ولو أن المحافظ دائما جذاب إلى حد أن الانسان لايعوزه معه موضوع للحديث الخلاب — أتباهى بأنى قد أوقعته فى حبائلى . لقد تحدثنا عن جنابك ، وإن رجال القانون فى باستيا قد بعثوا إليه ببعض اعترافات شرير سجين هى كفيلة بهدم آخر تهمك ، ولابد أن تكون عداوتك التى كانت تقلقنى أحيانا قد انقطعت الآن. فأنت

لاتتصور إلى أى حد يسرنى ذلك. حين ارتحلت مع الرثاءة الجميلة وفى يدك البندقية ، وعلى وجهك تلك النظرة الكئيبة قد بدوت لى كورسيكا أكثر من المألوف... بل كورسيكيا أكثر من اللازم. أنا أكتب إليك طويلا إلى هذه الدرجة ، لأنني ضجرة ، والمحافظ سيسافر مع الأسف وسنبعث إليك رسالة حينما نبدأ السير إلى جبالكم ، وعند ذلك سأستعمل الحرية فى الكتابة إلى الآنسة كولومبا ، لأطلب إليها أن تعد «البروشيو» والآن أبلغها مؤقتا ألف محبة من جانبى. أنا أستخدم خنجرها فى مهمة عظيمة ، وهى أنى أفتح به صفحات رواية أحضرتها ، ولكن ذلك الحديد الفظيع يحس بمهانة من هذا الاستعمال ويمزق لى كتابى بهيئة تستدعى الإشفاق. وداعا يا سيدى ، ووالدى يبعث إليك أفضل صداقاته . إصغ إلى المحافظ ، إذ هو رجل نصح قيم ، وهو فيما أظن — سيغير طريقه من أجلك ، فهو ذاهب إلى كورتيه لوضع حجر أساسى هناك ، وأنا أتخيل أن هذا الاحتفال لا بد أن يكون مهيبا جدا ، وآسف كثيرا لأنى لن أشهده : سيد ذو ملابس موشاة وجورب حريرى ووشاح أبيض يقبض بيده على مالج ويلقى خطبته ، وسينتهى هذا الاحتفال بصياح معاد ألف مرة : ليحى الملك . سيداخلك الغرور حين ترانى أكتب إليك أربع صفحات ، ولكنى ضجرة يا سيدى ، وأكرر لك ذلك ، ولهذا السبب نفسه أنا أسمح لك بأن تكتب إلىّ طويلا ، وبهذه المناسبة أنا أجد من

غير العادى أنك لم تنبئنى إلى الآن بوصولك السعيد إلى بيترانيرا .

« ليديا.

« حاشية : أنا أطلب إليك أن تصغى إلى المحافظ وأن تعمل كل ما يقوله لك ، فنحن قررنا معا أنه يجب عليك أن تفعل هكذا وهذا يسرنى . »

أعاد أورسو قراءة هذه الرسالة ثلاث مرات أو أربعا مصحبا ذلك بشروح عقلية لا تحصى ، ثم أعد إجابة طويلة عليها وكلف سافيريا بأن تحملها إلى رجل من القرية سيذهب فى نفس الليلة إلى أجاسيو. ولقد صار منذ قراءة الرسالة لا يكاد يشغل نفسه بالتفكير فى المناقشة مع شقيقته حول مبررات الحنق على باريتشينى ، ليعرف أحقة هى أم باطلة ، إذ أن هذه الرسالة قد جعلته يرى كل شئ فى لون الورد ولم يعد لديه ريب ولا حقد . وبعد أن أمضى شيئا من الوقت فى انتظار نزول شقيقته ولم يرها ذهب إلى سريره وقد أحس فى قلبه بانتعاش لم يشعر به منذ وقت طويل . وعلى أثر انصراف شيلينا مزودة بمعلومات سرية قضت كولومبا أكثر الليل فى قراءة أوراق قديمة. وقبل أن يتنفس الصبح بقليل سمعت وقع بضعة أحجار صغيرة تقذف على غضاضة نافذتها ، وإجابة لهذا الأمر نزلت إلى الحديقة

وفتحت بابا مخبوءا هناك وأدخلت إلى المنزل رجلين رديئى المظهر ، فكانت أولى عناياتها بهما أن اقتادتهما إلى المطبخ وقدمت إليهما الطعام أما من هما هذان الرجلان فذلك ما سنعرفه بعد قليل .

١٥

فى صباح اليوم التالى حوالى الساعة السادسة طرق خادم المحافظ باب منزل أورسو ، ولما استقبلته كولومبا قال لها إن المحافظ سيسافر ، وهو ينتظر شقيقها ، فأجابته بدون تردد أن شقيقها سقط من فوق السلم فتفككت قدمه ، وأنه — إذ أصبح غير قادر على أن يخطو خطوة — يلتمس إلى المحافظ أن يعذره ، وأنه يكون معترفا له بالجميل لو تنزل فمر بمنزله .

وبعد هنيهة نزل أورسو وسأل شقيقته هل المحافظ قد بعث يبحث عنه ، فأجابته بلهجة التأكيد قائلة :

— إنه يرجوك أن تنتظره هنا .

مضى على ذلك نصف ساعة دون أن يلمح أحد أقل حركة من ناحية منزل باريتشيني ، وفى هذه الأثناء سأل أورسو كولومبا : أوصلت إلى اكتشاف شئ ؟ فأجابته بأنها ستشرح ذلك أمام المحافظ . ولقد كانت تتصنع هدوءا عظيما ، ولكن لونها ونظراتها كانت تعلن عن هياج محموم .

وأخيرا رأى الناس باب منزل باريتشيني قد فتح وخرج منه المحافظ فى ملابس السفر يتبعـه العمدة وولداه ، وكم كانت عظيمة دهشة أهل بييترانيرا الذين كانوا يرتقبون منذ شروق الشمس ليشهدوا رحيل رئيس حكام المقاطعة حينما رأوا بصحبته الباريتشينيين الثلاثة يجتازون الميدان فى خط مستقيم ويدخلون منزل ديلاريبا . وإذ ذاك صاح ساسة القرية قائلين : « إنهم يتصالحون » ثم أضاف أحد الشيوخ إلى ما تقدم قوله :

— لقد كنت أقول لكم ذلك كثيرا فأورسأ نتونيو عاش بعيدا عن الجزيرة زمنا طويلا يحول بينه وبين فعل رجل ذى قلب.

فانبرى له أحد أنصار ديلاريبا وأجاب بقوله :

— ومع ذلك فينبغى أن يلاحظ أن الباريتشينيين هم الذين جاءوا إلى منزله ، فهم يطلبون العفو .

ولكن الشيخ استأنف يقول :

— إن المحافظ هو الذى أغواهم جميعاً ، واليوم لم يبق عند أحد شىء من الشجاعة ، والشبان قد أصبحوا ينشغلون بدماء آبائهم بهيئة تجعلهم يبدون كأنهم أبناء غير شرعيين .

ولما رأى المحافظ أورسو واقفاً على قدميه ، بل يسير بدون أى عناء لم تكن دهشته عادية ، غير أن كولومبا بكلمتين اثنتين اعترفت بكذبتها وطلبت إليه العفو ثم قالت :

— لو أنك كنت قد نزلت فى موضع آخر ياسيدى المحافظ لكان شقيقى قد ذهب منذ الأمس ليقدم إليك احتراماته .

وعند ذلك اعتذر أورسو بإفراط واحتج وأعلن أنه لم تكن

له أية علاقة بهذه الحيلة السخيفة التى هو شديد الخجل منها. فبدا على المحافظ والشيخ باريتشيني أنهما مقتنعان بإخلاصه فى أسفه ، وقد كان لهذا الاقتناع ما يبرره من خجله ومن التأنيب الذى وجهه إلى شقيقته ، أما ولد العمدة فلم يبْدُ عليهما الرضى ، بل إن أورلاندوشيو قال بصوت مسموع :

— إنهما يسخران منا .

وقال فيشينتيلّو :

— لو أن شقيقتى أنا لعبت معى أحد هذه الأدوار لنزعت من نفسها الرغبة فى أن تعود إلى ذلك .

ولم تَرُقْ هذه الكلمات ولا اللهجة التى نطقت بها أورسو ، بل قد أفقدته شيئاً من حسن نيته ، فتبادل مع الشابين نظرات لم ترتسم فيها أية عاطفة من عواطف الخير .

وفى هذه الأثناء كان الجميع جالسين ما عدا كولومبا فانها كانت واقفة على مقربة من باب المطبخ وقد بدأ المحافظ الكلام ، فبعد أن تناول الحديث بهيئة عادية عن أوهام هذه البلاد أعلن أن أقوى أنواع العداء الموجود بين الناس ليس له من سبب غير سوء التفاهم ، ثم وجه الكلام إلى العمدة فقال له إن السيد ديلاربيا لم يصدق قط أن أسرة باريتشيني قد ساهمت بنصيب مباشر أو غير مباشر فى تلك الحادثة المحزنة التى حرمته والده ، وأنه حقاً كان لديه شيء من الريبة فيما يتعلق بناحية خاصة من نواحى القضية التى وجدت بين الأسرتين ، وأن هذه الريبة يمكن الاعتذار عنها

بتلك الغيبة الطويلة التى غابها السيد أورسو ، وبطبيعة المعلومات التى تلقاها ولكنه الآن بعد أن أنارته اعترافات حديثة قد أصبح مقتنعاً تماما ، وهو يود أن يؤسس بينه وبين السيد باريتشيني وولديه صلات صداقة وجوار خير. فانحنى عند ذلك أورسو وعليه ملامح التضايق ، وتمتم السيد باريتشيني ببضع كلمات لم يسمعها أحد ، وكان ولداه ينظران إلى أخشاب السقف . وقد استمر المحافظ فى خطبته فهمَّ بتوجيه القسم الآخر من الحديث إلى أورسو ، ولكن كولومبا انتزعت بضع أوراق من ملابسها وتقدمت بهيئة جدية نحوهم وقالت لهم :

— كنت أود أن أرى بسرور عظيم إنتهاء الحرب بين أسرتينا ، ولكن لكى يكون الصلح كاملا ومخلصاً ينبغى توضيح كل شىء حتى لايبقى محل للشكوك . سيدى المحافظ . إن تصريح توماسو يبدولى منهما لصدوره عن رجل مشكوك فيه ، وأقول إنه من الممكن أن يكونا ولدا باريتشيني قد رأيا هذا الرجل فى سجن باستيا . . .

فقاطعها أورلاندوشيو قائلا :

— هذا باطل أنا لم أرَهْ .

فألقت عليه كولومبا نظرة احتقار وتابعت حديثها بكثير من الهدوء الظاهر قائلة :

— لقد عزوت الفائدة التى يمكن أن يجنيها توماسو من تهديد السيد باريتشيني باسم شقى رهيب إلى الرغبة التى كانت لديه فى أن يحتفظ لشقيقه تيودور بالمطحن

الذى كان والدى يؤجره له بقيمة زهيدة . أليس كذلك ؟

فأجاب المحافظ :

— هذا شىء جلى .

فقال أورسو وقد خدعته ملامح الاعتدال التى بدت على شقيقته :

— كل شىء ممكن من جانب شقى كبيانكى على مايبدو .

فاستأنفت كولومبا تقول وقد أخذت عيناها تلمعان لمعانا قويا :

— إن الرسالة المزيفة مكتوبة فى اليوم الحادى عشر من شهر يولية ، وفى هذا التاريخ كان توماسو عند شقيقه فى المطحن .

فقال العمدة وقد بدا عليه شىء من القلق :

— نعم .

و إذ ذاك صاحت كولومبا وعليها ملامح الانتصار :

— و إذاً فأية فائدة لتوماسو، مادام عقد شقيقه كان قد انتهى ؟ ففى الواقع أن والدى قد أخلى عهدته فى أول يولية ، وهذا هو سجل أبى ، ونص إخلاء العهدة ، وها هى ذى رسالة من أحد ذوى الأعمال فى أجاسيو يعرض علينا طحانا جديداً .

وبينما كانت تنطق بهذه الكلمات قدمت إلى المحافظ الأوراق التى كانت فى يدها فكانت لحظة دهش عام وامتقع لون العمدة بهيئة مرئية ، وقطب أورسو حاجبيه ثم تقدم ليطلع على الأوراق التى كان المحافظ يقرؤها بكثير من الانتباه .

وعند ذلك نهض أورلاندوشيو بغضب وصاح من جديد قائلا :

— إنهما يسخران منا ! فلنصرف ياوالدى ، بل إنه كان يجب علينا ألا نجيء قط إلى هنا !

ولقد كان مرور لحظة واحـدة كافيا لأن يستعيد السيـد باريتشينى هدوءه ، فلم يلبث أن رجع إلى حالته الطبيعية وطلب أن يختبر الأوراق فقدمها المحافظ إليه دون أن ينبس ببنت شفة ، وحينئذ رفع منظاره الأخضر إلى جبهته وأمرّ نظره على الرسالة فى شىء من عـدم الاكتراث بينما كانت كولومبـا تلحظه بعين النمرة التى ترى وعلا يقترب من مأوى صغارها . وأخيراً خفض منظاره وأعاد الأوراق إلى المحافظ ثم قال :

— بدون شك لما كان توماسو يعرف خيرية سيدى الكولونيل فقـد اعتقد . . . لا بد أن يكون قد اعتقد . . . أن سيدى الكولونيل سيعدل عن تصميمه على إخلاء عهدته . . . وفى الواقع أنه بقى مستوليا على الطحين ، وإذاً . . .

فأجابت كولومبا بلهجة احتقار قائلة :

— إنما أنا التى أبقيته له ، إذ أن والدى كان قد توفى ، وفى الحالة التى كنت فيها كان الواجب يقضى علىّ أن أحتفظ بأنصار أسرتى .

فقال المحافظ . .

— ومع ذلك فان توماسو قد اعترف بأنه هو الذى كتب الرسالة . . . وهذا شىء واضح .

فقاطعه أورسو قائلا :

— إن الواضح عندى أنا هو أن هناك وضاعة كبرى مختبئة فى هذا الموضوع .

فقالت كولومبا :

— ولدىّ أيضا ما أناقض به تصريح هؤلاء السادة .

ثم فتحت باب المطبخ ، وفى الحال خرج إلى القاعة براندولاشيو ، والعالم فى الإلهيات والكاب بروسكو ، ولقد كان هذان الشقيان بدون أسلحة فى الظاهر على الأقل ، نعم كانت حقيبة الرصاص معلقة فى حزام كل منهما ، ولكن لم يكن مع أى منهما الغدارة التى هى المتممة الضرورية لها . وعند مادخلا القاعة رفعا قبعتيهما باحترام .

ويستطيع المرء أن يدرك الأثر الذى أحدثه ظهورهما المباغت : فقد حسب العمدة أنه سيسقط إلى الوراء وألقى ولداه بنفسهما فى شهامة أمامه ، ويداهما فى جيبيهما يبحثان عن خنجريهما . أما المحافظ فقد تحرك نحو الباب بينما قبض أورسو على عنق براندولاشيو وصاح به قائلا :

— ماذا جئت تفعل هنا أيها الشقى ؟

وعلى أثر ذلك صاح العمدة قائلا :

— هذا فخ !

ثم حاول أن يفتح الباب ، ولكن سافيريا كانت قد أغلقته من الخارج إغلاقا محكما بناء عن أمر الشقيين كما عرف ذلك فيما بعد .

وإذ ذاك قال براندولاشيو :

— أيها القوم الأخيار ، لا تخافوا منى ، فأنا لست شيطانا بقدر ما أنا أسمر ، وليس عندنا أية نية سيئة ، فأنت يا سيدى المحافظ أنا خادمك المطيع . — وأما أنت يا ملازمى فأسألك شيئا من الوداعة لأنك تختنقى . — نحن جئنا هنا كشاهدين. هلم تكلم أيها القسيس فأنت ذو اللسان الذليق .

فقال العالم :

— سيدى المحافظ ، أنا لم أتشرف بأن أكون معروفا لديك ، واسمى ، جيوكانتو كاستريكونى الشهير باسم القسيس . . . آه ! الآن قد عرفتنى ! أن الآنسة التى لم أنل شرف التعرف بها أيضا قد بعثت إلىّ ترجونى أن أعطيها شيئا من المعلومات عمن يدعى ، توماسّو بيانكى ، الذى كنت سجينا معه منذ ثلاثة أسابيع فى سجن باستيا . وها هو ذا ما أقوله لكم . . .

فقاطعه المحافظ قائلا :

— لا تكلف نفسك هذا العناء ، فأنا لا أريد أن أسمع شيئا من رجل مثلك . . . وأنت يا سيد ديلاربيا أنا أود أن أصدق أنه ليس لك يد فى هذه المؤامرة البغيضة ، ولكن هل أنت سيد فى منزلك ؟ آمر بفتح هذا الباب ، أما شقيقتك فقد يكون عليها حساب تؤديه عن هذه الصلات الغريبة التى تزاولها مع الأشقياء .

فقالت كولومبا :

— يا سيدى المحافظ تنزل فاستمع ما سيقوله لك هذا الرجل ، فأنت هنا لتحقق العدالة بين الجميع ، وواجبك

هو البحث عن الحقيقة . تكلم يا جيوكانتو كاستريكونى .

فصاح الباريتشينيون الثلاثة معا كجوقة قائلين :

— لا تصغ إليه .

فاستأنف الشقى يقول باسما :

— إذا كان الجميع يتكلمون فى آن واحد فلا تكون هناك وسيلة للتفاهم . فى السجن إذا كان معى كرفيق — لا كصديق — ذلك المدعو توماسو ، وكان يستقبل زيارات متتالية من السيد أورلاندوشيو . . .

فصاح الشقيقان فى آن واحد :

— هذا زائف .

فأعلن كاستريكونى قائلا فى فتور :

— إن السلبين يساويان إيجابا واحدا ، وعلى أى حال كان مع توماسو مال ، وكان يأكل ويشرب أحسن من الآخرين ، وأنا أحب دائما الطعام الجيد ، وهذا هو أقل معائبى ، ولهذا فإنى رغم مقتى للاحتكاك بهذا الحقير — قد تركت نفسى أنزلق إلى العشاء معه عدة مرات ، واعترافا بجميله عرضت عليه أن يستفيد معى من الهروب الذى سهلت لى وسيلته سيدة كانت متصلة بى . . . ولا أريد التفصيل حتى لا ألقى الشبهة على أحد ، غير أن توماسو رفض ذلك وقال لى إنه متأكد من قضيته ، وإن المحامى باريتشينى قد أوصى عليه جميع القضاة ، وإنه سيخرج من هذا السجن نقيا كالبَرد وفى جيبه مال ، أما أنا فحسبت أنه يجب

علىَّ أن أتنسم الهواء ففررت ، ولقد قلت ما لدى .

وعند ذلك قال أورلاندوشيو بحزم :

— إن كل ما قاله هذا الرجل نسيج من الكذب ، ولو أننا كنا فى العراء وكل معه بندقيته لما تكلم على هذا النحو .

فصاح براندولاشيو قائلا :

— هذه حماقة لا تختصم مع القسيس يا أورلاندوشيو .

وحينئذ قال المحافظ بفروغ صبر وهو يضرب الأرض بقدميه :

— وأخيرا ، هل تدعنى أخرج ياسيد ديلاربيا ؟

فصاح أورسو :

— سافيريا ! سافيريا ! افتحى الباب باسم الشيطان .

وحينئذ قال براندولاشيو :

— انتظروا لحظة فينبغى قبل كل شئ أن ننصرف نحن من جانبنا ، إذ من التقاليد ياسيدى المحافظ أنه حينما يحدث لقاء عند صديق مشترك يجب أن تعطى هدنة مقدارها نصف ساعة بعد الانصراف .

وعند ذلك ألقى عليه المحافظ نظرة احتقار فلم يأبه لها واستمر يقول :

— إننى خادم الجميع .

ثم مد ذراعه بشكل أفقى وقال لكلبه :

— هلم يابروسكو ، اقفز احتراما لسيدى المحافظ !

فقفز الكلب وتناول الشقيان على عجل أسلحتهما من

المطبخ وفرًّا من الحديقة ثم رن فى الفضاء صفير حاد انفتح على أثره الباب كأنه كان مسحورا . وعلى أثر ذلك أعلن أورسو بهياج متركز مرعب قائلا :

— ياسيد باريتشينى أنا أعتبرك مزورا، ومنذ اليوم سأرسل شكواى ضدك إلى نائب الملك متهما إياك بالتزوير وبالتآمر مع بيانكى ، ومن الممكن أن يكون لدى أيضا شكوى أخرى ضدك أكثر فظاعة .

وردا على ذلك قال العمدة :

— وأنا ياسيد ديلاربيا سأرفع شكوى ضدك متهما إياك بنصب الفخ وبالتآمر مع الأشقياء . ومنذ الآن سيوصى سيدى المحافظ بك رجال الشرطة .

قال المحافظ بلهجة قاسية :

— إن المحافظ سيؤدى واجبه وسيسهر على ألا يكون النظام مضطربا فى بييترانيرا ، وسيعنى بأن تأخذ العدالة مجراها ، وأنا أتحدث إليكم جميعا أيها السادة !

وإذ ذاك كان العمدة وفيشينتيلو خارج القاعة ، وكان أورلاندوشيو يتبعهما سائرا إلى الوراء ، ووجهه متجه إلى أورسو ، فقال له هذا الأخير بصوت خافت :

— إن والدك شيخ ، ولو أردت لسحقته بصفعة ، ولكننى أحتفظ بهذه الصفعات لك ولشقيقك .

وللإجابة على هذه الجملة استل أورلاندوشيو خنجره وألقى بنفسه على أورسو كأنه مجنون رهيب ، ولكن قبل أن يتمكن من استعمال هذا السلاح قبضت كولومبا على ذراعه ولوته بقوة،

وفى هذه الأثناء ضربه أورسو بقبضة يده على وجهه ضربة قهرته بضع خطوات وصدمته بالباب فى قسوة .

سقط الخنجر من يد أورلاندوشيو ، ولكن فيشينتيلّو كان قابضا على خنجره فعاد إلى الغرفة ، غير أن كولومبا قفزت إلى البندقية وبرهنت له على أنه لايتطاول إلى مساواتها ، وفى الوقت نفسه حال المحافظ بين القاتلين .

وعلى أثر ذلك جذب أورلاندوشيو باب القاعة بعنف وأغلقه بالمفتاح ، ليمنح نفسه الوقت الكافى للفرار قائلا :

— إلى لقاء قريب ياأروس أنتون .

وحينئذ ظل أورسو والمحافظ ربع ساعة دون أن يتحادثا ، وكل منهما جالس فى طرف من القاعة ، وقد جعلت كولومبا — وكبرياء الفوز مرتسمة على جبهتها — تنظر إلى كل منهما بدوره وهى معتمدة على البندقية التى قررت الانتصار ، وأخيرا نهض المحافظ بعنف وصاح قائلا :

— أى بلاد هذه ! أى بلاد هذه ! ياسيد ديلاربيا أنت مخطىء ، وأنا أسألك كلمة الشرف أن تتجنب كل عنف وأن تنتظر حتى تقول العدالة كلمتها فى هذه القضية الملعونة .

— نعم يا سيدى المحافظ لقد أخطأت إذ وكزت هذا الوغد ، ولكنى على أى حال قد وكزته ولا أستطيع أن آبى عليه الترضية التى طلبها إلى .

— كلا إنه لا يريد أن يبارزك ! . . . ولكن إذا اغتالك . . . ولقد فعلت كل ما ينبغى فعله لهذا .

فقالت كولومبا :

— نحن سنحفظ أنفسنا

ثم استأنف أورسو يقول :

— إن أورلاندوشيو يبدو لى رجل شجاعة ، وإننى أتكهن بأنه أرفع من ذلك يا سيدى الحانظ . حقا إنه قد تسرع فى استلال خنجره ولكنى لو كنت فى مكانه لكان من الممكن أن أفعل فعلته نفسها ، واننى لسعيد بأن قبضة شقيقتى ليست قبضة سيدة ضعيفة .

فقال الحانظ :

— أنت لا تتبارز ، فأنا أحظر ذلك عليك .

— إسمح لى أن أقول لك يا سيدى إنه فيما يتعلق بالشرف لا أعترف بسلطة أخرى غير سلطة ضميرى .

— أنا أقول لك إنك لن تتبارز !

— أنت تستطيع أن تقبض علىّ يا سيدى . . . أى إذا تركت نفسى للقبض ، ولكن إذا حدث ذلك فانك لن تفعل أكثر من تأجيل عمل قد صار الآن غير ممكن التجنب إذ أنت رجل شرف يا سيدى الحافظ ، وتعرف أنه لا يمكن غير ذلك .

وعند ذلك أضافت كولومبا الى ما تقدم قولها :

— إذا قبضت على أخى فان نصف القرية سينتصر له ، وسترى معركة بنادق جميلة .

فقال أورسو :

— أنا أنذرك ياسيدى وأتوسل إليك أن تؤمن بأنى لاأتباهى ، أنذرك بأنه إذا اعتمد باريتشينى على سلطته كعمدة ليقبض على فانى سأدافع عن نفسى .

— إن السيد باريتشينى منذ اليوم موقوف عن أعماله ، وآمل أنه سيبرر موقفه ، وأنت ياسيدى تهمنى ، وما أطلبه منك هو شئ ضئيل ، وهو أن تمكث فى منزلك هادئا إلى أن أعود من كورتيه فأنا لن أتغيب إلا ثلاثة أيام ، وسأرجع مع نائب الملك ، وإذ ذاك نحل معا هذه القضية المحزنة ، فهل تعدنى بأن تتجنب إلى ذلك الوقت كل نضال ؟

— أنا لن أستطيع أن أعدك بذلك ياسيدى إذا طلب منى أورلاندوشيو — كما أعتقد — ملاقاة .

— كيف ! ياسيد ديلاربيا ، أنت ضابط فرنسى فهل تريد أن تبارز رجلا تتهمه بالتزوير ؟

— لقد وكزته ياسيدى .

— لكن لو أنك وكزت مجرما وطلب إليك غسل هذه الإهانة ، فهل تتبارز إذاً معه ؟ إصغ إلىَّ ياسيد أورسو ! أنا أطلب إليك شيئا أقل من ذلك هو ألاّ تبحث عن أورلاندوشيو . . . وأنا أسمح لك بالمبارزة إذا طلب منك وعدا .

— إنه سيطلب إلى ذلك بدون شك ، ولكنى أعدك بألا أعطيه وكزة أخرى ، لألزمه بالمبارزة .

فقال المحافظ وهو يسير فى الحجرة بخطوات واسعة :

— أى بلد هذا ! ومتى ساعود إذاً إلى فرنسا !

وحينئذ قالت كولومبا بصوت عذب :

— سيدى المحافظ إن الوقت قد تأخر ، فهل تشرفنا بالإفطار عندنا ؟

فلم يستطع المحافظ أن يمنع نفسه من الضحك ثم قال :

— لقد مكثت فى منزلكم وقتا أكثر من اللازم ، وهذا يشبه أن يكون تحيزا . . . وذلك الحجر الأساسى الملعون ! . . . ينبغى أن أرتحل . . . ياآنسة ديلاربيا . . . كم عسى أن تكونى قد أعددت اليوم من الكوارث !

— يا سيدى المحافظ إنك على الأقل ستعدل با زاء شقيقتى فتؤمن بأن أفكارها عميقة وإنى الآن موقن بأنك أنت نفسك مؤمن بثباتها .

غير أن المحافظ أشار إليه بيده وقال :

— وداعا يا سيدى أنا أنذرك بأنى أصدرت إلى رئيس الشرطة أمرا بأن يتعقب كل خطواتك .

وبعد أن خرج المحافظ قالت كولومبا :

— أورسو ، أنت هنا لست فى القارة الأوربية ، وأورلاندوشيو لا يفهم شيئا من مبارزاتك ، وفوق ذلك فان هذا الشقى يجب ألا يموت ميتة الشجاع .

— عزيزتى كولومبا أنت المرأة القوية [1] وإننى مدين لك بانقاذى من طعنة سكين قاتلة ، فأعطينى يدك الصغيرة

---

(١) يريد أورسو هنا أن يشبه شقيقته بالمرأة القوية التى ورد ذكرها فى الانجيل . (المترجم)

لأقبلها ، ولكن دعيني أفعل ، لأن هناك أشياء لا تفهمينها وأعدى لى الإفطار ، وعند ما يرتحل المحافظ أحضرى لى شيلينا التى يبدو أنها تقوم بالمهمات التى تكلف بها بهيئة جديرة بالاعجاب ، فأنا محتاج إليها لتحمل رسالة .

وبينما كانت كولومبا تشرف على إعداد طعام الافطار صعد أورسو إلى غرفته وكتب الرسالة الآتية :

« لا بد أن تكون راغبا فى لقائى على عجل ، وأنا لست أقل منك رغبة فى هذا. ففى صباح الغد نستطيع أن نلتقى عند الساعة السادسة فى وادى دى أكوافيفا. أنا جد ماهر فى استعمال الغدارة، ولهذا لا أعرض عليك ذلك السلاح ويقال إنك تجيد إطلاق البندقية فليأخذ كل منا بندقية ذات طلقتين وسأجىء برفقة رجل من أهل هذه القرية ، وإذا كان شقيقك يريد أن يرافقك فخذ شاهدا آخر وأنبئنى بذلك ، إذ أنى فى هذه الحالة فقط سأصطحب شاهدا ثانيا .

« أورسو أنتونيو ديلاربيا . »

وبعد أن مكث المحافظ ساعة عند نائب العمدة وأمضى عند البازيتشينيين بضع دقائق ارتحل إلى كورتيه يرافقه شرطى واحد ، وبعد ربع ساعة من تلك اللحظة حملت شيلينا الرسالة التى قرأناها آنفا وأوصلتها إلى أورلاندوشيو يدا بيد .

ولم تكن الاجابة سريعة ، إذ لم تصل إلا فى المساء وكانت موقعة من السيد باريتشينى الوالد وقد أعلن فيها إلى أورسو أنه سيبعث إلى نائب الملك برسالة التهديد الموجهة منه

إلى ابنه ثم ختم رسالته بقوله : « إننى — وأنا قوى بضميرى — سأنتظر إلى أن تقول العدالة كلتها فى اتهاماتك الباطلة » .

وفى هذه الأثناء وصل بأمر كولومبا خمسة رعاة أو ستة ليقيموا فى برج ديلاربيا ، ورغم احتجاجات أورسو وضعوا المتاريس فى النوافذ المطلة على الميدان وأحدثوا فيها فتحات. وقد أمضى أورسو المساء كله فى استقبال شخصيات مختلفة من رجال القرية جاءوا ليعرضوا عليه مساعداتهم ، بل قد تسلم من الشقى الاهلى رسالة يعده فيها باسمه وباسم براندولاشيو ، أن يتدخلا إذا استعان العمدة بالشرطة ، وكانت هذه الرسالة تنتهى بالحاشية الآتية : « هل أجرؤ على أن أسألك ماذا يعتقد سيدى المحافظ فى تلك التربية الفاخرة التى نشأ عليها صديقى كلبه بروسكو ؟ إذ أنى لا أعرف بعد شيلينا تلميذا أطوع منه يبدى استعدادات سعيدة . »

١٦

مر اليوم التالى بدون أية معركة ، بل كان كل من الفريقين يقف عند حد الدفاع ، فلم يبرح أورسو منزله ، وظل باب باريتشينى مغلقا باستمرار. وكان الناس يرون رجال الشرطة الخمسة الذين تركوا فى بييترانيرا يغدون ويروحون فى الميدان أو فى الدوائر المحيطة بالقرية يعينهم على الرقابة حارس الغابة. ولم يكن نائب العمدة يخلع وشاحه الرسمى ، غير أنه

– فيما عدا الاستحكامات الموجودة خلف نوافذ العدوين – لم يكن هناك شيء يؤذن بالحرب ، ولا يوجد إلا الكورسيكى وحده هو الذى لا يفوته أن يلاحظ أنه لا يرى أحد فى الميدان حول السنديانة إلا النساء .

وفى ساعة العشاء أطلعت كولومبا شقيقها ، وعليها ملامح المرح ، على الرسالة التى تسلمتها من الآنسة نيفيل وهى :

« عزيزتى الآنسة كولومبا لقد علمت مع كثير من السرور عن طريق رسالة من شقيقك أن عداواتكم قد انتهت فتقبلى تهنئاتى على ذلك . إن والدى لم يعد يحتمل الاقامة فى أجاسيو منذ أن صار شقيقك غير موجود فيها ليحادثه عن الحرب وليصطاد معه ، سنسافر اليوم وسنقضى الليلة عند قريبتك التى معنا رسالة إليها وبعد غد حوالى الساعة الحادية عشرة سأجىء وسأطلب منك أن تذيقينى « بروشيو » الجبل التى تقولين إنها أشهى من بروشيو المدينة .

وداعا يا عزيزتى الآنسة كولومبا – صديقتك ليديا نيفيل » .

فصاح أورسو قائلا :

– ألم تتسلم إذاً رسالتى الثانية ؟

– أنت ترى من تاريخ رسالتها أنها لا بد من أن تكون فى الطريق حينما وصلت رسالتك إلى أجاسيو ، هل طلبت إليها ألا تجىء ؟

— قلت لها إننا فى حالة حرب ، وليست هذه ، فيما يبدو لى حالة استقبال الزائرين .

— أوه ! إن الانجليز قوم غريبون فلقد كانت تقول لى فى الليلة الأخيرة التى أمضيتها فى غرفتها إنه سيغضبها أن تغادر كورسيكا بدون أن تشاهد « فانديتا » جميلة فاذا أردت يا أورسو أن تهدى إليها منظر هجوم عنيف ضد منزل أعدائنا فانك تستطيع ذلك .

— هل تعرفين يا كولومبا أن الطبيعة قد أخطأت فى جعلك امرأة ، وأنها كانت تستطيع أن تصنع منك جنديا باسلا ؟

— قد يكون ذلك ، وعلى أى حال أنا سأذهب لأعد البروشيو .

— هذا عبث ، وينبغى إرسال أحد لينذرهما ويقفهما قبل أن يبدآ سيرهما .

— نعم أنت تريد أن تبعث رسولا فى هذا الوقت لكى يحمله السيل هو ورسالتك . . . كم أنا أرثى للطرداء المساكين فى هذه العواصف ! ولكن لديهم من حسن الحظ معاطف من الجوخ ، فهل تعرف ما ينبغى عمله يا أورسو ؟ إذا هدأت العواصف فسافر غداً مبكراً ، لتكون فى منزل قريبتنا قبل أن يبدأ صديقاك سيرهما ، وسيكون هذا سهلا عليك لأن الآنسة ليديا تستيقظ دائما متأخرة . وإذ ذاك ستقص عليهما مايجرى عندنا ، فاذا أصرا على المجىء، فسنستقبلهما بسرور عظيم .

فأسرع أورسو بإبداء موافقته على هذا المشروع ، وبعد لحظة صمت استأنفت كولومبا تقول :

— من الممكن أن تكون قد حسبت أننى كنت أمزح حين حدثتك عن الهجوم على منزل بار يتشينى ، فهل تعرف أن نسبة قوتنا إلى قوتهم هى نسبة الاثنين إلى الواحد على الأقل ؟ إذ منذ أن وقف المحافظ العمدة قد أصبح أكثر رجال القرية فى صفنا ، فنحن نستطيع أن نسحقهم ، وسيكون من السهل أن نبدأ العمل ، وإذا أردت فاننى سأذهب إلى الحوض وسأسخر من نسائهم فيخرجون . . . قد يكون ذلك ممكنا لأنهم وضعاء إلى حد بعيد ! ومن الممكن أيضاً أن يطلقوا علىّ الرصاص ، ولكنهم سيخطئوننى ، وعند ذاك سينتهى كل شىء ، وسيكونون هم المهاجمين ؛ والويل للمنهزم ، على أنه منذا الذى يستطيع — فى وسط المعركة — أن يعين الضارب فصدق شقيقتك يا أورسو ، إذ أن ذوى الأرواب السوداء (١) سيسودون أوراقا وسينطقون بلغو الكلام ، ولكنه لن ينتج من كل شىء ، لأن ذلك الثعلب العجوز سيجد من الوسائل ما يريهم بهم نجوما فى الظهر . آه ! لو أن المحافظ لم يقف أمام فيشينتيلو ، لكانوا الآن قد نقصوا واحدا .

ولقد نطقت بكل هذه العبارات فى نفس الهدوء الذى كان يظهر عليها فى اللحظة السالفة أثناء كانت تتحدث عن إعداد البروشيو .

---

(١) ذوو الأراوب السوداء هم رجال القانون .

وعند ذلك دهش أورسو دهشا عظيما وجعل ينظر إلى شقيقته باعجاب تمازجه الرهبة . وأخيرا قال لها وهو يغادر المائدة :

— عزيزتى كولومبا أنا أخشى أن تكونى أنت الشيطان شخصياً ، ولكن كونى مطمئنة ، فأنا إذا لم أصل إلى شنق الباريتشينيين فاننى سأجد السبيل إلى الانتهاء معهم بوسيلة أخرى « فإما رصاصة حامية وإما حديد بارد » كما يقولون هنا ، وبهذا ترين أننى لم أنس الكورسيكية .

فتنهدت كولومبا وقالت :

— خير البر عاجله ، وأى جواد ستركب غدا يا أورسن أنتون ؟

— الأسود ، ولماذا تسألين عن هذا ؟

— لأطعمه شعيرا .

وعلى أثر ذلك انسحب أورسو إلى غرفته وأرسلت كولومبا سافيريا والرعاة إلى مخادعهم وبقيت وحدها فى المطبخ تعد البروشيو . ومن وقت إلى آخر كانت تصغى كأنها تنتظر نوم شقيقها بفروغ صبر . وأخيراً حينما ظنت أنه قد نام تناولت سكينا وتحققت من انشحاذ هاثم انتعلت حذاء ضخمة وانزلقت إلى الحديقة بدون أقل ضجيج .

وكانت تلك الحديقة المحوطة بالأسوار تتصل بحقول واسعة مسيجة بأشجار قد أعدت للجياد ، لأن الجياد الكورسيكية لا تعرف الحظائر ، وإنما يرسلها أربابها فى الحقول ويعتمدون

على ذكائها فى أن تكتشف طعامها ومآويها من البرد والمطر .

فتحت كولومبا باب الحديقة بنفس الاحتياط ودخلت الحقل وصفرت صفرة خافتة فأسرعت نحوها الجياد ، إذ أنها كثيراً ما كانت تحضر لها الخبز والملح . وعند ما صار الجواد الأسود فى متناول يدها ، قبضت بقوة على معرفته وشقّت أذنه بسكينها فقفز الجواد قفزة فظيعة وفر صارخاً تلك الصرخة الحادة التى يتزعها الألم القاسى من حيوانات نوعه .

و إذ ذاك عادت كولومبا إلى الحديقة مغتبطة ، وفى نفس اللحظة فتح أورسو نافذته وصاح قائلا : « من هنا ؟ » وفى الوقت عينه سمعته يحشو بندقيته . ومن حسن حظها أن باب الحديقة كان فى ظلام دامس ، وأن إحدى شجرات التين الباسقة كانت تخفى جزءا منه . ولما استنتجت كولومبا من النور الذى كان يبدو ويختفى فى غرفة شقيقها أنه كان يحاول إيقاد مصباحه ، أسرعت إلى إغلاق باب الحديقة وانزلقت إلى جانب الحائط بهيئة جعلت ملابسها السوداء تختلط بأوراق الأشجار القاتمة . وقد تمكنت من العودة إلى المطبخ قبل ظهور شقيقها ببضع لحظات ، وعند ما رأته سألته قائلة :

— ماذا حدث ؟

— خيل إلىّ أن أحداً كان يفتح باب الحديقة .

— هذا مستحيل ، لأنه لو حدث هذا لنبح الكلب ، ومع ذلك ، فهيّا لنرى .

فطاف أورسو بالحديقة ، وبعد أن لاحظ أن الباب

الخارجي محكم الاغلاق أحس بشيء من الخجل من هـذا الفزع الباطل وهم بالعودة الى غرفته ، ولكن كولومبا قالت له :

— يا شقيقى أنا أحب أن أراك متبصرا كما يجب أن يكون المرء فى موقفك .

— أنت تكونيننى ؟ عمى مساء .

وفى الصباح عند الفجر نهض أورسو واستعد للسفر ، وكانت ملابسه تنم عن ادعاء الأناقة من جانب شاب سيتقدم إلى سيدة يريد أن يروقها ، وفى الوقت نفسه يبدو عليه احتياط الكورسيكى الذى يستعد للانتقام ، إذ أنه فوق الريدانجوت الزرقاء الذى تضغط خصره قد علق فى عنقه بحبل حريرى أخضر علبة معدنية بيضاء تحتوى على الطلقات ، وكان خنجره موضوعا فى أحد الجيوب الجانبية ، وكانت فى يده بندقية جميلة من ماركة مانتون محشوة بالرصاص . وبينما كان يتناول على عجل فنجانا سكبته له كولومبا خرج أحد الرعاة ليسرج له الجواد ، وبعد قليل تبعه أورسو وشقيقته فدخلا الحقل . وكان الراعى قد قبض على الجواد ، ولكنه ترك السرج والعنان يسقطان على الأرض وبدا عليه الذعر ، وفى هذه الأثناء كان الجواد المرتاع من ذكرى الليلة الماضية الخائف على أذنه الأخرى يقف على قائمتيه الخلفيتين حينا ويضرب بهما حينا آخر ، ويصهل حينا ثالثا . وعلى الجملة كان كأنه الشيطان فى ضجيجه وعجيجه ، فصاح أورسو بالراعى قائلا :

— هلم أسرع .

— آه ! ياأورس أنتون! آه! ياأورس أنتون ! بدم العذراء !

جعل الراعى يصيح بمثل هذه العبارات التى ليس من الممكن ترجمة أكثرها ، وحينئذ سألته كولومبا قائلة :

— ماذا حدث إذاً ؟

وعلى أثر ذلك اقترب الجميع من الجواد ، فلما رأوا الدم يتقاطر من أذنه المشقوقة بدت عليهم ملامح الدهش والغضب للكرامة ، فينبغى أن يعرف أن قطع شئ من أطراف جواد العدو ، وهو عند الكورسيكيين بمثابة انتقام وتحد وتهديد بالموت فى الوقت عينه ، وليس هناك شئ خليق يمحوه إلا طلقة بندقية . وعلى الرغم من أن أورسو عاش زمنا طويلا فى القارة قد أحس أقل من غيره بفداحة الإهانة فانه من المحتمل أنه لو تقدم إليه أحد الباريتشينيين لتقاضاه على الفور ثمن هذه السبة التى كان يعزوها إلى أعدائه ثم صاح قائلا :

— يا لهم من أشرار وضعاء . إنهم ينتقمون على هذا النحو من حيوان مسكين بينما هم لا يجرؤون على مواجهتى .

وعند ذلك صاحت كولومبا بحماس قائلة :

— ماذا تنتظر ؟ أهم يجيئون ليتحدونا ويمثلوا بجيادنا ونحن لا نجاوبهم ؟ هل أنتم رجال ؟

وإذ ذاك صاح الرعاة قائلين :

— هيا إلى الانتقام . لنسير الجواد فى القرية ، ولنبدأ الهجوم على منزلهم .

ثم أعلن الشيخ بولوّ جريفو قائلا :

— إنه يوجد مخزن مغطى بالقش ملاصق لبرجهم ، ففى لمح البصر أجعله يلتهب .

وقد اقترح شخص آخر إحضار المصاعد من برج الكنيسة ، واقترح ثالث كسر باب منزل الباريتشينيين بوساطة قطعة خشبية كانت ملقاة فى الميدان معدة لبناء أحد المنازل ، وفى وسط كل هذه الأصوات المزعجة كان صوت كولومبا يسمع معلنا أنه قبل البدء فى العمل ينبغى أن يقدم إلى كل واحد منهم قدح من الشراب .

غير أن النتيجة التى منّت نفسها بها عن طريق قسوتها نحو هذا الجواد المسكين ، كانت من سوء الحظ أو بالأحرى من حسنه قد انمحى أكثرها من نفس أورسو . نعم إنه لم يكن يرتاب فى أن هذا التشويه الوحشى كان من فعل أحد أعدائه ، وكان يتهم به أورلاندوشيو على الأخص ، ولكنه لم يكن يظن أن هذا الشاب الذى وكزه هو ودعاه فى تحد إلى المبارزة قد غسل إهانته بشقه أذن جواد ، بل إن هذا الانتقام الوضيع المضحك قد ضاعف على العكس احتقاره لخصومه وجعله يعتقد — مع المحافظ — أن قوما كهؤلاء غير جديرين بمساواته . وعند ما استطاع أن يسمع الحاضرين صوته أعلن إلى أنصاره الذين أذهلهم الدهش أنه يجب عليهم التخلى عن نياتهم الحربية ؛ إذ أن العدالة ستنتقم لأذن الجواد ثم أضاف إلى ما تقدم قوله فى لهجة قاسية :

— أنا السيد هنا ، وأريد أن أطاع ، فمن يصمم على التحدث مرة أخرى عن القتل أو عن الإحراق فانني أستطيع بدورى أن أحرقه هو . هيا أعدوا لى الجواد الرمادى .

ولكن كولومبا انتحت به ناحية وقالت له :

— كيف يا أورسو؟ أتحتمل أن نهان ؟ إن الباريتشينيين فى حياة والدنا لم يكونوا يجرؤون على تشويه حيوان لنا .

— أنا أعدك بأنهم سيندمون ، ولكن رجال الشرطة وحراس السجن هم وحدهم الذين يعاقبون الأشرار الذين لا يأنسون من أنفسهم الشجاعة إلا ضد الحيوانات . ولقد قلت لك إن العدالة ستنتقم لى منهم . . . فان لم تفعل فأنت لن تكونى فى حاجة إلى تذكيرى بمن أنا ابنه . . .

فتنهدت كولومبا وقالت

— صبرا . . .

— تذكرى تماما ياشقيقتى أننى إذا وجدت عند عودتى أنه قد حدثت مظاهرات ضد الباريتشينيين فاننى لن أغفر لك ذلك أبدا .

ثم أضاف الى هذا قوله بلهجة أكثر وداعة :

— إنه من الممكن بل من الراجح أننى سأعود مع الكولونيل وابنته فاعملى على أن تكون غرفتاهما منتظمتين وأن يكون الغداء جيدا .وقصارى القول : إعملى على أن يلحقهما من العناء أقل قدر ممكن ، فحسن جدا يا كولومبا أن يكون لدى السيدة شجاعة ، ولكن ينبغى لها أيضا أن تعرف كيف

تدير المنزل . هلمى قبلينى وكونى متعقلة ، فها هو ذا الجواد الرمادى قد أسرج .

— أورسو ، لن تسافر منفردا .

— أنا لست فى حاجة إلى أحد ، وإنى أتعهد لك بأنى لن أدع أذنى تقطع .

— أوه ! أنا لن أدعك أبدا تخرج وحدك فى وقت الحرب . هيا بولّو جريفو ! جيانو ! فرانشيه ! ميمّو ! خذوا بنادقكم فانكم سترافقون شقيقى .

وبعد مناقشة حارة أذعن أرسو وترك الموكب يرافقه واختار من بين رعاته أكثرهم حماسا وأرفعهم صوتا فى الدعاء إلى الحرب . وأخيرا وبعد أن جدد أوامره إلى شقيقته والى الرعاة الباقين شرع فى السير متخذا هذه المرة طريقا منعطفا ليتجنب منزل الباريتشينيين .

وبعد أن ابتعدو عن بييترانيرا ، وبينما كان يسرعون فى السير مجتازين جدولا صغيرا غلبت الأحوال على مائه لمح الشيخ بولوّ جريفو عدة خنازير راقدة فى الأوحال مستمتعة فى الوقت عينه بحرارة الشمس وبرطوبة الماء ، فصوب الى رأس أضخمها رصاصة قتلته فى الحال ولم تر بقية الخنازير ماحل برفيقها حتى فرت بخفة مدهشة . ورغم أن الراعى الآخر أطلق عليها بندقيته فانها قد وصلت الغابة سالمة واختفت فيها .

وحينئذ قال أورسو :

— أيها الغبيان هل تحسبان هذه الخنازير برية ؟

غير أن بولو جريفو أجابه بقوله :

— كلا ياأورس أنتون ، ولكن هذا القطيع للمحامى ، وقد فعلنا ذلك لنعلمه كيف يشوه جيادنا .

فصاح أورسو قائلا وقد تملكه الغضب :

— كيف أيها الوغدان أتجاريان أعداءنا فى وضاعتهم ! دعانى أيها الشقيان فلست فى حاجة إليكما ، ولستما صالحين إلا لمقاتلة الخنازير ، وأقسم أنكما لو جرؤتما على متابعتى لحطمت رأسيكما !

فنظر كل من الراعيين إلى الآخر نظرة ذهول ولم يلبث أورسو أن غمز جواده بالمهماز ثم غاب عن الانظار .

فلما رأى بولو جريفو ذلك قال :

— حسن ، هذا شئ جميل ، أحبب الناس إذاً ، ليعاملوك هذه المعاملة ! إن الكولونيل والده قد حنق عليك لأنك صوبت بندقيتك مرة إلى المحامى . . . ولقد كنت شديد الغباوة إذ لم تطلقها فى ذلك اليوم ! . . . والابن . . . أنت ترى ماذا فعلت لأجله . . . وهو يتحدث عن تحطيم رأسى كما يتحدث عن تحطيم قِدْرٍ لم يعد صالحا لاحتواء النبيذ ، وهذا هو الذى يتعلمونه فى القارة ياميمّو !

— نعم ، وإذا عرف الباريتشينيون أنك أنت الذى قتلت هذا الخنزير فسيقاضونك ، وأروس أنتون لايريد أن يكلم القاضى ولا يدفع أتعاب المحامى ، لكن من حسن الحظ أنه لم يرك أحد ، وإن القديسة نيجا ستخلصك من هذه المشكلة .

وبعد حوار قصير اتفق الراعيان على أن الحكمة تقضى بإلقاء الخنزير فى حفرة وقد نفذا هذا المشروع بعد أن أخذ كل منهما شواء جيدا من ضحية عداء ديلاربيا وباريتشينى البريئة .

١٧

بعد أن تخلص أورسو من موكبه المتمرد تابع سيره يتملكه سرور رؤية الآنسة نيفيل أكثر من رهبة الالتقاء بأعدائه ، وجعل يحدث نفسه على النحو الآتى : « إن القضية التى ستكون بينى وبين أولئك الباريتشينيين الأشقياء ستضطرنى إلى الذهاب إلى باستيا فلماذا لا أرافق الآنسة نيفيل إليها ؟ ولماذا لا نذهب معا من باستيا إلى مياه أوريزا ؟ » ولم يكن ذلك يخطر له حتى قذفت ذكريات الطفولة بغتة إلى نفسه فى وضوح بهذا المكان الشعرى فحسب أن شيئا نقله إلى بساط من الأعشاب الخضراء تحت إحدى شجرات الكستناء التى ترجع إلى عدة قرون وخيل إليه أنه انتثرت فوق العشب أزهار زرقاء تشبه عيونا تبتسم له ، وأنه يرى الآنسة ليديا جالسة إلى جانبه وقد رفعت قبعتها فجعل شعرها الأشقر الذى هو أدق وأنعم من الحرير يتلألأ كالذهب فى الشمس التى ترسل أشعتها من خلال أوراق الأشجار . وكانت عيناها الزرقاوان تبدوان له أنقى وأكثر زرقة من السماء ، وكان يتمثلها معتمدة

بأحد خديها على يدها تصغى غارقة فى التفكير ، إلى كلمات الحب التى كان يوجهها إليها مضطربا . وكانت مرتدية ذلك الثوب الحريرى الخفيف الذى كانت ترتديه حين رآها للمرة الأخيرة فى أجاسيو ، وفى أسفل ثنايا هذا الثوب كانت قدم دقيقة تبدو فى حذاء من ستان أسود . وكان أورسو إذ ذاك يحدث نفسه بأنه يكون سعيدا بتقبيله هذه القدم . ولكن إحدى يدى الآنسة ليديا كانت خارجة من القفاز وكانت قابضة على أقحوانة ، وقد هم أورسو بأخذها منها ، وجعلت هى تضغط على يده ، ثم قبل الأقحوانة واليد التى تمسكها فلم تغضب . . . كانت هذه الأخيلة تحول بينه وبين الانتباه إلى الطريق الذى يتابعه ، ومع ذلك فقد كان سائرا. وبينما كان يهم بأن يقبل فى الخيال للمرة الثانية يد الآنسة نيفيل البيضاء إذ به يتنبه إلى أنه كاد يقبل فى الحقيقة رأس جواده الذى توقف عن السير فجأة. فلما انتبه رأى أن شيلينا هى التى اعترضت طريقه وقبضت على عنان الجواد وقالت له :

— أين تذهب هكذا يا أورس أنتون ؟ ألا تعلم أن عدوك قريب من هذا المكان ؟

فصاح أورسو وقد بدا عليه الغضب لما قطعت عليه الطفلة خياله فى لحظة شيقة إلى هذا الحد قائلا :

— عدوى أين هو ؟

— إن أورلاندوشيو قريب من هنا ، وهو ينتظرك إرجع إرجع !

— آه ! هو ينتظرني هل رأيته ؟

— نعم يا أورس أنتون لقد كنت نائمة بين الأعشاب حين مر ، وكان ينظر إلى جميع النواحي بمنظاره .

— وإلى أية ناحية كان متجها ؟

— إنه كان متجها إلى هذه الجهة التي أنت سائر إليها .

— شكرا يا شيلينا .

— يا أورس أنتون ، ألا تحسن صنعا لو أنك انتظرت عمي ؟ إنه لا يمكن أن يتأخر ، وإنك معه ستكون في أمن .

— لاتخشي شيئا يا شيلينا ، فأنا لست في حاجة إلى عمك .

— إني سأتقدمك إذا أردت .

— شكرا شكرا .

نطق بهذه العبارة ودفع جواده ، فانزلق في سرعة نحو الجهة التي عينتها له الطفلة وكانت حركته الأولى استشاطة عمياء ، وكان يقول في نفسه : إن الحظ قدم إليه فرصة فاخرة لإصلاح هذا الوضيع الذي شوه جوادا ، لينتقم لنفسه ممن وكزه . ولكنه لم يكد يتقدم في السير حتى تذكر العهد الذي قطعه على نفسه للمحافظ ، وقد خشي أكثر من ذلك أن تفوته زيارة الآنسة نيفيل فتغيرت استعداداته وتمنى تقريبا ألا يلتقي بأورلاندوشيو . غير أن ذكرى والده والإهانة التي وجهت إليه عن طريق جواده وتهديدات الباريتشينيين لم تلبث أن ألهبت سخطه من

جديد وأهاجته إلى البحث عن عدوه ليتحداه ويضطره إلى مبارزته . وعلى هذه الحالة التى تتناوبه فيها تصميمات متعارضة أخذ يتابع سيره . ولكن فى شيء من الاحتياط جعله يتأمل الأحراش والأدغال ، بل كان يتوقف أحيانا عن السير ليصغى إلى الضجيج المتموج الذى يسمعه الإنسان عادة فى الحقول . وبعد أن مرت عشر دقائق على مغادرة شيلينا ، وكان ذلك حوالى الساعة التاسعة صباحا ، ألقى نفسه إلى جانب تل سريع الانحدار ، وكان الممر الذى يسير فيه يخترق غابة حديثة الاحتراق ، وكانت الأرض فى هذا الموضع ممتلئة بالرماد على مسافات متفاوتة يرى الناظر فيها أشجارا صغيرة أو كبيرة صيرتها النار سوداء وجردتها من أوراقها ، وهى لا تزال قائمة رغم أنها فارقت الحياة . فكان المرء يخيل إليه أنه انتقل إلى أحد بلاد الشمال فى قلب الشتاء ، وكان التباين بين جدب هذا الموضع الذى اجتاحه اللهب وبين الخضرة الممتعة التى تكسو ما حوله يجعله أكثر كآبة وقبضا للنفوس . ولكن أورسو فى هذه اللحظة لم يكن يرى فى هذا المنظر إلا شيئا واحدا هاما بالنسبة إلى حالته ، وهو أن الأرض العارية لا يمكن أن تخفى تربصا . ولا جرم أن من يخشى فى كل لحظة أن يرى بندقية مصوبة إلى صدره يعتبر الأرض المنبسطة المكشوفة منجاة لحياته . وبعد هذه الغابة المحترقة كانت هناك حقول منزرعة تتعاقب حسب عرف البلاد مسيجة بأسوار من أحجار خشنة على ارتفاع نصف قامة ، وكان المشى

بعد اجتياز الغابة يمر من بين هذه الحقول المسيجة التى تحتوى على أشجار الكستناء الضخمة المغروسة على غير نظام والتى يلوح عليها من بعد منظر غابة كثيفة .

ولما كان أورسو — بسبب انحدار التل المباغت — مضطرا إلى الترجل فقد نزل عن جواده وترك عنانه على غاربه وجعل ينزلق سريعا على الرماد ولم يكن إلا على بعد خمس وعشرين خطوة من أحد هذه الأسوار الحجرية عن يمين الطريق ، إذ لمح فى وضوح تجاهه أولا بندقية ثم رأسا يجتاز قمة السور . وعلى الفور رأى البندقية تنخفض قليلا وتبين أورلاندوشيو يتهيأ للإطلاق ، فأسرع أورسو للدفاع عن نفسه ، وفى الحال أسند كل منهما خده إلى بندقيته ونظر الى الآخر بضع ثوان بذلك الانفعال العنيف الذى يشعر به أشجع الناس فى لحظة إعطاء الموت أو تسلمه ثم صاح أورسو قائلا :

— أيها الشقى الوضيع . . .

وكان لايزال يتكلم حينما رأى لهيب بندقية أورلاندوشيو ، وفى الوقت نفسه تقريبا فوجىء من يساره بطلقة أخرى صوبها إليه من الجانب الثانى من الممر رجل لم يكن قد لمحه وكان قد سددها إليه وهو مختبئ خلف سور آخر ، فأصبته الرصاصتان . فأما الرصاصة أورلاندوشيو فقد اخترقت ذراعه اليسرى التى كان تسديده هو قد عرضها للخصم وأما الأخرى فقد صوبت الى صدره ، ولكنها لحسن الحظ اصطدمت بخنجره فلم تحدث من أثر غير تمزيق ملابسه وسجحة خفيفة . وفى الحال ارتخت ذراعه

لا حراك بها إلى جانب فخذه وانخفضت بندقيته لحظة ولكنه لم يلبث أن رفعها وصوبها بيده اليمنى وحدها وأطلقها على أورلاندوشيو . وعلى أثر ذلك اختفى وراء السور رأس عدوه الذى لم يكن يبدو إلا إلى عينيه ثم التفت الى يساره وسدد رصاصة ثانية الى رجل كان محوطا بالدخان إلى حد أنه كان لا يكاد يلمحه فاختفى هذا الوجه كذلك بدوره . تتابعت هذه الطلقات الأربع بسرعة غير قابلة للتصديق ، وبعد طلقة أورسو الأخيرة عاد كل شئ إلى الصمت المطلق وجعل الدخان المتصاعد من بندقيته يرتفع فى بطء نحو السماء ، ولم تَعُدْ أية حركة تسمع خلف السورين ، بل ولا أقل ضجيج . ولولا الألم الذى كان يشعر به فى ذراعه لاستطاع أن يحسب أن الرجلين اللذين أطلق عليهما بندقيته كانا شبحين من خلق خياله .

ولما كان يتوقع طلقة أخرى فقد خطا بضع خطوات ، ليقف خلف إحدى الشجرات المحترقة التى ظلت منتصبة فى الغابة . ووراء هذا المأوى وضع بندقيته بين ركبتيه وحشاها على عجل ، ومع ذلك فإن ذراعه اليسرى كانت تؤلمه فى قسوة ، وكان يخيل إليه أنه يحمل عبئا هائلا . ماذا حدث لخصميه ؟ إنه لا يستطيع أن يفهم . لو أنهما كانا قد فرا أو جرحا لسمع شيئا من الضجيج أو من الحركة فى أوراق الأشجار . وإذاً فهل ماتا أو بالأحرى هل هما ينتظران مختبئين خلف سوريهما فرصة للإطلاق عليه من جديد ؟ . . .

وفى هذه الريبة أحسَّ أن قواه تضعف فأسند إحدى ركبتيه

إلى الأرض ووضع على الأخرى ذراعه المصابة واستخدم غصنا من الشجرة المحترقة ليسند إليه بندقيته ، ووضع إصبعيه على الغماز ، وعيناه محدقتان الى السورين ، وأذناه مصغيتان الى أقل حركة ، وظل على هذه الحال بضع دقائق بدت له كأنها قرون. وأخيرا سمع خلفه صيحة على بعد ، وعلى أثر ذلك رأى كلبا ينحدر من فوق التل فى سرعة السهم حتى وقف الى جانبه وجعل يحرك ذنبه ، وكان ذلك الكلب بروسكو تلميذ الشقيين ورفيقهما جاء معلنا بدون ريب وصول سيده . ولم يكن هناك رجل شريف منتظر بفراغ صبر أكثر من هذا الشقى . فجعل الكلب يرفع رأسه فى الهواء ويقترب من السور وهو يتنسم فى قلق . وفجأة نبح نبحة مكبوتة ثم اجتاز السور قافزاً إلى الجانب الآخر ولم يلبث أن صعد إلى قمته وأخذ يحدق إلى وجه أورسو ، والدهش يبدو فى عينيه بقدر ما يستطيع كلب أن يفعل . ثم عرّض أنفه للهواء متجها صوب السور الآخر الذى اجتازه أيضاً ، وبعد ثانية ظهر فوق قمته مبديا نفس الدهش والقلق ، ثم قفز بعد ذلك إلى الغابة وذيله بين ساقيه ، وهو لا يزال ينظر إلى أورسو ، وجعل يبتعد بخطوات بطيئة وبمشية غير مستقيمة حتى صار على مسافة منه ثم صعد التل بنفس السرعة التى نزل بها تقريباً ليلتقى برجل كان — رغم صعوبة النزول — ينحدر على بل . وعند ماحسب أورسو أنه قد صار قريباً إلى حد يمكنه من سماع صوته صاح قائلا :

— إلىّ يابراندو !

فعدا نحوه براندولاشيو لاهثا وسأله قائلا :

— أوه ! يا أورس أنتون ، هل أنت جرحت ؟ وهل فى الجسم أو فى الأطراف ؟

— فى ذراعى .

— أوه ! فى الذراع ، ليس هذا شيئاً يذكر ، والآخر؟

— أظن أننى مسسته .

فأسرع براندولاشيو يتبعه كلبه إلى الحقل الأقرب وانحنى ليرى ما فى الجانب الآخر من السور وهناك رفع غطاء رأسه وقال :

— تحية يامولاى أورلاندوشيو .

ثم التفت نحو أورسو وحياه بدوره وعليه ملامح الجد قائلا :

— ها هو ذا الرجل الذى أعد إصابته فنية .

فسأل أورسو وهو يتنفس بصعوبة :

— هل هو لا يزال حيا ؟

— أوه ! إنه قد أبى الحياة لشدة حزنه بسبب الرصاصة التى وضعتها له فى عينه بدم العذراء ، أى ثقب ! إنها لبندقية جيدة ، وأقسم على ذلك ، أية قوة ! إنها تستطيع أن تسحق مخا بتمامه فى سهولة ! قل لى يا أورس أنتون إنى حينما سمعت بيف ! بيف ! قلت فى نفسى : أعوذ بالله إنهم يغتالون ملازمى ثم لم ألبث أن سمعت بوم ! بوم ! قلت فى نفسى : آه !

ها هى ذى البندقيـة الإنجليزية تتـكلم ، أو بالأحـرى : إنهـا تجاوب . . . لـكن يابروسكو ماذا تريد إذاً ؟

فقاده الـكلب بعـد ذلك إلى الحقل الآخر ، وحينئـذ صاح ذاهلا :

— هل هذا ممكن ؟ أضربة مضاعفة ؟ لا شيء غير ذلك يتبين من هـذا أن البارود غال لأنك تقتصد فيه .

فسأل أورسو قائلا :

— بالله ما هنالك ؟

— هيا إذاً ، لا تمزح يا ملازمى أنت تلقى القنيصة على الأرض وتريد أن يجمعها لك الناس . . . هناك رجل سيكون لديه اليوم نوع غريب من الحلوى ، وهو المحامى باريتشينى ، أما لحم المجزرة فهو متوفر جداً ، والآن ياللشيطان من الذى سيرث ؟

— ماذا ! هل فيشينتيلو مات أيضاً ؟

— مات والصحة الجيدة لنا [١] . إن خير مالديك هو أنك لم تؤلمهما . تعال إذاً لترى فيشينتيلو ، فهو لايزال راكعاً على ركبته ، ورأسه مسنـد إلى السور ، وهـو يبدو كأنه نائم وينطبق عليه المثل القائل : « إنه نائم نوم الرصاص[٢] » .

(١) هذا تعبير كورسيكى يرافق عادة كلمة « الموت » ليمحو ما تحمله من انقباض .

(٢) هـذا مثل يضرب للمستغرق فى نوم عميق ، وقد استخدمه راندولاشيو للنوم الذى لا يقظة بعده بسبب الرصاص الذى لم يستعمل فى اصل المثل إلا مجازا . (المترجم)

وعند ذلك أدار أورسو رأسه بانفعال عنيف وقال :

— هل أنت متأكد من أنه مات ؟

— أنت مثل سامبييرو كورسو الذى لم يكن يعطى قط إلا ضربة واحدة انظر أنها هنا فى صدره من جهة الشمال وأنا أراهن على أن الرصاصة ليست بعيدة عن القلب إنها ضربة مضاعفة أنا لن أطلق الرصاص بعد ذلك ، رجلان بطلقتين ! و برصاصتين ! . . . وأخوان ! ولو كان فيها طلقة ثالثة لقتلت الوالد . . . ستفعل خيراً من ذلك فى مرة أخرى . . . أية ضربة يا أورس أنتون . . . وحينما أتصور أنه لن يحدث لشاب شهم مثلى أن يسدد ضربة مضاعفة كهذه إلى الشرطة !

وبينما كان الشقى يتكلم على هذا النحو كان يفحص ذراع أورسو ويشق كمه بخنجره ثم قال:

— ليس ذلك شيئا ذا أهمية ، ولكن ها هى ذى ريدانجوت ستقدم عملا إلى الآنسة كولومبا . . . ماذا أرى أتمزق تجاه الصدر؟ . . . ألم يدخل شئ من هنا ؟ كلا ، إذ لو كان ذلك قد حدث لما كنت الآن قويا إلى هذا الحد . هيا ، حاول أن تحرك أصابعك . . . هل تحس بأسنانى حينما أعض إصبعك الصغيرة ؟ . . . أنت لا تشعر كثيرا لكن لا بأس فلن يكون ذلك شيئاً يذكر دعنى آخذ منديل و رباط عنقك . . . ها هى ذى ريدانجوتك قد ضاعت . . . ولماذا — يا للشيطان — أنت تتزين إلى هذا الحد ؟ هل كنت

ذاهباً إلى العرس ؟ . . . والآن أشرب جرعة من النبيذ . . . لماذا لا تحمل معك زقا ؟ هل يخرج كورسيكى قط بدون زق ؟

وبينما هو يعصب ذراعه توقف فجأة عن العمل وصاح قائلا

— ضربة مضاعفة ! كلا الاثنين ماتا دفعه واحدة ! . . . إن القسيس هو الذى سيضحك . . . ضربة مضاعفة ! آه ! ها هى ذى فى النهاية ، تلك السلحفاة الصغيرة شيلينا قد أتت .

ولم يكن أورسو يجيب على كل شئ من هذا ، وإنما كان شاحبا كأنه ميت ، وكانت كل أعضائه تضطرب .

وحينئذ قال براندولاشيو :

— شيلينا ، إذهبى فانظرى خلف هذا السور .

فاستعانت الطفلة بيديها ورجليها وتسلقت السور ونظرت خلفه ، فلما لمحت جثة أورلاندوشيو أشارت إشارة الصليب غير أن الشقى استأنف يقول :

— ليس هذا شيئا ، إذهبى فانظرى هناك أيضا .

فذهبت الطفلة حيث أمرها وأشارت من جديد إشارة الصليب ثم قالت فى حياء :

— أأنت يا عمى ؟

— أنا ! ألم أصر شيخا لا أصلح لشئ ؟ لا يا شيلى ، هذا هو عمل السيد فقدمى إليه ثناءك .

فقالت شيلينا :

— إن الآنسة ستسر من هذا كثيرا ، ولكنها سيحزنها أن تراك جريحا يا أورس أنتون .

وبعد أن انتهى الشقى من عصب الجرح قال :

— هلم يا أورس أنتون وها هى ذى شيلينا قد لحقت جوادك فاركب وتعال معى إلى غابة استازونا ، وسيكون ماهرا ذلك الذى سيعثر عليك فيها ، وسنعاملك هناك خير ما نستطيع من معاملات . وحينما سنصل إلى صليب القديسة كريستينا ينبغى أن تترجل وأن تسلم جوادك إلى شيلينا التى ستذهب لتنبئ الآنسة ، وإذ ذاك تكلفها بمهماتك وأنت تستطيع أن تقول كل شئ لهذه الصغيرة يا أورس أنتون فهى تفضل أن تفرم على أن تخون أصدقاءها .

ثم اتجه إلى شيلينا وقال لها فى لهجة عطوفة :

— إذهبى أيتها الشقية ، لتكونى مشلوحة ، لتكونى ملعونة أيتها اللئيمة !

ولما كان أورلاندوشيو خرافيا ككثير من الأشقياء ، فقد كان يخشى أن يؤذى الأطفال بتوجيهه إليهم الثناء والدعاء ، لأنه من المعروف أن القوى الخفية التى تدير التأثير الغير الإرادى الصادر عن الأعين والكلام قد اعتادت عادات سيئة ، وهى تنفيذ ما هو ضد أمانينا .

وعند ذلك سأل أورسو بصوت متضعضع :

— أين تريد أن أذهب يا براندو ؟

— من الواضح أنك الآن مخير بين أمرين : فإما السجن

وإما الغابة ، ولـكن أحدا من أفراد أسرة ديلاريبا لا يعرفه طريق السجن ، فالى الغابة يا أورس أنتون .

وإذ ذاك صاح الجريح بألم قائلا :

— وداعا إذاً يا كل آمالى .

— آمالك يا للشيطان ! هل كنت تؤمل فى أن تفعله خيرا من ذلك ببندقية ذات طلقتين ؟ . . . آه ! أما هذا ! كيف — يا للشيطان — استطاعا أن يصيباك ؟ لا بد أن تـكون حياة ذينك الشخصين أمتن من حياة القطط !

فقال أورسو :

— إنهما هما اللذان بدآ بالإطلاق .

— هذا حق ، لقد نسيت : بيف ! بيف ! بوم ! بوم !... ضربة مضاعفة من يد واحدة ! . . . وإذا فعل أحد خير من ذلك فسأشنق نفسى ! . . . هلم ، ها أنت ذا قـد ركبت ، لـكن قبل الرحيل انظر نتيجة عملك ، إذ ليس من الأدب أن يترك الانسان رفاقه دون أن يودعهم .

غير أن أورسو غمز جواده بالمهماز لأنه لم يكن يود بأى ثمن أن يرى ذينك التعسين اللذين قتلهما ، ولـكن الشقى قبض على عنان الجواد واستمر يقول :

— إصغ إلىّ يا أورس أنتون : أتريد أن أكلمك بصراحة ؟ إن مصير هذين الشابين المسكينين — وآمل ألا تعتبر ذلك إهانة لك منى — يؤلمنى ، وأرجوك أن تعذرنى : جميـلان إلى هذا الحد . . . وقويان إلى هذا الحد . . . وشابان إلى هـذا

الحد — إن أورلاندوشيو الذى كنت أصطاد معه كثيرا قد قدم إلىّ منذ أربعة أيام علبة من اللفافات ، وفيشينتيلّو الذى كان دائما بشوشا باسما ! . . . حقا أنت قد فعلت ما كان يجب عليك أن تفعله . . . على أن هذه الضربة بلغت من الجمال حدا لا يمكن معه الأسف عليها ، لكنى أنا لم أكن ضمن انتقاماتكم . أوه . أنا أعرف أنك محق ، إذ حينما يكون للمرء عدو ينبغى أن يتخلص منه ، لكن أسرة الباريتشينيين أسرة قديمة وها هى ذى قد انطفأت ! . . . وبضربة مضاعفة هذا عجيب !

وبعد أن ألقى براندولاشيو مرثية الباريتشينيين الجنائزية على هذا النحو اقتاد على عجل أورسو وشيلينا والكلب بروسكو نحو غابة استازونا .

١٨

بعد أن ارتحل أورسو بقليل علمت كولومبا عن طريق جواسيسها أن الباريتشينيين قد خرجوا إلى الحقول ومنذ تلك اللحظة صارت فريسة لقلق ممض ، إذ جعلت تذرع المنزل من جميع جهاته فتذهب من المطبخ الى الغرفتين المعدتين لضيفيهما دون أن تعمل شيئا وفى قلق دائم ، وفى ذهابها وإيابها كانت تقف وقفات متتابعة ، لتنظر أفى القرية حركة غير عادية أم لا؟ وحوالى الساعة الحادية عشرة دخلت بييترانيرا كوكبة من

الخيالة فتبينتهم فإذا هم الكولونيل وابنته وخدمهما ومرشدهم ، ولما استقبلتهم كانت الكلمة الأولى التى وجهتها إليهم هى :

— هل رأيتم شقيقى ؟

ثم سألت المرشد عن الطريق الذى سلكوه وعن الساعة التى ارتحلوا فيها ، ولما أجابها لم تستطع أن تفهم كيف أنهم لم يلتقوا به ، ولكن المرشد طمأنها قائلا :

— من الممكن أن يكون شقيقك قد سلك الطريق الأعلى ، أما نحن فقد سلكنا الأدنى .

غير أن كولومبا هزت رأسها وجددت أسئلتها ، إذ أنه — رغم حزمها الطبيعى الذى زادته الكبرياء لتخفى كل ضعف أمام الأجانب — كان من المستحيل عليها أن تحجب قلقها ، بل إن الكولونيل والآنسة ليديا لم يلبثا أن ساهما بنصيب من هذا القلق حينما أطلعتهما على محاولة الصلح التى انتهت بتلك النهاية الأسيفة .

ولقد كانت الآنسة نيفيل مضطربة وكانت تود أن يبعثوا رسلا إلى جميع الجهات ، وقد اقترح والدها أن يركب الجواد ويذهب مع المرشد ليبحث عن أورسو . على أن خوف ضيوف كولومبا لم يلبث أن ذكرها بواجباتها كربة منزل فأرغمت نفسها على الابتسام وألحت على الكولونيل فى الجلوس إلى المائدة ووجدت لتأويل تأخر شقيقها عشرين مبرراً معقولا هدمتها هى نفسها بعد لحظة . ولما حسب الكولونيل أن من واجبه كرجل أن يطمئن السيدات فقد عرض هو أيضا تأويلا قال فيه :

— أنا أراهن أن ديلاربيا قد التقى بقنائص ، فلم يستطع أن يقاوم الفتنة ، وسنراه يعود بحقيبته ممتلئة . وآية ذلك أننا سمعنا فى الطريق أربع طلقات كانت اثنتان منها أقوى من الآخرين وقد قلت لابنتى : أنا أؤكد أن هذا هو ديلاربيا الذى يصطاد ، إذ لا يمكن أن يحدث ضجيجا كهذا إلا بندقيتى .

وحينئذ امتقع وجه كولومبا ، وقد تنبأت الآنسة ليديا التى كانت تحدق إليها بانتباه بالريبة التى قذفها الى نفسها فرض الكولونيل . وبعد صمت دام بضع دقائق سألت كولومبا فى لهف عما إذا كانت الطلقتان القويتان قد تبعتا أو تقدمتا الآخرين ، ولكن لا الكولونيل ولا ابنته ولا المرشد قد انتبهوا إلى هذه النقطة الجوهرية .

وعند الساعة الأولى لم يكن أى واحد من رسل كولومبا قد عاد فاستجمعت شجاعتها وأرغمت ضيوفها على الجلوس إلى المائدة ، ولكن لم يستطع أحد أن يأكل سوى الكولونيل . ولأقل ضجيج فى الميدان كانت كولومبا تهرع الى النافذة ثم تعود فتجلس بحزن والأكثر من ذلك أسى أيضا أنها كانت مضطرة الى أن تتابع مع ضيوفها محادثة تافهة لم يكن أحد ليعيرها أقل اهتمام . وكان الصمت الطويل يتخللها من حين إلى حين .

وبغتة سمع الحاضرون عدو جواد فنهضت كولومبا قائلة :

— آه ! فى هذه المرة هو شقيقى .

غير أنها عند ما وقع نظرها على شيلينا راكبة جواد أروسو صرخت بصوت يمزق القلوب قائلة :

— لقد مات أخى !

عنـد ذلك سقطت الـكوبة من يد الـكولونيل ، وصرخت الآنسة نيفيل ثم هرع الجميع الى باب المنزل ، وقبل أن تتمكن شيلينا من النزول الى الأرض كانت كولومبا قد اخطفتها كأنها ريشة وضغطت عليها حتى كادت تخنقها ، وفهمت الطفلة نظرتها المزعجة فكانت أولى كلمتها هى كلمة جوقة أُوتـيلوّ : « إنه يحيا ! » . ففكت كولومبا عنها حصارها ، فهوت إلى الأرض بمهارة كأنها هرة صغيرة ثم سألتها بصوت مبحوح قائلة :

— والآخران ؟

فرسمت شيلينا بأصبعيها صورة الصليب . وعلى أثر ذلك احتل احمرار قوى موضع الشحوب المميت من وجه كولومبا ثم ألقت نظرة حادة على منزل الباريتشينيين وقالت لضيوفها باسمة :

— لندخل ولنتناول القهوة .

كانت قصة إيريس[1] رسولة الشقيين طويلة ، وكانت لغتها الريفية التى كانت كولومبا تترجمها إلى الايتالية ثم الآنسة نيفيل إلى الانجليزية قد انتزعت من الـكولونيل أكثر من سخط ، ومن الآنسة ليديا أكثر من تنهدة ، ولـكن كولومبا كانت تصغى وعليها ملامح الجمود إلا أنها كانت تلوى فوطتها

(١) إيريس هى رسولة الآلهة التى كانت تحمل رسائل بعضهم الى بعض ورسائلهم الى بنى الانسان . وقد أطلق المؤلف اسمها على شيلينا لأمانتها فى النقل ولذكائها فى القيام بمهمتها . (المترجم)

حتى كادت تمزقها . وقد قاطعت الطفلة خمس مرات أو ستا لتجعلها تعيد ما قاله براندولاشيو من أن الجرح ليس خطرا . وأنه رأى جروحا كثيرة أخطر منه .

وبعد أن أنهت شيلينا قصتها قالت إن أورسو يطلب بالحاح ورقا ليكتب عليه ، وهو يكلف شقيقته بأن تتوسل إلى سيدة قد تكون فى المنزل ألا ترحل إلا بعد أن تتسلم رسالة منه ثم أضافت الطفلة إلى ما تقدم قولها :

— هذا هو أهم ما يعذبه ، إذ بعد أن سلكت طريقى دعانى إلى الرجوع إليه ليكرر على هذه الوصية ، وكانت تلك هى المرة الثالثة التى ردد على فيها هذه المهمة .

وعند سماع هذه الكلمات ابتسمت كولومبا وضغطت بقوة على يد الانجليزية التى انهمرت الدموع من عينيها ولم تر من الضرورى أن تترجم لوالدها هذا القسم من القصة ثم صاحت وهى تقبل الآنسة نيفيل قائلة :

— نعم ستمكثين هنا يا صديقتى العزيزة وستساعدينا .

ثم أخرجت من إحدى خزائن الملابس كية من الأقمشة وشرعت تقطعها لتصنع منها نسالات وعصائب لتوضع الأولى فوق الجرح وليعصب بالثانية .

ولقد كان من الصعب على من يرى عينها المتلألئتين ولون وجهها المتورد بالانفعال وتناوب نفسها بين الانشغال والهدوء أن يجزم بأن تأثرها بجرح شقيقها هو أكثر من سرورها بموت عدويها .

وكانت تارة تسكب القهوة للكولونيل متباهية أمامه بموهبتها فى إعدادها وتارة أخرى توزع الأشغال على الآنسة نيفيل وشيلينا مشجعة إياها على خياطة العصائب ولفها ثم جعلت تسأل الطفلة للمرة العشرين عن الجرح أيؤلمه كثيرا ثم تتوقف عن عملها توقفات متتالية لتقول للكولونيل :

ــ رجلان ماهران إلى هذا الحد !.وفظيعان إلى هذا الحد ! . . . وهو وحده جريحا ، وليس له إلا ذراع واحدة . . . وهزمهما كليهما . أية شجاعة يا كولونيل ! أليس بطلا ؟ آه ! يا آنسة نيفيل إنه لمن السعادة أن يعيش الإنسان فى بلاد هادئة كبلادكم . . . أنا موقنة بأنك لم تعرفى شقيقى بعد . . . ولقد قلت أنا من قبل : « إن النسر سينشر جناحيه » أنت كنت مخدوعة فى مظهره الوديع ، وذلك لأنه بالقرب منك يا آنسة نيفيل . . . آه ! لو كان يراك تشتغلين له ! . . . مسكين يا أورسو . .

ولم تكن الآنسة ليديا إذ ذاك تشتغل إلا قليلا ، ولم تكن تجد كلمة تنطق بها ، وكان والدها يسأل لماذا لم يسرعوا فيقدموا شكوى إلى القضاء ، وكان يتحدث عن تحقيقات رجال القضاء فى بلاده وعن أشياء أخرى مجهولة فى كورسيكا . وأخيرا كان يريد أن يعرف هل منزل هذا السيد الخيّر براندولاشيو الذى قدم المساعدة إلى الجريح بعيد عن بييترانيرا ؟ وهلا يستطيع هو نفسه الذهاب إليه ليرى صديقه ؟

فأجابت كولومبا بهدوئها المعتاد بأن أورسو فى الغابة وأن لديه

شقيا يعتنى به ، وأنه يتعرض لخطر عظيم لو ظهر قبل أن يتأكدوا من استعداد المحافظ والقضاة نحوه ، وأنها ستعمل على أن يذهب إليه جراح ماهر فى الخفاء . ثم قالت له :

— على الأخص يا سيدى الكولونيل تذكر تماما أنك سمعت الطلقات الأربع ، وأنك قلت لى : إن أورسو قد أطلق أخيرا .

لم يكن الكولونيل يفهم شيئا من هذا الموضوع ، ولم يكن لابنته هم سوى التنهد وتجفيف عينيها .

كان ميزان النهار قد مال كثيرا حينما دخل القرية موكب حزين ، إذ حملت إلى المحامى باريتشينى جثتا ولديه ، كل واحدة منهما على بغل يقوده أحد القرويين ، وكان جمهور من الأتباع والعاطلين يسير خلف هذا الموكب الأسيف ! وكان الناس يرون معهم رجال الشرطة الذين يصلون دائما بعد فوات الفرصة ، وكان نائب العمدة يرفع ذراعيه إلى السماء ويكرر بلا انقطاع هذه الجملة : « ماذا سيقول سيدى المحافظ ! » وكانت هناك بضع نساء بينهن مرضع أورلاندوشيو ينتزعن شعورهن ويعوين عواءات وحشية . ولكن آلامهن الصاخبة كانت تحدث من التأثير فى النفوس أقل من هذا اليأس المكبوت الذى كان يبدو على شخص استرعى جميع الأنظار ، ذلك هو الوالد التعس الذى كان يغدو ويروح بين الجثتين رافعا رأسيهما الملوثين بالتراب ، مقبلا شفاههما البنفسجية ، مسندا أطرافهما المتصلبة كما لو كان يريد أن يجنبهما هزات سوء الطريق ومن حين

إلى آخر كان يرى فاتحا فمه ليتكلم ، ولكنه لا تخرج منه أية صيحة ولا أية كلمة . ولما كانت عيناه دائما محدقتين إلى الجثتين فقد كان يصطدم بالأحجار والأشجار وجميع العقبات التى يصادفها .

وعند ما لمحوا منزل أورسو تضاعفت ولولة النساء ولغنات الرجال . ولما تجرأ بضعة من رعاة ديلاريبا على إسماع الآخرين بعض صيحات الانتصار لم يستطع خصومهم أن يكبحوا غضبهم وصاحت عدة أصوات قائلة : « الانتقام الانتقام » فقذفت الأحجار وصوبت طلقتان إلى نوافذ القاعة التى توجد فيها كولومبا وضيوفها فاخترقتا مصاريعها وألقت بشظايا من الخشب على المائدة التى كانت الآنستان جالستين بالقرب منها . فصرخت الآنسة ليديا صرخات مرعبة وتناول الكولونيل بندقيته وقفزت كولومبا إلى باب المنزل قبل أن يتمكن أحد من حجزها وفتحته بعنف ، وهناك وقفت على العتبة العالية ومدت يديها وجعلت تعلن أعداءها وتصيح قائلة :

— أيها السفلة أنتم تطلقون بنادقكم على سيدات وأجانب ! هل أنتم كورسيكيون ؟ هل أنتم رجال ؟ أيها الأوغاد الذين لا يعرفون إلا الاغتيال من الخلف تقدموا ! فأنا أتحداكم . أنا وحيدة وشقيقى بعيد . اقتلونى واقتلوا ضيوفى فهذا جدير بكم . . . أنتم لا تجرؤون على ذلك لأنكم وضعاء وتعلمون أننا سننتقم لأنفسنا . فهلموا هلموا ، أعولوا كالنساء واشكرونا على أن لم نطلب منكم دما أكثر من هذا !

ولقد كان فى صوت كولومبا وأدائها شىء من الأمر والإزعاج . ولهذا عند ماوقع نظر الجمهور عليها تراجع مذعوراً كما لو كان قد رأى إحدى تلك الجنيات الشريرات اللواتى تروى عنهن فى كورسيكا قصص كثيرة مرعبة فى سهرات الشتاء . وحينئذ انتهز نائب العمدة ورجال الشرطة وعدد من النساء فرصة هذه الحركة فتدخلوا فى الأمر وألقوا بأنفسهم بين الفريقين لأن الرعاة الديلاريبيين كانوا قد بدءوا يعدون أسلحتهم ، وكان من الممكن أن يخشى اشتباك معركة عامة فى الميدان ، ولكن الفريقين كانا محرومين من رئيسيهما والكورسيكيون الذين يخضعون للقواعد حتى فى أوقات غضبهم لا يتقاتلون فى غيبة المنشئين الأساسيين لحروبهم الداخلية إلا نادراً . على أن كولومبا التى صيرها الانتصار متبصرة قد ضبطت عواطف أشياعها وجعلت تقول لهم :

— دعوا هؤلاء القوم المساكين يبكون . دعوا هذا الشيخ يحمل لحمه . مافائدة قتل هذا الثعلب الفانى الذى لم يعد له أسنان يعض بها . ياجيوديشيه باريتشينى تذكر اليوم الثانى من شهر أغسطس ، وتذكر الدفتر الدامى الذى كتبت فيه بيدك المزورة اسما زائفا ، ولقد سجل والدى فى ذلك الدفتر دينك ، وقد دفع ولداك اليوم هذا الدين . والآن أنا أعطيك مخالصة ياباريتشينى العجوز .

وعلى أثر ذلك نظرت كولومبا — وذراعاها مشتبكتان

وبسمة الازدراء على شفتيها — فرأت الجثتين محمولتين إلى منزل أعدائها ثم رأت الجمهور يتفرق فى بطء فأغلقت منزلها وعادت إلى حجرة المائدة ثم قالت للكولونيل :

— أسألك الصفح عن مواطنى ياسيدى ، فأنا لم أكن أحسب قط أن كورسيكيين يستطيعون أن يطلقوا بنادقهم على منزل فيه أجانب ، وإنى لخجلة من ذلك بالنيابة عن بلادى .

وفى المساء عند ما أوت الآنسة ليديا إلى حجرتها تبعها الكولونيل وسألها ألا يحسنان صنعا بمغادرتهما من الغد قرية هما فيها معرضان فى كل لحظة لاستقبال رصاصة فى الرأس وبالرحيل بأسرع ما يستطاع من بلاد لا ترى فيها إلا جرائم قتل وخيانات .

فصمتت الآنسة نيفيل هنيهة قبل أن تجاوب ، إذ كان من الواضح أن اقتراح والدها قد سبب لها ارتباكا عظيما وأخيراً قالت :

— وكيف نستطيع أن نترك تلك الشابة فى هذه اللحظة التى هى فيها شديدة الحاجة إلى المواساة ؟ أفلا ترى يا والدى أن هذا يكون قاسيا من جانبنا ؟

— إنما من أجلك أنا أتكلم يا ابنتى ، ولو أنك كنت آمنة فى فندق أجاسيو لكان مما يؤسفنى — وأؤكد لك — أن أغادر هذه الجزيرة الملعونة دون أن أصافح ذلك الشهم ديلاربيا .

— حسن يا والدى ، لننتظر قليلا قبل الرحيل ولنتأكد من أننا لا نستطيع أن نؤدى إليهم أية خدمة .

فقبل الكولونيل ابنته فى جبهتها وهو يقول :

— يا ذات القلب الخيّر أنا أحب أن أراك هكذا تضحين بنفسك لتلطفى بأساء الآخرين . لنمكث فالانسان لا يندم أبدا على فعل الخير .

أخذت الآنسة ليديا بعد ذلك تتقلب فى سريرها دون أن تستطيع النوم ، فحينا كان الضجيج المتموج الذى كانت تسمعه يبدو لها كأنه استعداد لهجوم ضد المنزل ، وحينا آخر كانت — بعد أن تطمئن على نفسها — تفكر فى ذلك الجريح المسكين الذى يحتمل أن يكون متمددا فى هذه الساعة على الأرض الباردة وبدون مساعدة أخرى غير التى يمكن أن ينتظرها من إحسان أحد الأشقياء . ولقد كانت تتمثله عارقا فى الدماء يغالب آلاما فظيعة ، وأغرب مافى هذا الأمر هو أنه — فى كل مرة كانت فيها صورته تتمثل فى خيالها — كان يظهر لها دائما كما رأته فى لحظة رحيله واضعا على شفتيه التعويذة التى أعطته إياها . ثم كانت تفكر فى شهامته وتحدث نفسها بأن ذلك الخطر المرعب الذى نجا منه كان قد تعرض له بسببها ولكى يراها على عجل ، بل كانت على أهبة أن تقنع نفسها بأن ذراعه لم تنكسر إلا دفاعا عنها ، فجعلت تأخذ على نفسها أنها سبب جرحه ، ولكن إعجابها به قد نما بسبب هذا الجرح . وإذا لم

يكن لهذه الضربة المضاعفة فى نظرها تلك القيمة التى لها فى نظرى براندولاشيو وكولومبا ، فانها مع ذلك كانت تجد أن قليلا من أبطال الروايات كانوا يظهرون هذا القدر من الشجاعة ورباطة الجأش فى وسط خطر عظيم إلى هذا الحد . كانت الغرفة التى تشغلها هى غرفة كولومبا ، وكانت معلقة على إحدى حوائطها صورة صغيرة لأورسو فى ملابس ملازم ثان فتناولتها الآنسة نيفيل وأخذت تتأملها وقتا طويلا ، وأخيرا وضعتها بالقرب من سريرها بدل أن تعيدها إلى موضعها . ولم تنم إلا بعد أن تنفس الصبح ، ولما استيقظت كانت ذكاء قد صعدت كثيرا من درج سلم الأفق ، وحين فتحت عينيها لمحت كولومبا واقفة إلى جانب سريرها تنتظر جامدة لحظة استيقاظها فسألتها قائلة :

— إيه يا آنسة ألست شديدة التضايق فى منزلنا المتواضع ؟ إنى أخشى ألا تكونى قد نمت إلا قليلا .

فجلست الآنسة نيفيل ثم سألتها قائلة :

— هل لديك شئ من أنبائه يا صديقتى العزيزة ؟

وعند ذلك لمحت صورة أوسو فأسرعت بإلقاء منديل عليها لتخفيها إلا أن كولومبا تناولت الصورة باسمة وقالت لها :

— نعم لدى شئ من أنبائه . . . ولكن هل ترينها شبيهة به ؟ إنه خير من ذلك .

فقالت الآنسة نيفيل خجلة :

— يا إلهى ! . . . لقد انتزعت . . . فى غير انتباه . . .

هـذه الصورة . . . فمن عيوبى أن ألمس كل شئ . . . وألا أنظم شيئا فى موضعه . . . وكيف صحة شقيقك ؟

— إنها لا بأس بها ، وجيوكانتو قد جاء إلى هنا فى هـذا الصباح قبل الساعة الرابعة وحمل رسالة . . . إليك يا آنسة ليديا ، فأورسو لم يكتب إلىّ أنا شيئا ، وانما كتب فى أعلى العنوان : إلى كولومبا ، وكتب فى أسفله : إلى الآنسة ن . . . غير أن الشقيقات لا يغرن أبدا . . . إن جيوكانتو يقول إنه تألم كثيرا من الكتابة ، وقد عرض عليـه — وهو ذو خط بديع — أن يكتب له باملائه ، ولـكنه لم يرد ، وكان يكتب بقلم رصاصى وهو مستلق على ظهره ، وكان براندولاشيو يمسك له الورقة ، وكان يهم بالنهوض فى كل لحظة فيعتريه ألم فظيع من جراء أقل حركة ، وها هى ذى رسالته .

فقرأت الآنسة ليديا الرسالة التى كانت مكتوبة بالانجليزية إمعانا فى الاحتياط ، وهاهو ذا ما تحويه :

« آنستى

«إن قدرا تعسا دفعنى؛ وإننى أجهل ماسيقوله أعدائى، وأى تشنيع سيتخرصونه علىّ ، غير أن هذا لايضيرنى ياآنسة إذا كنت أنت لا تصدقينه . ومنذ أن رأيتك صرت كأنى أهتز فى مهد تسوده الأحلام التى لا تستند إلى منطق ، ولـكن لـكى يبدو لم يكن بد من أن تظهر هذه الـكارثة . أنا الآن متعقل وأعرف ما هو المستقبل الذى ينتظرنى وسيجدنى مذعنا . إن هذا الخاتم الذى منحتنى إياه والـذى كنت أظن أنه تعـويذة سعـادة

لا أجرؤ الآن على أن أحتفظ به . وأنا أخشى يا آنسة نيفيل أن تكونى آسفة على أن وضعت منحك هذا الوضع السيئ ، وبالأحرى : أخشى أن يذكرنى بالوقت الذى كنت فيه مجنونا . ولذا فكولومبا ستردە إليك . وداعا يا آنسة ستغادرين كورسيكا ولن أراك بعد الآن ، لكن قولى لشقيقتى إننى لا أزال أنعم باحترامك لأننى أستحقه دائما وأعلن هذا فى اطمئنان .

« ا . د . ر . »

كانت الآنسة ليديا قد حولت وجهها لتقرأ هذه الرسالة ، وبعد أن نظرت إليها كولومبا فى إمعان ناولتها الخاتم المصرى مسائلة إياها بنظرة عن معنى هذا ، ولكن الآنسة ليديا لم تكن تجرؤ على أن ترفع رأسها ، وإنما أخذت تتأمل الخاتم بحزن وجعلت تضعه فى إصبعها وتنزعه مرات متتالية فسألتها كولومبا قائلة :

— عزيزتى الآنسة نيفيل ألا أستطيع أن أعرف ما يقوله لك شقيقى ؟ وهل يحدثك عن حالته ؟

فأجابت الآنسة ليديا وقد احمر وجهها :

— لكن . . . هو لا يتحدث عن ذلك . . . إن رسالته بالانجليزية . . . هو يكلفنى أن أقول لوالدى . . . هو يؤمل أن يستطيع المحافظ إصلاح كل شئ . . .

غير أن كولومبا ابتسمت ابتسامة ماكرة وجلست على السرير وتناولت يدى الآنسة نيفيل ونظرت إليها بعينين متغلغلتين وقالت لها :

— هل ستكونين خيرة ؟ ألا تحبين شقيقى ؟ إنك لو فعلت لقدمت إليه خيرا كثيرا ، ولقد خطرت لى فكرة إيقاظك لحظة حينما وصلت رسالته ، ولكننى لم أجرؤ .

— لقد أخطأت . . . إذا كانت كلمة منى تستطيع أن . . .

فقالت كولومبا :

— أنا لا أستطيع الآن أن أرسل إليه رسائل ، لأن المحافظ قد وصل ، ولأن بييترانيرا قد امتلأت بأعوانه وأتباعه . وسنرى فيما بعد . آه ! لو كنت تعرفين شقيقى يا آنسة نيفيل لأحببته كما أحبه . . . إنه لجد خيّر وجد شهم ! فكرى فيما فعل ! كان وحده ضد اثنين وهو جريح !

ولما كان نائب العمدة قد بعث إلى المحافظ رسولا خاصا يحمل إليه نبأ الحادث ، فقد عاد إلى القرية يرافقه عدد من رجال الشرطة والجنود ، وفوق ذلك قد دعا معه النائب وكاتم سر النيابة وكل من ينبغى وجودهم فى تحقيق هذه الكارثة الفظيعة المرعبة التى عقدت أو بعبارة أدق التى أنهت عداوات أسرتى بييترانيرا . وبعد وصوله بقليل رأى الكولونيل نيفيل وابنته فلم يخف عليهما أنه يخشى أن تكون القضية قد اتجهت اتجاها سيئا وقال لها :

— انتما تعرفان أنه ليس هناك شهود يؤيدون المعركة . وأن شهرة مهارة هذين الشابين التعسين وشجاعتهما ثابتة إلى حد أن جميع الناس يرفضون أن يصدقوا أن السيد ديلاربيا استطاع أن يقتلهما دون مساعدة الشقيين اللذين يقولون إنه أوى إلى كنفيهما .

فصاح الكولونيل قائلا :

— هـذا مستحيل ، فأرسو ديلاربيا شاب مفعم بالشرف وأنا آخذ هذا على عاتقى .

— أنا أصدق ذلك ، لكن النائب — وهؤلاء السادة يرتابون دائما — لم يبد لى حسن الاستعداد ، وبين يديه مستند سيء ضد صديقك ، وهو رسالة تهديد موجهة إلى أورلاندوشيو ، وفيها يحـدد له وعدا بالمبارزة . . . وهـذا الوعد يبدو للنائب فخا .

فقال الكولونيل :

— ذلك المدعو أورلاندوشيو قد رفض أن يقاتل كما يقاتل المهذبون .

— ليس هذا متبعا هنا ؛ وإنما هم يختفون ويطعن بعضهم بعضا من الخلف ، وذلك هو نهج هـذه البلاد . نعم هناك شهادة لصالحـه وهى شهـادة طفلة تجزم بأنهـا سمعت أربع طلقات : الاثنتـان الأخيرتان منهـا أقوى من الأوليين ، وقد استنتج من هـذا أنهما صادرتان عن بندقيـة قوية كبندقية السيد ديلاربيـا ، ولكن هـذه الطفلة مع الأسف هى ابنة شقيق أحد الشقيين المتهمين ، ومعنى هذا أن درسا قد أعد لها .

فقاطعته الآنسة ليديا قائلة وقد احمرت إلى بياض عينيها :

— سيدى لقـد كنـا نحن فى الطريق حينما أطلقت تلك الطلقات ، ولقد سمعنا نفس هذا .

— حقاً ؟ هـذا شيء هـام . وأنت ياكولونيل قـد

لاحظت بدون شك هـذه الملاحظـة ، أليس كذلك ؟

فأجابت الآنسة نيفيل بحماسة قائلة :

— نعم إن والدى المعتاد على السلاح هو الذى قال : « هذا هو السيد ديلاربيا يطلق بندقيتى . »

— وهاتان الطلقتان اللتان عرفتما هما كانتا الأخيرتين ؟

— نعم هما الطلقتان الأخيرتان . أليس كذلك ياوالدى ؟

فأجاب الكولونيل بالايجاب لأنه — و إن لم تكن ذاكرته قوية — كان فى جميع الفرص يحترس من مناقضة ابنته .

و إذ ذاك قال المحافظ :

— ينبغى أن تتحدث عن ذلك إلى النائب بكل سرعة يا كولونيل . على أننا منتظرون فى هذا المساء الجراح الذى سيختبر الجثتين والذى سيرى أكانت الإصابتان بوساطة تلك البندقية أم لا ؟ . . .

وحينئذ قال الكولونيل :

— أنا الذى أعطيت أورسو هذه البندقية وكنت أود أن أعلم أنها الآن فى قاع البحر . . . أريد أن أقول . . . إن ذلك الشاب الشهم . . . انى مغتبط بأنها كانت بين يديه ، لأنى لا أدرى كيف كان ينجو بدونها .

١٩

وصل الجراح متأخراً قليلا ، لأنه وقع له حادث فى الطريق ، وهو أنه التقى بجيوكانتو كاستريكونى فأمره فى أدب عظيم أن يجيء ليعالج رجلا جريحا . ثم اقتاده إلى حيث أورسو فوضع له الجبيرة الأولى ، وبعد ذلك رافقه الشقى مسافة بعيدة ، وقد ترك فى نفسه أثراً كبيراً ، إذ حدثه عن أشهر مشاهير أساتذة بيزا الذين قال عنهم إنهم أصدقاؤه الحميمون وقبل أن يفترقا قال له :

— يا دكتور لقد تركت فى نفسى احتراما قويا يمنعنى من أن أذكرك بأن الطبيب يجب أن يكون أمينا على الاسرار كمتلقى الاعتراف .

ثم أخذ يبعث بغماز بندقيته ليرهبه ويتوعده فى أدب واستمر يقول :

— أنت قد نسيت طبعاً الموضع الذى تشرفنا برؤيتك فيه . والآن وداعا ، وانى لسعيد بمعرفتك .

ولقد رجت كولومبا الكولونيل أن يحضر تشريح الجثتين وقالت له :

— أنت تعرف أكثر من أى شخص آخر بندقية شقيقى ، وحضورك سيكون له فائدة عظيمة ، وفوق ذلك ، فهنا كثير من الأشرار إلى حد أننا سنتعرض

إلى خطر داهم إذا لم يكن لنا أحد يدافع عن صالحنا .

ولما انفردت بالآنسة ليديا جعلت تشكو من صداع فى رأسها وعرضت عليها نزهة على بعض خطوات من القرية ثم قالت لها :

— إن الهواء الطلق سيفيدنى ، إذ لم أستنشقه منذ زمن بعيد .

ولما بدأتا السير أخذت تتحدث عن شقيقها ، وهكذا لم تتنبه الآنسة ليديا التى كان هذا الموضوع يشوقها إلى أنها ابتعدت كثيراً عن بييترانيرا .

وعند ما فطنت إلى هذا كانت الشمس قد آذنت بالغروب وطلبت إلى كولومبا العودة إلى المنزل ، فقالت لها إنها تعرف ممراً قصيراً يجعل الرجوع موجزا ثم غادرت الطريق الذى كانت سائرة فيه تتبعها رفيقتها ، وسلكت آخر يبدو أقل تعبدا . ولم تلبث أن أخذت تتسلق ممراً شديد الوعورة إلى حد أنها — لكى تحفظ توازنها — كانت مضطرة إلى أن تتعلق باحدى يديها بأغصان الأشجار بينما تجذب بالأخرى رفيقتها وراءها . وبعد ربع ساعة فى هذا الصعود الشاق ألفتا نفسيهما فوق منبطح صغير مغطى بالآس والريحان والقطلب وبصخور من الصوان تبدو فى جميع جوانبه . ولما كان التعب قد بلغ من الآنسة ليديا مبلغه ولم تظهر القرية وأرخى الليل سدوله قالت لكولومبا :

— هل تعرفين ياعزيزتى كولومبا أننى أخشى أن نكون قد ضللنا الطريق ؟

— لا تخشى شيئا ، ولنستمر فى السير فاتبعينى .

— لكن أنا أؤكد لك أنك مخدوعة ، فالقرية ليست من هذه الجهة ، وأنا أراهن أننا نوليها ظهرينا . انظرى فهذا النور الذى نراه على بعد هو بكل تأكيد فى بييترانيرا .

غير أن كولومبا أجابت بتأثر قائلة :

— صديقتى العزيزة ، أنت محقة ، ولكن على بعد مائتى خطوة من هنا . . . وفى هذه الغابة . . .

— ثم ماذا ؟

— يوجد شقيقى وأستطيع أن أراه وأقبله إذا كنت تريدين .

وعندئذ ذلك أبدت الآنسة نيفيل حركة دهشة وتابعت كولومبا حديثها فقالت :

— لقد خرجت من بييترانيرا دون أن يلحظنى أحد ، لأننى معك ، ولولا ذلك لتعقبونى . . . أأكون قريبة منه إلى هذا الحد ولا أراه ! . . . لماذا لا تجيئين معى لترى شقيقى المسكين ؟ ولو فعلت لبعثت إلى قلبه كثيراً من السرور .

— لكن يا كولومبا ... هذا لن يكون لائقا من جانبى .

— أنا أفهم ذلك ، فأنتن يامعشر المدنيات تنشغلن بما هو لائق ، أما نحن معاشر القرويات فاننا لانفكر إلا فيما هو خير .

— لكن الوقت متأخر ، وشقيقك ماذا يتصور فىّ ؟

— سيتصور أن أصدقاءه لم يهجروه ، وهذا يشجعه على احتمال الألم .

— ووالدى ؟ إنه سيقلق . . .

— إنه يعرف أنك معى . . . فهل تصممين ؟

ثم أضافت بابتسامة ما كرة إلى ماتقدم قولها :

— لقد كنت تنظرين إلى صورته فى هذا الصباح .

— كلا يا كولومبا ، حقا إننى لا أجرؤ . . . وأولئك الأشقياء الذين هم هناك . . .

— ثم ماذا ؟ إن أولئك الأشقياء لا يعرفونك ، فماذا يعنيك منهم ؟ على أنك كنت تودين أن ترى الأشقياء .

— يا إلهى !

— هيا يا آنسة صممى على شىء ، أما أن أتركك وحدك هنا ، فهذا مالا أستطيعه ، إذ لا يعرف أحد ما يمكن أن يحدث . فاما أن نذهب لنرى أورسو ، وإما أن نعود معاً إلى القرية . . . والله يعلم متى سأرى أخى . . . ومن الممكن ألا يكون ذلك أبدا ...

— ماذا تقولين يا كولومبا ؟ . . . لنذهب إذاً ، لكن دقيقة واحدة فقط ، وسنعود على الفور .

فصافحتها كولومبا ودون أن تجاوب شرعت تسير فى سرعة كان من الشاق على الآنسة ليديا أن تتبعها فيها ، ولكنها لحسن الحظ لم تلبث أن توقفت عن السير وقالت لصاحبتها :

— لا تتقدمى أكثر من ذلك قبل أن ننبئهم ، إذ من الممكن أن نصاب برصاصة .

وعند ذلك شرعت تصفر من بين أصابعها ، وعلى أثر هذا الصفير سمع نباح ، ثم لم يبن حارس الأشقياء ، أن ظهر ، وكان هو الكلب بروسكو الذى رأيناه آنفا والذى لم يكد يرى كولومبا حتى عرفها وتطوع لارشادها . وبعد دوران طويل فى ممرات الغابة الضيقة تقدم إليهما رجلان مدججان بالسلاح فسألت كولومبا أحدهما قائلة :

— هل أنت براندولاشيو ؟ أين أخى ؟

— هناك ، لكن تقدمى بهدوء ، فهو قد نام للمرة الأولى منذ حادثته . تبارك اسم الله ! إن الانسان يرى فى وضوح أن ما يستطيع الشيطان أن يمر منه تستطيع المرأة أن تمر منه أيضا .

وإذ ذاك اقتربت الآنستان باحتياط ، وهناك بالقرب من نار قد حجب سطوعها بتبصر بوساطة حائط بنى حولها بأحجار غليظة لمحتا أورسو نائما فوق كومة من الأعشاب الجافة ومغطى بمعطف من الجوف . كان شديد الشحوب ، وكان تنفسه يسمع مضغوطا . فجلست كولومبا إلى جانبه وأخذت تتأمله صامتة ، ويداها مشتبكتان كما لو كانت تصلى فى أعماق نفسها . أما الآنسة ليديا فقد غطت وجهها بمنديلها والتصقت بكولومبا ، ولكنها من حين إلى آخر كانت ترفع رأسها لترى الجريح من فوق كتفى صاحبتها . مضى على هذا ربع ساعة دون أن ينبس أحد ببنت شفة وباشارة من الاهلى تبعه براندولاشيو وابتعدا فى الغابة فسرَّ ذلك الآنسة ليديا التى كانت قد رأت للمرة الأولى أن طول

لحيتى الشقين ومظهرهما يمثلان لون بلادهما تمثيلا مغاليا .

وأخيرا أبدى أورسو حركة فانحنت عليه كولومبا وقبلته عدة مرات ، مرهقة إياه بأسئلة عن جرحه وآلامه وحاجاته . وبعد أن أجاب بأنه حسن بقدر ما يمكن أن يكون سألها بدوره : هل الآنسة نيفيل لا تزال فى بييترانيرا ؟ وهل كتبت إليه ؟ وذلك لأن كولومبا كانت منحنية على شقيقها بهيئة أخفت عنه صاحبتها التى لم تكن الظلمة إلى جانب ذلك تسمح له برؤيتها إلا فى عسر .

وحينئذ تناولت باحدى يديها يد الآنسة نيفيل ورفعت بالأخرى رأس الجريح فى خفة ثم أجابته قائلة :

— لا يا شقيقى إنها لم تعطنى رسالة إليك . . . لكن أنت تفكر دائما فيها ، فهل تحبها إذاً كثيرا ؟

— أتسألينى عن حبى إياها يا كولومبا ! . . . لكن هى . . . من الممكن أنها تحتقرنى الآن !

وفى هذه اللحظة بذلت الآنسة نيفيل مجهودا لتجذب يدها ولكن لم يكن من السهل الإفلات من يد كولومبا التى — ولو أنها صغيرة وبديعة التكوين — تملك من القوة ما رأينا براهينه . ثم صاحت قائلة :

— أتحتقرك بعد الذى فعلته ! . . . بالعكس إنها تقول عنك خيرا . . . آه يا أورسو ! إن لدى عنها شيئا كثيرا كنت أود أن أقصه عليك .

ولقد كانت الآنسة ليديا لاتزال تجاهد فى إبعاد يدها ولكن كولومبا كانت تجتذبها نحو أورسو الذى لم يلبث أن سألها قائلا :

— ولماذا هى لا تجيب على رسالتى ؟ فان سطرا واحد كان يسرنى .

وأخيرا انتهت بكولومبا قوة جذبها يد الآنسة نيفيل إلى أن وضعتها فى يد شقيقها . وعلى أثر ذلك ابتعدت فجأة وانفجرت ضاحكة وصاحت قائلة :

— يا أورسو ، إحترس من أن تقول كلاما سيئا عن الآنسة ليديا لأنها تفهم الكورسيكية فهما جيدا .

فجذبت الآنسة ليديا يدها وتمتمت ببضع كلمات غير مفهومة ، فحسب أورسو أنه يحلم وقال :

— أنت هنا يا آنسة نيفيل . آه ! يا إلهى كيف جرؤت . آه ! كم أنت تصيرينى سعيدا !

ثم نهض بعناء وحاول أن يقترب منها فقالت له :

— لقد رافقت شقيقتك لكى لا يرتاب أحد فى الموضع الذى هى ذاهبة إليه . . . ثم أردت أيضا . . . أن أطمئن . . . واأسفاه ! كم أنت سيئ الثواء هنا .! . . .

وحينئذ جلست كولومبا خلف أورسو وأخذت ترفعه باحتياط وتسند رأسه إلى ركبتها وأمرّت ذراعها حول عنقه وأشارت إلى الآنسة ليديا أن تقترب وهى تقول لها :

— إقتربى ! إقتربى ! فالمريض لا ينبغى أن يرفع صوته كثيرا .

ولما كانت الآنسة ليديا مترددة فقد تناولت يدها وأرغمتها على الجلوس بالقرب منه إلى حد أن كانت ملابسها تلامسه

ووضعت يدها فوق كتفه ثم قالت كولومبا فى مرح :

— إن هذا حسن جدا ، أليس كذلك يا أورسو ؟ أولا يكون الانسان سعيدا فى الغابة فى ليلة جميلة كهذه ؟

— بلى فهذه الليلة الجميلة لن أنساها أبدا !

وإذ ذاك قالت الآنسة نيفيل :

— لا بد أن تكون متألما

فأجابها ويده تقترب من يدها التى كانت لا تزال فى قبضة يد كولومبا قائلا :

— أنا لم أعد أتألم وأود أن أموت هنا .

فقالت الآنسة نيفيل :

— ينبغى أن تنقل إلى موضع آخر يمكن أن يعتنى بك فيه يا سيد ديلاربيا ، فأنا لن أستطيع منذ الآن أن أنام بعد أن رأيتك راقدا فى خالة سيئة إلى هذا الحد . . . وتلتحف السماء على هذا النحو . . .

— لو لم أكن قد خشيت أن ألقاك يا آنسة نيفيل لكنت قد حاولت العودة إلى بييترانيرا ، وقدمت نفسى إلى السجن .

فسألته كولومبا قائلة :

— ولماذا كنت تخشى أن تلقاها ؟

— لقد خالفتك يا آنسة نيفيل فلم أجرؤ على أن أراك فى تلك اللحظة .

فقالت كولومبا ضاحكة :

— هل تعرفين يا آنسة ليديا أنك الآن تسيرين شقيقى كما تريدين ؟ إنى سأمنعك من رؤيته .

فحولت الآنسة نيفيل اتجاه الحديث وقالت :

— أرجو أن تتضح هذه القضية التعسة وألا يكون لديك عما قريب ما تخشاه ، فانى سأكون مسرورة إذا عرفت عند رحيلنا أن العدالة قد اتبعت معك ، وأنه قد اعترف بنزاهتك كما اعترف بشهامتك .

— أنت سترحلين يا آنسة نيفيل ! آه ! لا تقولى هذه الكلمة الآن .

— ماذا تريد ؟ . . . فان والدى لا يستطيع أن يصطاد دائما ... وهو يريد الرحيل .

وعند ذلك ترك أورسو يده التى كانت تمسك يد الآنسة ليديا تهوى ثم سادت بينهم لحظة صمت قالت على أثرها كولومبا :

— نحن لن ندعكما تسافران بهذه السرعة ، إذ لا يزال لدينا كثير من الأشياء نريد أن نريكما إياها فى بييترانيرا . . . وفوق ذلك فقد وعدتنى أن تصنعى لى صورة ولم تبتدئيها بعد . . . وأنا وعدتك بأن أنشىء لك « سيريناتا[1] » مؤلفة من خمس وسبعين مقطوعة . . . ثم . . . لكن ماذا يجعل بروسكو يُهَمْهِم ؟ . . . وها هو ذا براندولاشيو يعدو خلفه . . . فلننظر ماذا حدث .

---

(١) السيريناتا هى أنشودة موسيقية يوقعها الشبان ويغنونها فى الليل إما تحت نوافذ المحبوبات ، وإما فى العزلة ليندبوا بها حظوظهم بسبب الهجر ، وهى فى الغالب حزينة متشائمة .

وعلى أثر ذلك نهضت ووضعت بدون كلفة رأس أورسو فوق ركبتى الآنسة نيفيل،وعدت نحو الشقيين.فدهشت الآنسة نيفيل حينما ألفت نفسها على هذه الحالة تسند شابا جميلا وأحست أنه يختلى بها فى وسط غابة ولم تعرف ماذا تصنع ، لأنها كانت تخشى — لو تخلت بغتة عن مهمتها — أن تؤلم الجريح ، ولكن أورسو ترك من تلقاء نفسه تلك التكأة العذبة التى قدمتها إليه شقيقته ثم اعتمد على ذراعه اليمنى وقال :

— وهكذا أنت ستسافرين عما قريب ياآنسة ليديا . نعم أنا لم أتصور قط أنك ستطيلين إقامتك فى هذه البلاد التعسة... ومع ذلك ... فمنذ أن قدمت إلى هنا وأنا أتألم مائة ضعف ألمى الأول كلما أفكر فى أنه لابد من أن أقول لك وداعا ... أنا ملازم فقير ... وبدون مستقبل . والآن أنا منفى متعقب . أية لحظة هذه لكى أصرح لك فيها بحبى ياآنسة ليديا ! ولا ريب أن هذه هى المرة الوحيدة التى أستطيع أن أقول لك فيها ذلك ، ولكن يخيل الىّ أننى أقل شقاء الآن بعد أن أسريت عن قلبى .

وعلى أثر ذلك أدارت الآنسة ليديا رأسها كما لو كان الظلام لايكفى لإخفاء حمرة وجهها ، وقالت بصوت مضطرب :

— ياسيد ديلاربيا هل كنت أجىء فى هذا المكان لولا...

وبينما هى تنطق بهذه الجملة كانت تضع فى يد أورسو التعويذة المصرية ، ثم تكبدت مجهودا عنيفا لتستعيد نبرة المزاح الى هى معتادة عليها وأضافت الى ما تقدم قولها :

— إنه لسيئ من جانبك يا سيد أورسو أن تتحدث على هذا النحو . . . وأنت فى وسط الغابة ومحوط بأشقيائك . أنت تعرف معرفة تامة أننى لن أجرؤ أبدا على أن أغضب منك .

وحينئذ هم أورسو بحركة ليقبل اليد التى كانت ترد اليه التعويذة ، ولكن الآنسة ليديا جذبتها على عجل ففقد توازنه وسقط على ذراعه الجريحة فلم يستطع أن يكبت أنة أليمة . وإذ ذاك صاحت الآنسة ليديا وهى تنهضه قائلة :

— لقد تألمت يا صديقى ، وهذه هى غلطتى فاغفر لى ...

وبعد ذلك أخذا يتحدثان وقتا بصوت خافت وقد اقترب كل من صاحبه كثيرا . ولما عادت كولومبا مسرعة ألفتهما على الهيئة التى غادرتهما عليها فصاحت قائلة :

— الجنود السريعون ! فحاول يا أورسو أن تنهض وتسير ، وأنا أساعدك .

— دعينى وقولى للشقيين أن ينجوا بنفسيهما . . . ليأخذونى فهذا لا يعنينى ، ولكن خذى الآنسة ليديا وأستحلفك بالله ألا يراها أحد هنا .

فقال براندولاشيو وكان يتبع كولومبا :

— أنا لن أدعك ، إذ أن رئيس هؤلاء الجنود من صنائع المحامى وهو — بدل أن يقبض عليك — سيقتلك ثم يقول إنه لم يفعل ذلك عامدا .

فهمّ أورسو بالنهوض ، بل خطا بضع خطوات ولكنه لم يلبث أن توقف عن السير وصرخ قائلا :

— أنا لن أستطيع أن أمشى ، ففروا أنتم . وداعا يا آنسة نيفيل . أعطينى يدك ووداعا !

فصاحت الآنستان قائلتين :

— نحن لن نتركك .

وقال براندولاشيو :

— إذا كنت لا تستطيع أن تسير فينبغى أن أحملك . هلم يا ملازمى ، قليلا من الشجاعة . إن لدينا من الوقت ما يسمح لنا بالفرار من ذلك الممر الخلفى ، وسيدى القسيس سيشاغلهم .

فقال أورسو وقد انبطح على الأرض :

— كلا ، دعونى . بالله يا كولومبا خذى الآنسة نيفيل .

ولكن براندولاشيو قال :

— أنت قوية يا آنسة كولومبا فاحمليه من كتفيه ، وأنا أحمله من ساقيه ، وهذا حسن . فإلى الأمام .

وعندئذ حملاه رغم احتجاجاته وجعلت الآنسة ليديا تتبعها فى فزع عظيم . وإنهم كذلك إذ سمعت طلقة وأجابتها على الفور خمس طلقات أو ست ، فصرخت الآنسة ليديا ، وسخط براندولاشيو ولكنه ضاعف سرعته وجعلت كولومبا تحاكيه فتجرى فى الغابة دون أن تتنبه إلى الأغصان التى كانت تلهب وجهها أو تمزق ثوبها وكانت تقول لرفيقتها :

— انحنى انحنى ياعزيزتى ، إذ من الممكن أن تصيبك رصاصة .

وكانوا قد ساروا أو بالأحرى : عدوا حوالى خمسمائة خطوة على هذا النحو حينما أعلن براندولاشيو أنه لم يعد يستطيع أكثر

من ذلك وترك نفسه يهوى على الأرض رغم تشجيعات كولومبا وتأنيباتها ، وإذ ذاك سأل أورسو قائلا :

— أين الآنسة نيفيل ؟

ولما كانت ليديا قد انذعرت من طلقات البنادق وجعلت كثافة الغابة تعوقها عن السير فانها لم تلبث أن فقدت أثر الهاربين وبقيت وحدها فريسة لأفظع أنواع القلق . غير أن براندولاشيو أجاب على سؤال أورسو قائلا :

— إنها تأخرت خلفنا ، ولكنها لم تفقد ، فالنساء يوجدون دائما . استمع يا أورس أنتون كيف أن القسيس يحدث ضجيجا ببندقيتك ، ولكن المرء لسوء الحظ لا يكاد يرى شيئا ولا يحدث المتقاتلون كبير شر باطلاق بعضهم على بعض على هذا النحو فى الليل .

وفجأة صاحت كولومبا قائلة :

— صه فأنا أسمع وقع جواد . وإذاً ، فقد نجونا .

وفى الواقع أن جوادا كان مارا آنئذ فى الغابة وأزعجه صوت الطلقات فاقترب منهم فقال براندولاشيو :

— لقد نجونا !

ولم يكن الجرى نحو الجواد والقبض عليه من معزفته ، وإمرار حبل فى فمه بدل اللجام عند الشقى الذى عاونته كولومبا إلا عمل لحظة واحدة ، وعلى أثر ذلك قال :

- والآن لننبئ القسيس .

وعند ذلك صفر مرتين فأجابت على رمزه صفرة أخرى

بعيدة كفت على أثرها بندقية مانتون عن إسماع صوتها الضخم وحينئذ قفز براندولاشيو فوق الجواد ووضعت كولومبا شقيقها أمامه فتناوله باحدى يديه بينما كان يقود بالأخرى مطيته . ورغم تضاعف الحمل على الجواد ، فان ضربتين قويتين فى بطنه قد جعلتاه ينطلق فى خفة وينزل عاديا تلا ردئ الانحدار جديرا بأن يقتل مائة مرة أى جواد آخر غير كورسيكى .

وعلى أثر ذلك عادت كولومبا أدراجها وأخذت تنادى الآنسة نيفيل بكل قواها ، ولكن لم يجب على ندائها أى صوت . . . وبعد أن سارت بضع خطوات على غير هدى باحثة عن الطريق الذى سلكته آنفا التقت فى أحد الممرات بجنديين فصاحا بها فى الحال :

— من هناك ؟

فأجابت فى لهجة ساخرة قائلة :

— ماذا أيها السادة ؟ هذا ضجيج عظيم ، فكم يوجد من القتلى ؟

فقال لها أحد الجنديين :

— أنت كنت مع الأشقياء ، وستجيئين معنا .

— بكل غبطة لكن معى صديقة هنا ، وينبغى قبل كل شئ أن نجدها .

— إن صديقتك قد أخذت بالفعل وستذهبين لتنامى معها فى السجن .

— فى السجن ؟ هذا شئ فيه نظر ، ولكن الآن اقتادانى نحوها .

وعندئذ اقتادها الجنديان إلى مأوى الشقيين الذى كان الجنود قد جمعوا فيه كل غنائم حملتهم أى المعطف الذى كان أورسو متزملا به وقدر قديم وجرة ممتلئة بالماء ، وفى هذا المأوى ألفت الآنسة نيفيل التى عثر عليها الجنود نصف ميتة من الخوف والتى كانت تجيب بعبرات على جميع أسئلتهم عن عدد الأشقياء وعن الطريق الذى سلكوه ، فلما رأتها كولومبا ألقت بنفسها بين ذراعيها وأسرّت فى أذنها بهذه الكلمة : « لقد نجوا » ثم اتجهت إلى رئيس الجنود وقالت له :

— أيها السيد أنت ترى فى وضوح أن الآنسة لا تعرف شيئا مما تسألها عنه ، فدعنا نعد إلى القرية ، إذ أن هناك من ينتظرنا بفارغ الصبر .

— ستقادين إليها وبأسرع مما تشتهين يا لطيفتى وسيكون عليك أن توضحى ما ذا كنت تفعلين فى الغابة فى هذه الساعة مع أولئك الأشرار الذين فروا . أنا لا أدرى أى سحر ذلك الذى يستعمله هؤلاء الأشقياء ، ولكنهم بكل تأكيد يجذبون الفتيات لأنه فى كل مكان يوجد فيه أشقياء يكون المرء متأكداً من أن يجد فيه جميلات .

— أنت ظريف ياسيدى الجندى ، ولكنك لا تسىء صنعاً لو أنك تنبهت إلى كلماتك ، فهذه الآنسة هى قريبة المحافظ ولا ينبغى المزاح معها .

وعندئذ تمتم أحد الجنود فى إذن رئيسه قائلا :

— قريبة المحافظ ! فى الواقع أن على رأسها قبعة .

غير أن الرئيس أجاب بقوله :

— إن القبعة لا تدل على شئ وإنهما كانتا كلتاهما مع القسيس الذى هو أعظم مغو فى هذه البلاد ، وواجبى يقضى علىّ بأن أقتادهما على أنه لم يعد لدينا شئ هنا ، ولولا أن هذا الأنباشى الملعون توبان . . . ذلك الفرنسى السكير قد أظهر نفسه قبل أن أتم محاصرة الغابة لأخذناهم كما لو كانوا فى شبكة .

فقالت كولومبا :

— أأنتم سبعة فحسب ؟ هل تعرفون أيها السادة أن الأشقياء الثلاثة : جامبينى ، وساروكى ، وتيودور بولى ، لو كانوا موجودين عند صليب القديسة كرستينا مع براندولاشيو والقسيس لاستطاعوا أن يذيقوكم كثيراً من العناء ، وإذا لم يكن لكم بد من محادثة مع تيودور بولى رئيس هذه العصابة فأنا لا أشغل نفسى بأن أحضرها ، إذ الرصاص فى الليل لا يعرف أحداً .

فبدا على الجنود أن إمكان التقائهم بأولئك الأشقياء المخيفين الذين ذكرت كولومبا أسماءهم قد أثر فى نفوسهم . ومع ذلك فقد أمرهم الرئيس بالسير وهو لا يزال يكرر سخطه على الأونباشى توبان ، ذلك الكلب الفرنسى . فساروا نحو بييترانيرا حاملين المعطف والقدر ، أما الجرة فقد ركلت بضربة قدم . ولقد أراد أحدهم أن يتأبط ذراع الآنسة ليديا ، ولكن كولومبا دفعته على الفور وقالت له :

— لا يمسحها أحد . هل تظنون أننا نرغب فى الفرار ؟ هيا ياليديا يا عزيزتى إعتمدى علىّ ولا تبكى كالطفلة . فتلك حادثة ولكنها لن تنتهى سيئا . وبعد نصف ساعة سيكون أمامنا العشاء وفيما يتعلق بى أنا أكاد أموت من الرغبة فى الأكل .

وحينئذ قالت الآنسة نيفيل بصوت خافت :

— ما ذا سيتصور الناس فىّ ؟

— إنهم سيتصورون أنك ضللت فى الغابة ، وهذا هو كل شئ .

— وماذا سيقول المحافظ ؟ . . . وماذا سيقول والدى على الأخص ؟

— فأما المحافظ فإنك ستجيبينه بأنه يجب أن ينشغل بمحافظته ، وأما عن والدك فقد كنت أظن — من أسلوبك مع أورسو — أن لديك ما ستقولينه له .

فضغطت الآنسة نيفيل على ذراعها ولم تجب ، ولكن كولومبا تمتمت فى أذنها قائلة :

— أليس شقيقى يستحق أن يحب ؟ أولا تحبينه قليلا ؟

فأجابت الآنسة نيفيل باسمة رغم خجلها :

— آه يا كولومبا لقد خدعتنى أنا التى كنت واثقة بك إلى حد بعيد .

ولكن كولومبا طوقت قامتها بذراعها وتبلتها فوق جبهتها وقالت لها بصوت خافت :

— يا أختى الصغيرة هل تغفرين لى ؟

فأجابت ليديا وقد ردت إليها قبلتها قائلة :

— ينبغى ذلك يا أختى المرعبة .

ولما كان المحافظ ورئيس النيابة يقيمان فى منزل نائب عمدة بييترانيرا وكان الكولونيل شديد القلق على ابنته فقد ذهب إليهما نحو عشرين مرة يسألهما عن أنبائها ، وإنه لكذلك إذ بالجندى الذى بعثه الرئيس ليبلغ أبناء الحملة يصل فيقص عليهم قصة المعركة المزعجة التى اشتعل أوارها بينهم وبين الأشقياء والتى حقاً لم يكن فيها قتلى ولا جرحى ولكنهم استولوا فيها على قدر ومعطف وفتاتين كانتا إما خليلتى الأشقياء وإما جاسوسيتهم . وبهذا العنوان نفسه مثلت الأسيرتان فى وسط موكبهما المسلح .

ولا جرم أنه يصعب على القارىء أن يتكهن بمظهر كولومبا المرح المتلألىء وبخجل رفيقتها وبدهشة المحافظ وبابتهاج الكولونيل وتعجيبه . أما رئيس النيابة فقد منح نفسه ذلك السرور الماكر بتحميل ليديا عبء نوع من التحقيق لم ينته إلا بعد أن أفقدها كل ثباتها . وأخيراً قال المحافظ :

— يخيل إلىَّ أننا نستطيع إطلاق حرية الجميع ، إذ أن هاتين الآنستين كانتا تتنزهان ، ولا شىء أوفق بالطبيعة من نزهة فى وقت صحو ، ثم التقتا مصادفة بشاب جميل جريح ، ولا شىء أكثر طبيعية من هذا أيضاً .

ثم انتحى بكولومبا ناحية وقال لها :

— يا آنسة تستطيعين أن تبعثى إلى شقيقك من ينبئه بأن قضيته قد اتجهت اتجاها أفضل مما كنت أؤمله وأن فحص الجثتين وشهادة الكولونيل قد أظهر أنه لم يفعل أكثر من أنه كان يدافع عن نفسه ، وأنه كان وحده فى ساعة المعركة . وإذاً ، فسيتحسن كل شئ ، ولكن ينبغى أن يغادر الغابة بأسرع مايمكن وأن يسلم نفسه إلى السجن .

ولقد كانت الساعة تناهز الحادية عشرة حينما جلس الكولونيل وابنته وكولومبا إلى المائدة أمام عشاء قد برد . وجعلت كولومبا تأكل برغبة عظيمة وتسخر من المحافظ ومن رئيس النيابة والجنود . وكان الكولونيل يأكل ولكنه لم ينبس ببنت شفة ، وكان ينظر دائما إلى ابنته التى لم تكن ترفع عينيها عن الإناء الذى أمامها . وأخيراً قال لها بالانجليزية فى صوت وديع جدى :

— ليديا هل أنت إذاً ارتبطت مع ديلاربيا ؟

فأجابت وقد احمر وجهها ولكن فى صوت حازم قائلة :

— نعم يا والدى منذ اليوم .

ثم رفعت عينيها فلما لم تلمح على وجهه أية أمارة من أمارات الغضب ألقت بنفسها بين ذراعيه وقبلته كما تفعل الآنسات ذوات التربية الراقية فى مثل هذه الظروف . وإذ ذاك قال الكولونيل :

— نعم ما فعلت فهو شاب شهم ، لكن أستحلفك بالله ألا نمكث فى هذه البلاد الفظيعة أو ارفض موافقتى .

وكانت كولومبا فى هذه الأثناء تنظر إليهما وهى فى أقصى حدود رغبة الاطلاع ثم قالت لها :

— أنا لا أعرف الانجليزية ولكننى أراهن أننى تكهنت بما تقولان .

فقال الكولونيل :

نحن نقول إننا سندعوك إلى رحلة فى ايرلاندا .

— نعم بكل اغتباط ، وسأكون الأخت كولومبا . فهل انتهى كل شئ يا كولونيل ؟ وهل يضع كل منا يده فى يد الآخر ؟

فقال الكولونيل :

— فى مثل هذه الحالات يتعانق الناس .

٢٠

بعد مضى بضعة شهور على الضربة المضاعفة التى غمست قرية بييترانيرا فى الأسى (كما تقول الصحف) غادر شاب معصوب الذراع اليسرى مدينة باستيا ممتطيا جوادا ، وكان ذلك بعد الظهر واتجه نحو قرية كاردو الشهيرة بنبعها الذى يفيض فى الصيف على علية أهل المدينة ماء لذيذا . وكانت فى رفقته سيدة طويلة القامة وذات جمال يلفت النظر ممتطية جوادا قصيراً أسود يستطيع العالم بالجياد أن يعجب بقوته ورشاقته ، ولكن أذنه لسوء الحظ كانت مشقوقة بحادثة غريبة.

ولما وصلا إلى القرية قفزت الشابة بخفة إلى الأرض ، وبعد أن أعانت صاحبها على النزول حلت حقائب ثقيلة بعض الشيء كانت مربوطة فى سرج جوادها ووكلت الجوادين إلى حراسة أحد القرويين ، ثم حملت الحقائب تحت مئزرها وتناول الشاب بندقية ذات طلقتين وسلكا سبيلهما نحو الجبل فسارا فى ممر غير معبد لا ينتهى إلى أى منزل . ولما وصلا إلى منبطح عال توقفا عن السير وجلسا فوق الأعشاب وكانا كأنهما ينتظران أحدا ، إذ أنهما كانا يلتفتان نحو الجبل بدون انقطاع . وكانت الشابة تنظر غالبا فى ساعة ذهبية جميلة ، ومن الممكن أن يكون ذلك لمشاهدة حلية يظهر أنها لم تملكها إلا منذ وقت قصير بقدر ما هو لمعرفة أساعة الوعد قد حانت أم لا ؟

ولم يطل وقت الانتظار ، إذ خرج من الغابة كلب ، وعلى أثر سماعه الشابة تنطق اسم بروسكو ، بادر بالاقبال عليهما وأخذ يداعبهما . وبعد قليل ظهر رجلان ملتحيان ، وكل منهما تحت ذراعه بندقية وفى منطقته غدارة . وكانت ملابسهما المزقة المرقعة تتناقض مع أسلحتهما المتلألئة المصنوعة فى مصانع شهيرة فى القارة . ورغم عدم التلاؤم الظاهر فى هيئات هؤلاء الأشخاص الأربعة الذين مثلهم هذا المنظر ، فانهم التقوا فى غير كلفة كأنهم أصدقاء قدماء ثم قال أكبر الشقيين سنا للشاب :

— إيه يا أورس أنتون ، ها هى ذى قضيتك قد انتهت ،

وقد صدر أمر بألا محل لاقامة الدعوى ، فاليك تهنئاتى ، وإننى لآسف على أن المحامى لم يعد بعد مقيما فى الجزيرة ، لأنى كنت أود أن أراه مسعورا . وكيف ذراعك ؟

— قيل لى إننى بعد خمسة عشر يوما أستطيع أن أترك العصائب . — يا براندولاشيو يا صديقى إنى سأرتحل غدا إلى إيتاليا ، وقد أردت أن أقول لك ولسيدى القسيس وداعا . ولهذا رجوتكما أن تجيئا .

فقال براندولاشيو :

— إنك لجد معجل ، لقد برئت أمس وترتحل غدا ؟

فقالت الشابة بمرح :

— إن لدينا أعمالا . أيها السيدان ، ولقد أحضرت إليكما العشاء ، فكلا ولا تنسيا صديقى بروسكو .

— أنت تدللين بروسكو يا آنسة كولومبا ، لكنه حافظ للجميل وسترين .

ثم قال وقد مدّ بندقيته بشكل أفقى :

— هيا يا بروسكو . إقفز لأجل الباريتشينيين .

فوقف الكلب جامدا وجعل يلعق وجهه وينظر إلى سيده ثم قال له :

— إقفز لأجل الديلاربيين !

فقفز بروسكو قدمين فوق ما تقتضيه الضرورة . وعلى أثر ذلك قال أورسو :

— إصغيا إلىّ ياصديقى أنتما تمتهنان الآن مهنة رديئة ،

وإذا لم يحدث لكما أن تحتلا دوركما فى ذلك الميدان [١] الذى نراه هنالك ، فان خير ما يمكن أن يقع لكما هو السقوط فى الغابة تحت رصاصة أحد رجال الشرطة .

فقال كاستريكونى :

— حسن ، فذلك موت كآخر ، وهو أفضل من حمى تقتل المرء فى سرير وفى وسط دموع يسكبها عليه ورثته ويختلف الاخلاص فيها كثرة وقلة . وحينما يتعود الانسان مثلنا على الهواء الطلق لا يكون لديه شيء يعادل موته فى حذائه كما يقول أهل قريتنا .

غير أن أورسو استمر يقول :

— أنا أود أن أراكما تغادران هذه البلاد وتعيشان عيشة أكثر هدوءا . فمثلا لماذا لا تذهبان إلى ساردينيا لتستقرا فيها كما يفعل كثيرون من رفاقكما ؟ وأنا أستطيع أن أسهل لكما هذه الوسيلة .

فصاح براندولاشيو قائلا :

— فى ساردينيا ، عند الساردينيين ! ليحملهم الشيطان هم ولهجتهم الريفية . إن هذه لرفقة رديئة لنا .

ثم أضاف الالهى إلى ذلك قوله :

— إنه لا توجد وسائل للحياة فى ساردينيا ، وأنا شخصيا أحتقر الساردينيين لأن لديهم لمطاردة الأشقياء نوعا من الجنود

(١) كان ذلك الميدان الذى يشير إليه موضع تنفيذ أحكام الاعدام على المجرمين فى مدينة باستيا .

الخيالة ، وفى هذا نقد للأشقياء وللبلاد [1] فى الوقت عينه .
وإذاً، فلا ساردينيا. وإنه لما يدهشنى يا سيد ديلاريبا أنك — وأنت رجل ذو معرفة — لم تألف حياتنا فى الغابة بعد أن ذقتها كما فعلت .

— إنى حينما نلت السرور بأن أكون ضيفكما لم أكن فى موقف يمكننى من أن أقدر سحر حالتكما حق قدره ، ولكن أضلاعى لا تزال تؤلمنى كلما تذكرت الرحلة التى قمت بها فى تلك الليلة الجميلة موضوعا كأننى حزمة فوق جواد بدون سرج كان صديقى براندولاشيو يقتاده .

فاستأنف كاستريكونى يقول :

— والسرور بالنجاة من التعقب ألا تعده شيئا ؟ كيف يمكن ألا تشعر بفتنة الحرية المطلقة تحت جو بديع كجونا ؟

ثم أشار إلى بندقيته واستمر يقول :

— بهذا الحامل للاحترام يكون الانسان ملكا فى كل مكان بقدر ما تبتعد الرصاصة فيأمر ويصلح الأخطاء . . . وتلك تسلية جد خلقية يا سيدى ، وجد لذيذة لا نأباها على أنفسنا . أية حياة أجمل من حياة فارس مشرد حينما يكون المرء أعظم تسلحا

---

(١) أنا مدين بهذه الملاحظة النقدية لشقى قديم من أصدقائى ، وانى أدع التبعة كلها تقع عليه فيها . ومعنى هذه الجملة أن الاشقياء الذين يدعون أنفسهم يسقطون بين أيدى الخيالة هم أغبياء ، وأن الجنود الذين يتعقبون الاشقياء على الجياد لا يسعدهم الحظ بلقائهم إلا قليلا .

وأكثر تعقلا من دون كيشوت [١]. وهناك مثلا : لقد علمت منذ أيام أن عم الفتاة ايلا لويدجى ذلك العجوز الشحوح لايريد أن يمنحها « دوتة » فكتبت إليه بدون تهديد ، إذ ليس ذلك من وسائلى فلم يلبث أن اقتنع فى نفس اللحظة وزوجها . وهكذا أنشأت سعادة شخصين ، فصدقنى يا سيد أورسو أنه لا شئ يشبه حياة الشقى . على أنه كان من الممكن أن تكون بنا لولا تلك الانجليزية التى لم أزد على أننى لمحتها على عجل ، لكن الناس جميعا فى باستيا يتحدثون عنها باعجاب.

وعند ذلك قالت كولومبا ضاحكة :

— إن خطيبة شقيتى لا تحب الغابات الكورسيكية وقد خافت منها كثيرا .

وقال أورسو :

— وأخيرا أنتما تريدان المكث هنا ، فليكن ذلك ، ولكن قولا لى : هل أستطيع أن أعمل لكما شيئا ؟

فأجاب براندولاشيو :

— لاشئ إلا أن تحفظ لنا فى نفسك تذكارا صغيرا ، فقد

---

(١) دون كيشوت هو بطل تلك الرواية العالمية التى ألفها الاسبانى الشهير ميشيل سيرفانتيس لينتقد بها ماكانت روايات الفروسية فى القرون الوسطى تحدثه فى رؤوس الشباب من آثار ضارة وما كانت تدفعهم إليه من مغالاة فى رؤية الجمال ممثلا فى وسط الدمامة . وقد اتخذ المؤلف بطله دون كيشوت كنموذج لهذا الشباب الضال الذى أفسدت مطالعة تلك الروايات عقليته فجعلته يعجب أقصى الاعجاب بأحقر الاشياء وأدخلها فى باب العامية. (المترجم)

غمرتنا بنعمك فعلا ، إذ ها هى ذى شيلينا لديها «دوتة» وليست فى حاجة — لكى تتثبت حياتها — إلى أن يكتب صديقى القسيس رسائل بدون تهديد ، ونحن نعرف أن حارس ضيعتك سيقدم إلينا خبزا وبارودا عند الضرورة . وإذاً ، فوداعا وأرجو أن أراك فى كورسيكا فى يوم من الأيام المقبلة .

فقال أورسو :

— إن بضع قطع من الذهب تقدم إلى الإنسان خيرا فى اللحظة الملحة . والآن بعد أن أصبحنا معارف قدماء فأنتما لن ترفضا أن تقبلا منى هذه الخرطوشة (١) الصغيرة التى قد تنفعكما فى أن تجلبا بها خرطوشات أخرى .

فأجاب براندو لاشيو فى لهجة مصممة :

— كلا لامال بيننا ياملازمى .

وحيئنذ أضاف كاستريكونى إلى ماتقدم قوله :

— إن المال يفعل كل شئ فى العالم ، ولكن فى الغابة لا تمنح القيمة إلا لقلب شهم ولبندقية لاتخيب .

— أنا لا أود أدعكما دون أن أترك لكما بعض التذكارات . فقل يابراندو . ماذا أستطيع أن أترك لك .

فحك الشقى رأسه وألقى على بندقية أورسو نظرة بمؤخر عينه وقال :

— يالله ياملازمى . . . إذا كنت أجزؤ . . . لكن لا ، أنت تتمسك بها كثيرا .

---

(١) الخرطوشة التى يريد أن يقدمها إلى الشقى هى ظرف بندقية ملأه بقطع من العملة الذهبية . (المترجم)

— ماذا تريد ؟

— لاشئ . . . ما أريده ليس فى ذاته شيئا . . . وإنما ينبغي وجود وسيلة استخدامه . . . أنا أفكر دائما فى هذه الضربة الشيطانية المضاعفة والتى هى بيد واحدة . . . أوه ! هذا لا يحدث مرتين .

— إنما هذه البندقية هى التى تريدها ، أليس كذلك ؟ ... لقد أحضرتها لأجلك ، لكن استعملها أقل ماتستطيع .

— أوه ! أنا لا أعدك بأن أستعملها مثلك ، لكن كن مطمئنا فحينما يستولى عليها شخص آخر تستطيع أن تقول إن براندو سافيلى قد أسلم النفس الأخير .

— وأنت يا كاستريكونى ماذا أعطيك ؟

— مادمت تريد حتما أن تترك لى تذكارا ماديا منك ، فأنا أطلب منك بدون تكليف أن تبعث الىّ ديوان هوراس فى حجم صغير بقدر المستطاع ، فذلك سيسلينى ويحول بينى وبين نسيان اللاتينية ، وهناك فتاة تبيع لفافات على إفريز باستيا ، فاعطها إياه ، وهى ستحضره لى .

سأبعث إليك بنسخة من طبعة إيلزيفير [١] ياسيدى العالم . وبالفعل توجد لدى نسخة من هذه الطبعة ، وهى بين الكتب التى أريد أن أحملها معى . والآن ياصديقى ينبغى أن

---

(١) إيلزيفير هو اسم أسرة كانت تشتغل بالطبع الجيد فى هولاندا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وكل ما بقى من مطبوعاتها كان يباع بقيمة عظيمة . (المترجم)

نفترق ،فلنتصافح ، وإذا فكرتما يوما فى ساردينيا ، فاكتبا إلىّ . والمحامى ن *** سيعطيكما عنوانى فى القارة .

فقال براندو :

— يامىلازمى ، غدا حينما ستصير خارج المرفأ فانظر الى الجبل فى هذا المكالى فسنكون هنا ، وسنشير إليك بمنديلنا .

ثم افترقوا ، فسلك أورسو وشقيقته طريق كاردو ، وسلك الشقيان طريق الجبل .

٢١

فى صباح أحد أيام ابريل الجميلة خرج الكولونيل توماس نيفيل وابنته التى لم يمض على زواجها إلا القليل ، وأورسو وكولومبا من مدينة بيزا فى مركبة قاصدين زيارة قبر « إيتروسكى [1] » كان قد اكتشف حديثا ، وكان جميع الأجانب يذهبون لرؤيته . ولما نزل أورسو وزوجته إلى داخل الأثر ، أخرجا قلميهما وشرعا يرسمان مافيه من صور ، لكن الكولونيل وكولومبا اللذين لم يكونا يكترثان بالآثار قد جعلا يتنزهان فى الأماكن القريبة من ذلك الموضع . وإذ ذاك قال الكولونيل لكولومبا :

— عزيزتى كولومبا ، نحن لن نعود إلى بيزا فى وقت

(١) الإيتروسك هم الأسلاف الأولون للايتاليين وقد كانت لهم مدنية زاهرة حوالى القرن الخامس عشر قبل المسيح . (المترجم)

الغداء . أفلست جائعة ؟ فها هو ذا أورسو وزوجته فى الآثار ومتى شرعا فى الرسم معا فهما لا ينتهيان ؟

— نعم ، ومع ذلك فهما لا يحضران معهما أقل رسم .

— من رأيى أن نذهب إلى هذه العزبة الصغيرة ، فسنجد فيها خبزا ونبيذا وقد نجد فيها أيضا قشدة وفريزا فنأكل وننتظر بصبر رسامينا .

— أنت محق يا كولونيل ، فأنت وأنا الشخصان العاقلان فى المنزل ، وسنكون مخطئين لو أننا أوقعنا على أنفسنا عذاب ذينك المحبين اللذين لا يعيشان إلا بالشعر . أعطنى ذراعك . ألست قد تطورت ؟ فأنا الآن أتأبط الأذرعة ، وأضع على رأسى القبعات وألبس الثياب الحديثة ، وأتعلم من الأشياء الجميلة عددا لا أحصيه ، ولم أعد ألبتة متوحشة أنظر قليلا الرشاقة التى لدىّ فى وضع هذا الشال . . . وذلك الأشقر ، ذلك الضابط الذى كان من كتيبتك والذى حضر حفلة الزواج . . . أنا لا أستطيع أن أحفظ اسمه ، ذلك الطويل الأجعد الشعر الذى لو أردت لألقيته على الأرض بوكزة يد .

— أتعنين شاتوورث ؟

— نعم هو ذاك ، لكنى لن أستطيع النطق باسمه أبدا . ذلك الشاب يحبنى إلى حد الجنون .

— آه ! يا كولومبا أنت صرت ذات دلال ، وبعد قليل من الوقت سيكون لدينا زواج آخر .

— أأنا أتزوج ! ومن إذاً سيقوم بتربية ابن شقيقى . . . .

عند ما يقدم إلىَّ أورسو ابنا ؟ ومنذا الذى سيعلمه التحدث بالكورسيكية ؟ . . . نعم إنه سيتحدث بالكورسيكية ، وسأصنع له غطاء رأس مدببا ، لأغيظكم جميعا .

— إنتظر أولا حتى يكون لديك ابن شقيق وعلميه استعمال الخنجر أيضا إذا كان ذلك يروقك .

فقالت كولومبا بمرح :

— وداعا أيتها الخناجر ، والآن لدى مروحة لأضربك بها على أصابعك عند ما تقول كلاما سيئا عن بلادى .

وبينما هما يتحدثان على هذا النحو وصلا إلى العزبة فوجدا فيها نبيذا وفريزا وقشدة ، وقد جعلت كولومبا تساعد القروية على قطف الفريز بينما كان الكولونيل يشرب شيئا من النبيذ . وإنها لعلى هذه الحالة إذ لمحت فى زاوية أحد الممرات شيخا جالسا فى الشمس على مقعد من القش ، وكان يبدو عليه أنه مريض ، إذ كانت خداه يابستين ، وعيناه غائرتين وكان نحيلا إلى أقصى حد ، وكان سكونه وشحوبه ونظرته الجامدة تجعله شبيها بجثة أكثر منه بكائن حى .

فأخذت كولومبا تتأمله بضع دقائق بفضول استرعى انتباه القروية وجعلها تقول لها :

— هذا الشيخ المسكين هو أحد مواطنيكم ، لأنى عرفت من لهجتك أنك من كورسيكا يا آنسة ، وقد أصيب بكوارث فى بلاده فابناه قد ماتا بطريقة فظيعة يقال — وأسألك العفو يا آنسة — إن مواطنيك ليسوا رحماء فى عداواتهم ، وهكذا بقى

هذا السيد المسكين وحيدا ، فجاء إلى بيزا عند إحدى قريباته ، وهى مالكة هذه العزبة ذلك الرجل الشهم معتوه الآن قليلا بسبب كارثته وحزنه . ولما كان ذلك يضايق سيدتى التى تستقبل فى منزلها كثيرا من الناس ، فقد بعثته إلى هنا . إنه وديع ولا يضجر أحدا ، إذ هو لا ينطق بثلاث كلمات فى اليوم غاية ما فى الأمر أن العقل قد أخلى مكانه والطبيب يجئ إليه فى كل أسبوع وقد قال :

— إنه ليس لديه وقت طويل .

— آه ! إنه سيموت قريبا إذاً ؟ وفى مثل حالته يعتبر الانتهاء سعادة .

— يجب عليك يا آنسة أن تحدثيه قليلا بالكورسيكية ، فقد يسره سماع لغة بلاده .

فقالت كولومبا بابتسامة ساخرة :

— ينبغى أن نرى .

ثم اقتربت من الشيخ إلى أن حجب ظلها عنه ضوء الشمس ، فرفع المعتوه المسكين رأسه ونظر فى تحديق إلى كولومبا التى كانت هى الأخرى لا تزال تنظر إليه باسمة ، وبعد لحظة أمرّ الشيخ يده على جبهته وأغمض عينيه كأنه يود أن يفر من نظرتها ثم فتحهما بهيئة تجاوزت الحد العادى ، وكانت شفتاه تضطربان ، وكان يريد أن يمد يديه نحوها ، ولكن نظرات كولومبا أخضعته ، فظل كأنه مسمر فى مقعده . وأخيرا انذرفت من عينيه عبرات

ضخمة وانبعثت من صدره جهشات فقالت له القروية :

— هذه هى المرة الأولى التى أراه فيها على هذا النحو .

ثم وجهت الكلام إلى الشيخ فقالت :

— إن هذه الآنسة هى من بلدك وقد جاءت لتراك .

فصاح بصوت مبحوح قائلا :

— الرحمة الرحمة ، ألم تكتفى ؟ إن تلك الورقة . . . التى أحرقتها . . . كيف أنت توصلت إلى قراءتها ؟ . . . ولكن لماذا كلا الاثنين ؟ . . . أورلاندوشيو أنت لم تستطيعى أن تقرئى شيئا ضده . . . كان ينبغى أن تتركى لى واحدا فقط . . . أورلاندوشيو . . . أنت لم تقرئى اسمه .

فقالت كولومبا فى صوت خافت باللغة الكورسيكية :

— كانا كلاهما ينبغيان لى . إن الأغصان قد قطعت ، ولولا أن الجَذع قد تعطن لاقتلعته . إذهب ولا تولول فليس لديك وقت طويل تتألم فيه على حين تألمت أنا سنتين ؟

فانبعث من فم الشيخ صرخة ، وهوى رأسه على صدره ، فأولته كولومبا ظهرها وعادت بخطوات بطيئة نحو المنزل وهى تغنى بضع كلمات غير مفهومة من إحدى المرثيات ، وهذه ترجمتها:

« ينبغى لى اليد التى أطلقت ، والعين التى صوبت ، والقلب الذى فكر . . . »

و بينما كانت البستانية تسرع إلى إسعاف الشيخ كانت كولومبا — ووجهها منتعش ، وعيناها كأنهما لهب — قد جلست إلى المائدة أمام الكولونيل فقال لها :

— ماذا عندك ؟ أنا أرى عليك المنظر الذى كان يلوح على وجهك فى بييترانيرا فى ذلك اليوم الذى أرسل إلينا فيه الرصاص أثناء غدائنا .

— إنها لذكريات كورسيكا قد عادت إلى رأسى ، لكن ها هى ذى قد انتهت . سأصير أما ثانية [1]. أية أسماء بديعة تلك التى سأمنح ابن شقيقى إياها ! إننى سأسميه : «جيلفوشيو توماسو أورسوليونيه » .

وفى هذه اللحظة وصلت القروية فسألتها كولومبا فى هدوء عظيم قائلة :

— إيه ، هل مات أو أغمى عليه فحسب ؟

— لم يحدث له شئ خطير يا آنسة ، ولكن الغريب هو ما أحدثه منظرك فى نفسه من الأثر .

— وهل الطبيب قال إنه لن يعيش طويلا ؟

— قد لا يعيش شهرين .

— لن يكون ذلك خسارة عظيمة .

فسأل الكولونيل قائلا :

— عمن للشيطان أنت تتحدثين ؟

فأجابت كولومبا وعليها ملامح الاستهانة :

— أنا أتحدث عن معتوه من بلدى هو فى ملجأ هنا ،

---

(١) الأم الثانية هى السيدة أو الآنسة التى تحمل الطفل إلى الكنيسة يوم التعميد وتستمر بينها و بينه مدى الحياة علاقة متينة تشبه علاقة الأمومة. (المترجم)

وسأرسل من يستفسر عن أنبائه من حين إلى حين ، لكن يا كولونيل نيفيل أبق شيئا من الفريز لشقيقى ولليديا .

ولما غادرت كولومبا العزبة وهمت بالصعود إلى المركبة تبعتها القروية بعينيها هنيهة ثم قالت لابنتها :

— أرأيت هذه الآنسة الجميلة ؟ إننى لواثقة من أن عينها سيئة .

مطابع دار الكاتب العربي شركة مساهمة مصرية

أصدرت دار الكاتب المصرى باشراف الدكتور طه حسين بك

موريس باريس

جنة على نهر العاصى

ايفان ترجنيف

الحب الأول

أندريه جيد

أوديب — تيسيوس
الباب الضيق
مدرسة الزوجات

فيدور دستويفسكى

المقامر

ليون دوديه

كليمنصو وحياته العاصفة (مصور)

أنطوان دى سانت اكسوبرى

أرض البشر (مصور)

ستندال

دير بارم (جزءان)

إميل لودفيج

نابليون (مصور فى جزأين)

بروسبير ميريميه

كولومبا

أندريه موروا

وارن الأرواح

فرنسوا مورياك

والدة

أوسكار وايلد

صورة دوريان جراى (مصور)
شبح كانترفيل (مصور)

ه . ج . ولز

طعام الآلهة

أولدس هكسلى

العالم الطريف



ابراهيم المصرى

قلوب الناس (قصص

محمد سعيد العريان

من حولنا (قصص
على باب زويلة (قصة ت

محمد عبد الحليم عبد الله

لقيطة (جائزة فاروق

يحيى الخشاب

حكايات فارسية



دار الكاتب المصرى
شركة مساهمة مصرية

٥ شارع قنطرة الدكة
القاهرة مصر